﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾ [القصص]

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أى : تستدفئون بها ، وفى موضع آخر قال ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..(٧)﴾ [النمل] يعنى : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم - إذن - على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى فى مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفى موضع آخر[1] لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : ﴿امْكُثُوا ..(٢٩)﴾ [القصص] وهذا من المآخذ التى يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

فزوجة وزوجها ضمَّهما الظلام فى مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعى حين يقول لها : إنى رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركنى وحدى فى هذا المكان ؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا .. (٢٩)﴾ [القصص] إذن : لابُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك فى : ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] وفى مرة أخرى ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩)﴾ [القصص] قالوا : لأنه لما رأى النار قال ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدرك ، فقال ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩)﴾ [القصص] على سبيل رجاء غير المتيقن .

---

(١) وذلك فى سورة النمل . قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)﴾ [النمل]

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا:﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ..﴿٣٠﴾ ﴾[القصص]

ومضمون النداء : ﴿ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب في كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتي الصوت ؟ وليس له إلْفٌ بأن يخاطبه الرب - تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل في فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفىء النار برطوبتها[1] . فهي - إذن - مسألة عجيبة يحارُ فيها الفكر ، فهل يستقبل كُلُّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بكر الثقفي قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهي خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه فذعر وفزع .. (أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٤١٢) .

وفى موضع آخر يسأله ربه ليؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] وقُلْنا : إن موسى ـ عليه السلام ـ أطال فى هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتى الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار فى خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شىء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنىٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ : قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا فى هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهى صور ثلاثة للشىء الواحد ، فهى فى خِفَّتها جانٌّ ، وفى طولها ثعبان ، وفى غِلَظها حية .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص] يعنى : انصرف خائفاً ،

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ..(٣١)﴾ [القصص] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. (٣١)﴾ [القصص] يعني : ارجع ولا تخفْ من شيء ، ثم يعطيه القضية التي يجب أن تصاحبه في كل تحركاته في دعوته ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك في هذا الموقف إنما ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ (٣١)﴾ [القصص]

يعني : هي قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك في مَعِيّة الله ، ومَنْ كان في معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟

وهكذا يعطي الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده في جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى ـ عليه السلام ـ بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التي رآها فزادتْه ثقة وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فقال بملء فيه : ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فحيثية الثقة عند موسى ـ عليه السلام ـ هي معيَّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب في وقتها حالاً ، فهاهم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله في معيَّته وحفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل]

وقد قُصَّ هذا كله على نبينا محمد ﷺ ، فانتفع به ووثق في نصر الله ، فلما قال له الصِّديق وهما في الغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميْه لرآنا ، قال ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما »[١] .

وحكى القرآن قوله ﷺ لصاحبه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] وما دُمْنا في معيَّة مَنْ لا تدركه الأبصار ، فلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق - تبارك - وتعالى - موسى عليه السلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

معنى ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ..﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] يعني : أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] الجيب : فتحة الثوب من أعلى ، وسمَّوْها جَيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حفْظ الأموال في داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده في قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وتلحظ هنا دقة الأداء القرآني ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال ﴿اسْلُكْ يَدَكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخلها تخرج هي بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت في الإدخال ، أما في الإخراج فهي لقدرة الله .

وكلمة ﴿بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أي : مُنوَّرة دون مرض ، والبياض لا بُدَّ أن يكون عجيباً في موسى - عليه السلام - لأنه كان أسمر اللون ؛ لذلك قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢)﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعي مُعْجز .

وقوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. (٣٢)﴾ [القصص] الجناحان في الطائر كاليدين في الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضْمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فترى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسيء التصرف تضرب صدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقي[1] ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صِدْق هذا الكلام .

ومعنى ﴿فَذَانِكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتي العصا واليد ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أي ربك الحق ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ.. (٣٢)﴾ [القصص] الرب الباطل ، ولا يمكن

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٧٠) قال : « قال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب » .

أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق ؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. (١٨) ﴾ [الأنبياء]

والبرهان : هو الحجة والدليل على صدق المبرهَن عليه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .. (٣٢) ﴾ [القصص] ، لأن فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ [القصص] أي : جميعاً فرعون والملأ ﴿ فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ [القصص] أي : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقت الرُّطَبة يعني : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الديني الذي يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سَوْءَته .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) ﴾

فما زال موسى ـ عليه السلام ـ خائفاً من مسألة قتْل القبطيِّ ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) ﴾

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وهو صغير في بيت فرعون أنه أصابته لُثْغة في لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه ؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .

وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أنْ يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي.. (٣٤)﴾ [القصص] يعني : معيناً لي حتى لا يُكذِّبني الناس ، فيكون رسولاً مثْلي بتكليف من الله .

لذلك ترى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

وجاء في قول فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حدة فهما رسولان .

وقد ورد أيضاً : ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .

لذلك لما دعا موسى - عليه السلام - على قوم فرعون لما غرَّتهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

المتكلّم منا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه[1] ، والمؤمِّن أحد الدَّاعِيَيْن .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥) ﴾

أجابه ربه : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] لأن موسى قال في موضع آخر : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي[2] (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ [طه] وقوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى ؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريبا بيديه ، والعضلة الفاعلة في الحمل والحركة هي العَضُد .

لذلك حين تمدح شخصا بالقوة تقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعل شيء ، فالمعنى : سنُقوِّيك بقوة مادية .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥)﴾ [القصص] هذه هي القوة المعنوية ، وهي قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

لذلك قال بعدها ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] أي :

---

(١) عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان موسى عليه السلام يدعو ويؤمِّن هارون عليه السلام ، لذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٨٥/٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ .

(٢) الأَزْر : القوة . وآزره : قوّاه . [القاموس القويم ١٨/١] .

تُنجيكم منهم ، لكن معركة الحق والباطل لا تنتهي بنجاة أهل الحق ، إنما لا بُدَّ من نُصْرتهم على أهل الباطل ، وفَرْق بين رجل يهاجمه عدوه فيغلق دونه الباب ، وتنتهي المسألة عند هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوه ويغالبه حتى ينتصر عليه ، فيكون قد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقوله تعالى ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة ﴿ بِآيَاتِنَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] بين العبارتين : ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] و ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] فهي إذن سبب فيهما : فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم ، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم ، فهي كلمة واحدة تخدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عجائب ألفاظ القرآن كلمة (النجم) في قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرحمن] فجاءت النجم بين الشمس والقمر ، وهما آيتان سماويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض ؛ لذلك صلحت النجم بمعنى نجم السماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذي لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذي ترعاه الماشية في الصحراء[1] .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِي النَّجْمَ في سَيْرِي إليكُمْ ... وَيرْعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِي

(١) قال أبو إسحاق : قد قيل إن النجم يُراد به النجوم ، قال : وجائز أن يكون النجم هنا ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء . ويُقال لكل ما طلع : قد نجم . [لسان العرب - مادة : نجم] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص] أى : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا ﴿ مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص]

لذلك يُعلِّم الحق - تبارك وتعالى - موسى عليه السلام مُحَاجَّةَ هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أناس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد ألفوا الباطل ، فإنْ أخرجتهم مما ألفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما ألفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفى أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذى عاشوا فى ظله ، فإنْ زدْتَ فى القسوة عليهم ولَّدْتَ عندهم لدداً وعناداً فى الخصومة .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : اعذروه فيما يلاقى حين تُسلَب منه الوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : ﴿ مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص] فقابلهم أنت باللين .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى ـ عليه السلام ـ فلم يرد عليهم بالقسوة التى سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبق ، وبهذا الإيحاء : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : إني جئت بالهدى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ أنتم الظالمون . لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص] الدار يعنى : الدنيا ، وعاقبتها تعنى : الآخرة .

وهذا الأدب النبوى فى الجدل والحوار رأيناه فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت]

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذى أحبوه وألفوه إلى الحق الذى يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك فى أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١١٧/٣) عند قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] وعزاه لابن عباس (أخرجه ابن مردويه والضياء فى المختارة) وأورده أيضاً (٤٨٦/٣) عن عبد الله بن مسعود : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر .

ورحم الله شوقي الذي صاغ هذه المسألة في عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب . فلكي يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذي يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو[1] مرضه .

وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطئ يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) أنقذني أولاً وأدركني ، ثم قُلْ ما شئتَ .

وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خفَّة البيان .

أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما في قصة نبي الله نوح عليه السلام ، والذي ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبي صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التي تقبل ما رفضه الآباء .

فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه في الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّي نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح في دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ في هدايتهم ، فقال :

---

(١) الأسا : المداواة والعلاج . والإساء . الدواء بعينه . [لسان العرب ـ مادة : اسا] .

﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

ومحمد ﷺ يقول في محاورته مع كفار مكة : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم في استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] فيُسمِّي إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً . ولو قال كما قال أخوه نوح لكان تواضعاً منه ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨)﴾

خشي فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما تقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨)﴾ [القصص] يعني : إياكم أنْ تصدِّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيري .

---

(١) ديَّار : أحد . يقال : ما بالدار ديَّار ، أي : ما بها أحد . [لسان العرب - مادة : دير] .

(٢) الصرح : القصر العالي . [القاموس القويم ١/٣٧٣] وقال ابن منظور في [لسان العرب - مادة : صرح] : « الصرح بيت واحد يُبْنَى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء ، وقيل : هو كل بناء عالٍ مرتفع » .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ..(٣٨) ﴾ [القصص] وفي موضع آخر قال : ﴿ يَـٰهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٧) ﴾ [غافر]

وكأنه يريد أن يُرضى قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذي يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل في هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفهم ولعب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبتني بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بَنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨) ﴾ [القصص] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ [القصص] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾

أي : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات ؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمته ذاتية فيه ، أمَّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه ، كما يقولون (اللى يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك في دواعي الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان ... إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول في الحديث القدسي :

« الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته جهنم »[1] .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوى) في ظل كبرياء الله الذي يحمي تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لَتكبَّر بشيء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه ؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبَّرت عليه ، ويجعله أعلى منك . وعندنا في الأرياف يقولون : (اللى يرمى أخاه بعيب لن يموت حتى يراه في نفسه) .

والمتكبِّر في الحقيقة ناقصُ الإيمان ؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش في ظلاله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٧٦ ، ٤١٤) ، وابن ماجة في سننه (٤١٧٤) ، وأبو داود في سننه (٤٠٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فهو استكبار بحق ؛ لذلك نقول حين يصف الحق - تبارك وتعالى - نفسه بأنه العظيم المتكبِّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا جميعاً من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾ [القصص] فاستكبارهم في الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلَّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ - كما نقول - لهم رَجْعة .

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ (١) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) ﴾

كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ .. (٤٠) ﴾ [القصص] أي : جميعاً في قبضة واحدة ، التابع والمتبوع ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [القصص] ألقينا بهم في البحر ، وهذا الأخذ الذي يشمل الجميع في قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوى العزيز .

كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

---

(١) أي : طرحناهم في البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يُقال له إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدي : المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريرة . وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعني نهر النيل وهذا ضعيف والمشهور الأول . [تفسير القرطبي ٧/٥١٧٥] والقلزم هي مدينة السويس حالياً ، وبحر القلزم هو البحر الأحمر .

ولم يُوصَف أخْذ الإنسان بالقوة إلا في قوله تعالى[١] يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٩٣) ﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [القصص]

أي : نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ، تنصر الحق وتهزم الباطل ، وقد ذكرنا كيف أنجى الله موسى - عليه السلام - وأهلك فرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .

فلما أنْ جازه موسى وقومه إلى الناحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ؛ ليعود الماء إلى سيولته واستطراقه فيُصحِّح الله له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله ، فالحق - تبارك - وتعالى - يتابع نبيه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه]

وحاشا لله أن يُكلِّفه بأمر ثم يتركه . ولما رأى فرعون الطريق اليابس أمامه عبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فصاروا آية وعبرة ، كما قال سبحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .. (٩٢) ﴾ [يونس]

وتأمَّلْ قدرة الله التي أنجَتْ موسى من الغرق ، وقد ألقتْه أمه بيديها في الماء ، وأغرقتْ فرعون .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) ﴾

(١) وكذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] . يقول صاحب ظلال القرآن (٤/٢٣٠٤) : « قد ورث يحيى أباه زكريا ، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة » .

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم به ، والمأموم أسيرُ إمامه ، فلو كنا فى الصلاة لا نركع حتى يركع ، ولا نرفع حتى يرفع ، فمتابعتنا له واجبة ، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبِّهه وأن يُذكِّره يقول له : سبحان الله ، تنبه لخطأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له فى الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين فى الخير ومنهج الحق ، كما قال تعالى فى حَقِّ نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وعندما أراد إبراهيم عليه السلام أنْ تظلَّ الإمامة فى ذريته من بعده ، فقال ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامة لا تكون إلا فى أهل الخير ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لذلك لما دعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود] صحح الله له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقد تكون الإمامة فى الشر ، كهذه التى نتحدث عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ .. (٤١) ﴾ [القصص] فهم أُسْوة سيئة وقدوة للشر ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦١/٤) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٣) من حديث جرير ابن عبد الله رضى الله عنه .

ويقول تعالى فى أصحاب القدوة السيئة : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

فكان فرعون وملؤه أسوة فى الشر ، وأسوة فى الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون فى الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص]

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : جعلنا من خلفهم ﴿ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص] فكل مَنْ ذكرهم فى الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاقٍ وخالد فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور]

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أى : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أى : فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمّل إذا تركته للصيدلية الربانية فى جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص] أي : الذين تشوهت وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس]

ويقول سبحانه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. ﴿١٠٦﴾﴾[آل عمران]

ويقول : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه]

ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتي إلا نتيجة ضربات شديدة وكدمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومن أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهي أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوالِه عِلَلٌ ... زُرْقُ العُيونِ عَلَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا في العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان ؛ لذلك نقول في لغتنا العامية : (العفاريت الزرق) ونقول في الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر[1] :

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ[2] مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوالِ[3]

---

(١) الشاعر : هو امرؤ القيس .

(٢) السيوف المشرفية منسوبة إلى قرىً من أرض اليمن ، وقيل : من أرض العرب تدنو من الريف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

(٣) قال الجاحظ في كتابه (الحيوان) (١٥٨/٦) تحقيق عبد السلام هارون : « الأغوال : اسم لكل شيء الجن يعرض للمسافرين ويتلوّن في ضروب من الصور والثياب ذكرا كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى » . والبيت في ديوان امرىء القيس ٣٣ ، والكامل للمبرد (٧٩/٢) ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي ـ ص ١٦٢ .

أما السواد فيُقصد به الوجه المشوَه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيراً ما ترى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهَبُ الحُسْن والبشاشة ويُشعهما في جميع الصور . وقد ترى للونَ الأسود في بعض الوجوه أَسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. ﴿٤٣﴾﴾ [القصص] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى - عليه السلام - جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا[1] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت]

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقي من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى ـ عليه السلام ـ برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل في مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد ﷺ ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة في الزمان وفي المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو ﷺ مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى في مسألة القتال في عهد موسى عليه السلام : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ .. ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة] إنما في عهده وعصره ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ .. ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة]

---

(١) عدَّد الله هنا أربعة أنواع من العذاب :

- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] هم : قوم عاد . أرسل الله عليهم ريحاً عاتية حملت عليهم حصباء الأرض ، فألقتْها عليهم واقتلعتهم من الأرض .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] هم : قوم ثمود . جاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] هو : قارون ، خسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] هو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم [تفسير ابن كثير ٣/٤١٢] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال « ما عذَّب الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى»[١]

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هى (أيلة) التى بين مدين والأردن .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل فى قصة موسى عليه السلام .

ورُوِى عن أبى أمامة أنه قال : وإنى لتحت رَحْل رسول الله - يعنى : ممسكاً برحْل ناقة الرسول - يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فَلَهُ أجران - أى : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بى - له ما لنا وعليه ما علينا »[٢] .

وهذا يعنى أن القتال لم يكُنْ قد كُتِب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] أى : التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] أى : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] أى : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٨-٤) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التى مسخت قردة » وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/٨٨) « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٥٦) ، وسعيد بن منصور فى سننه (٩١٣) من حديث أبى موسى الأشعرى . ولفظه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدركه النبى ﷺ فآمن به ، ثم اتبعه فله أجران » .

المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ [القصص]

والتذكر يعني : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهي ليست جديدة عليك ، هذه القضية هي الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم]

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : في الفطرة السليمة المركوزة في كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .. (٤٤) ﴾ [القصص] أي : الجانب الغربي من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذي كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] يعني : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها في كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعلَم عنه أنه جلس في يوم من الأيام إلى مُعلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته في حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شيء من هذه الأحداث .

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] ردَّ القرآن عليهم في بساطة : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين[2] تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التي بُعِث فيها رسول الله أمة أمية ، فممَّن تعلُم إذن ؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيي الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أميٌّ ونقول : إن كانت الأمية مذمَّة ، فهي ميزة في حق رسول الله ﷺ ؛ لأن الأمي يعني المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (٧٨) ﴾ [النحل] ونقول في المثل (فلان زي ما ولدتْه أمه) يعني : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة في عامة البشر ؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفدْ من خبرات الحياة .

---

(١) ألحد إلى الشيء : أشار إليه . ومعناه : أي : لسان الذي يشيرون إليه أعجمي لأنهم كانوا يقولون : إن الرسول يعلمه رجل أعجمي . [القاموس القويم ٢/١٨٩] .

(٢) قال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون : يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية . أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٥٨٧)

أما الأمية عند رسول الله فشرف : لأن قصارى المتعلم فى أىّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرف من العلم من أمثاله من البشر ، فيكون مديناً له بهذا العلم ، أمَّا رسول الله فقد تعلم من العليم الأعلى ، فلم يتأثر فى علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منّة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمة الأمية المتبدية التى لا يجمعها قانون ، إنما لكل قبيلة فيها قانونها الخاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا فى نصف قرن من الزمان .

ولو أن العرب أمة حضارة لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية . كما قالوا بعد انتصارنا فى أكتوبر ، وبعد أنْ رأى رجالنا أشياء غير عادية تقاتل معهم ، حتى أنهم لم يشكُّوا فى أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ المعركة بصيحة الله أكبر ، لكن ثالث أيام المعركة طلع علينا فى جرائدنا من يقول : إنه نصر حضارى ، وفى نفس اليوم فُتحت الثغرة فى (الدفرسوار) .

وعجيب أمر هؤلاء من أبناء جلدتنا : لماذا تردُّون فضل الله وتنكرون تأييده لكم ؟ وماذا يضايقكم فى نصر جاء بمدد من عند الله ؟ ألم تقرأوا : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ۝ ﴾ [المدثر] وبعد أن فُتحت الثغرة ماذا قدمتم لسدِّها ، تعالوا بفكركم الحضارى وأخرجونا من هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعتراف بجنود الله بين صفوفهم ، أليس المهندس الذى اهتدى إلى فكرة استخدام ضغط الماء فى فتح الطريق فى (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله ؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذى نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التى لم تأت اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم فى حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادى بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر : ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص] يعنى : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] يعنى : حضره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغْل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا .. (٤٥) ﴾ [القصص] أى : مقيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥) ﴾ [القصص] أى : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحِّح له

﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص] أى : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص] أى : موسى عليه السلام ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص] أى : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتك بالفضل من الله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القصص] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) فى مواضع عدة فى القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها فى كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم ؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صدْق هذه الأخبار ؛ لأنها ذُكرت فى كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى]

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه ﷺ حُجُب الغيب ، والشيء يغيب عنك إما لأنه ماضٍ ، ولا وسيلةَ لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضى ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة فى

كتاب أو التعلم من مُعلِّم ، وقد نفى الله تعالى هذا بالنسبة لرسوله ﷺ ، وإما أن يكون الحجابُ حجابَ الزمن المستقبل والأحداث التي لم تأتِ بعْد ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذي يعلمها أزَلاً .

لذلك يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى] فكان النجم من القرآن ينزل على رسول الله فلما يُسرى عنه يُمليه على أصحابه ، كل آية في مكانها وترتيبها من السورة[1] ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تستطيع أن تتحدَّى أيَّ شخص بأن يتكلم مثلاً لمدة ثُلث الساعة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أما المسألة مع سيدنا رسول الله فتختلف ؛ لأنها من الله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

وقلنا : إن سيدنا رسول الله ﷺ في أول نزول القرآن عليه كان يُردد الآية خلف جبريل عليه السلام مخافة أن ينساها ، فإنْ قال جبريل : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) ﴾ [الضحى] قال رسول الله ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) ﴾ [الضحى] وهكذا ، فأنزل الله عليه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة]

وقال سبحانه : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤) ﴾ [طه]

أي : أرح نفسك يا محمد ، ولا تَخْشَ النسيان ، وانتظر حتى تنتهي الآيات ، وسوف تعيدها كما هي ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

---

(١) قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . أورده السيوطي في (الإتقان في علوم القرآن ١/١٧٢)

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ⑧﴾ [النحل] ولو انتهت الآية إلى هذا الحدّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ .. إلخ .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكمل الآية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل] ليجعل في القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ㉖﴾ [يس] فكلُّ شيء في الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التي لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الم ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ④﴾ [الروم]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين ؟ ويعد ذلك يُصدّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ⑤﴾ [الروم]

ولما تشوّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ㉗﴾ [الفتح]

فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد ٢٢ كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة في العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية في ديننا ، فقال الصِّديق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعني قف عند حدِّك ـ إنه رسول الله[1] .

ولما أصر علي بن أبي طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : « يا علي ستُسام مثلها فتقبل »[2] ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبِض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولَّى عليٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر عليٌ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى عليٌ : هذا ما تعاهد عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع عليٌّ قول رسول الله : « ستُسام مثلها فتقبل » .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥ ، ٣٣٠) ضمن حديث طويل في صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم .

(٢) وقد استشهد علي بن أبي طالب بهذا في محاجته للخوارج الذين خرجوا عليه وعتبوا عليه أنه كاتب معاوية فكتب علي بن أبي طالب مجردا من كونه أمير المؤمنين فقال : « قد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال : كيف تكتب ؟ قال : اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب فكتب ، فقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال : لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً » . (البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٩١) .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضي ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا في مثل قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة] فأطلعه الله على ما في نفوس القوم .

وفي غزوة مؤتة ، وهي الغزوة الوحيدة التي لم يحضرها رسول الله ﷺ ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة ـ لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التي حضرها رسول الله ، أما في مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو في المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه في المدينة بما يجري في مؤتة وكأنها رَأْيُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان ﷺ يقول : قُتل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتل وحملها فلان .. إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله ﷺ[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

﴿الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [القصص] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشَر الأحكام في الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذي يدلهم على الخير والثواب عليه في الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه في النار ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطرى يهتدى إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر - رضى الله عنه - .

يقولون : تذكرون عمر فى كل شىء : فى العدل تقولون عمر ، وفى القوة تقولون عمر ، وفى وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدى إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿ لَوْلا .. (٤٧) ﴾ [القصص] تأتي بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهي حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد . ومن هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ .. (٤٧) ﴾ [القصص] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية في الآية ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا(١) وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٤٨) ﴾ [القصص] أي : الرسول الذي طلبوه ﴿ قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .. (٤٨) ﴾ [القصص] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٨١) : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركي العرب . وبه قال ابن عباس والحسن.

الثاني : موسى وهارون . وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .

الثالث : عيسى ومحمد ﷺ . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .

الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (٤٧) ﴾ [القصص] والآن تطلبون آيات حِسِّية كالتى أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد ﷺ كانت آيات حِسِّية كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهى بانتهاء وقتها ، فهى مناسبة للرسل المحدودى الزمن ، والمحدودى المكان .

أما الرسول الذى أُرسِلَ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان ، فلا تناسبه الآية الحسِّية الوقتية ؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ؛ لذلك جاء الحق - تبارك وتعالى - على يد محمد ﷺ بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد ﷺ كان الرسول يأتى بمعجزة تثبت صدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة . أما محمد ﷺ فجاءت معجزته هى عَيْن الكتاب والمنهج الذى أُرسل به ليظل الدليل على صدْقه باقياً مع المنهج الذى يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدَّقنا بهذه المعجزات كلها ؛ لأن الله أخبرنا بها في القرآن الكريم ، فللقرآن الذي جاء معجزة ومنهجاً الفضل في إبقاء هذه المعجزات ؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليهم : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ .. (٤٨)﴾ [القصص] ثم يحكي ما قالوا عن معجزة موسى ، وعن معجزة محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أي : أن موسى جاء بسحر ، ومحمد جاء بسحر آخر ، وقد ﴿تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] علينا يعني : تعاونا ، وهي مأخوذة من الظهر كأنك قُلْت : أعطني ظهرك مع ظهري لنحمل الحِمْل معاً ، والظهْر محلُّ الحمل .

والرد على هذا الاتهام يسير ، فمعجزة موسى وإنْ كانت من جنس السحر إلا أنها ليست سِحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حية حقيقية تسعى وتبتلع سحرهم ، لذلك أُلقى السحرة ساجدين ؛ لأنهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قالوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر فالردُّ عليهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص]

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾

معنى ﴿قُلْ .. (٤٩)﴾ [القصص] أي : في الردِّ عليهم ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ

مَنْ عند اللَّه هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص] أى : أهدى من التوراة التى جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذى جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] يعنى : لو جئتم به لاتبعته .

وهذا يعنى منهجين : منهج حقٌ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدى من سيدنا رسول الله للكفار يعنى أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتى من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أهْدى من كتابه يطمعهم فى طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التى لم ينطق بها رسول الله . وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله ؟

إذن : يقول لهم : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً ﷺ خاتَم الرسل ، فلن يأتى رُسُل بعده ، بحيث يأتى الرسول فتستدركوا عليه فيأتى آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم ؛ لأن كل مُقنِّن سيأتى بالمنهج الذى يخدم مذهبه ، ويُرضى هواه .

لذلك نقول : ينبغى فى المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُستدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر فى أحد من البشر . بدليل أن القوانين التى وُضعت فى الماضى لم تَعُدْ صالحة الآن ينادى الناس كثيراً بتعديلها ، حيث طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فطالبوا بتعديلها .

ثانياً : يشترط فى المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ،

ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته فى الحياة ؛ لذلك يجب ألاَّ يُسند التشريع للناس لأحد منهم ؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشترَط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشيء مما يشرع .

وإذا اقتضتْ مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنِّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أيَّ منهج يسيرون عليه ؟

فإنْ حدثتْ فجوة فى التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذى قنَّنَ لأول مُقنِّن ؟ الذى قنَّن لأول مُقنِّن هو الذى خلق أول مَنْ خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهذا يعنى أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يأتهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب ؟ يجيب الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : الكلام عندهم ليس فى الكتاب ، إنما فيمن أُنزل عليه

الكتاب ، وهذا معنى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ .. (٥٠) ﴾ [القصص]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥٠) ﴾ [القصص] يعنى لا أضل ﴿ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [القصص] أى : اتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به »[١] .

فنحن فى هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع ؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم فى الطاعة والعبادة : اللهم إنّى أخشى ألاَّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأنك أمرتنا أنْ نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندى .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه ؛ لأن الأهواء متضاربة فى الخَلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات فى الأحداث موجودة فى الكون .

وقد عبَّر المتنبى[٢] عن هذا التضارب ، فقال :

أرَى كُلَّنَا يَبْغِى الحياةَ لنفسه ... حَرِيصاً عليها مُسْتَهاماً بها صَبَّا

فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التقى ... وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوردَهُ الحَرْبَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه للحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقى بنفسه فى معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ، هى حياة الشهيد .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » . (ص ٤٦٠) وضعَّفه

(٢) أبو الطيب المتنبى هو : أحمد بن الحسين الكندى ، الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى . له الأمثال السائرة والحكم البالغة . ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى « كندة » ، ونشأ بالشام ، تنبأ فى بادية السماوة ، وقُتل عام ٣٥٤ هـ على يد جماعة خرجوا عليه بالطريق . [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

وآخر يقول :

كُلُّ مَنْ فى الوُجودِ يطلبُ صيْداً   غـير أنَّ الشِّـباكَ مُختلفَـات

فالرجل الذى يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفيه قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨ ﴾ [الحشر]

نقول : هذا آثر الفقير على نفسه ، لكنه من ناحية أخرى يبغى الأجر ويطمع فى عَشَرة أمثال ما أنفق ، بل يطمع فى الجنة ، إذن : المسألة فيها نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنها أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانية حمقاء ، الدين يرتقى بصاحبه ، ويجعله إيجابياً نافعاً للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .

فالشرع حين يقول لك : لا تسرق . وحين يأمرك بغضِّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرتَ إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهى فلا تَنْسَ ما أعطاك .

لذلك حين نتأمل النبى ﷺ وهو يعالج داءات النفوس حينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكى إليه ضَعْفه أمام النساء ، وقلة صبره على هذه الشهوة ، حتى قال له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا . ومع ذلك لم ينهره رسول الله ﷺ ، بل علم أنه أمام مريض يحتاج إلى مَنْ يعالجه ، ويستل من نفسه هذه الثورة الجامحة ، خاصة وقد صارح رسول الله بما يعانى فكان صادقاً مع نفسه لم يدلس عليها .

لذلك أدناه رسول الله ، وقال له : يا أخا العرب ، أتحب ذلك

لأمك ؟ أتحب ذلك لزوجتك ؟ أتحب ذلـك لأختك ؟ أتحب ذلك لابنتك ؟ والشاب في كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

عندها قـال ﷺ : « كـذلك الناس يا أخـا العـرب لا يحـبـون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم »[1] .

فانصـرف الشاب وهو يقول : والله مـا شيء أبغض إلىَّ من الزنا بعـدما سـمعتُ من رسـول الله ، وكلمـا همَمْتُ بي شهـوة ذكرتُ قـول رسول الله في أمي ، وزوجتي ، وأختي ، وابنتي .

فالذي يُجرِّئ الناس على المـعصية والولوع بها عدم اسـتحضار العـقوبة وعـدم النظر في العواقب ، وكـذلك يزهدون في الطاعة لـعدم استحضـار الثواب عليها .

وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسي ، فهـو شرهٌ منـطلق يريد أنْ يقضي شـهوته في الحـرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفـر لك كل ما تريد على أنْ تُلقى بنفسك في هذا (الفرن) بعد أن تُنهي ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص] وفي مواضع أخرى : ﴿ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة] ، ﴿ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهـداية لأحد إلا بسـبق شيء منه ، والمراد بالهـداية هنا ـ أي : هداية الإيمـان والتـقـوى ـ وإلاَّ فـقـد هدى الله الجـمـيع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

(١) عن أبي أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فـقال : يا رسول الله ائذن لـي في الزنا ، فهمَّ من كان قرب النبي ﷺ أن يتناولوه فقـال النبي ﷺ : دعوه . ثم قال له النبي ﷺ : أتحب أن يفعل هذا بأختك ؟ قال : لا ، قال : فابنتك ؟ قال : لا . فلم يزل يقول تبكذا تبكذا ، كل ذلك يقول : لا ، فقـال النبي ﷺ : فاكره ما كره الله وأحب لأخـيك ما تحب لنفسك . أورده المتقي الهندي في منتخب الكنز (٢/٢٩٧) وعزاه لابن جرير الطبري .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

كلمة ﴿ وَصَّلْنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصِّلها ، فقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] أى : وصَّلنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصلين بهدى الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله ﷺ ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التى أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : ﴿ كَذَلِكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه كذلك مُنجَّماً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التى سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن ليُسلِّيه ، ويُسرِّى عنه ما يلاقى من خصومه .

وحكمة أخرى فى قوله : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فكلما نزل قسط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجدّ عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة ؟

لا بُدَّ أنْ يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان]

وقد ورد الفعل يسألونك في القرآن عدة مرات في سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملة واحدة ، ثم سبحان الله هل أطقتموه مُنجَّماً حتى تطلبوه جملة واحدة ؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾ [القصص] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه محمد ﷺ : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصدْقك ؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء في كتابك ذُكِر في كتبهم وذكرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب في معرفة الحق الذي جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .. (١٩٩) ﴾ [آل عمران]

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

إذن : أهل الكتاب الصادقون مع أنفسهم ومع كتبهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، أما الذين لم يؤمنوا فحجبتهم السلطة الزمنية والحرص على السيادة التي كانت لهم قبل الإسلام ، سيادة في العلم ، وفي الحرب ، وفي الثروة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أُبَيّ ، وكان أهل المدينة يستعدون لتنصيبه مَلِكاً عليهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليها أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعني أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته

---

(١) سبب نزول الآية : قال قتادة : أنها نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . [تفسير القرطبي ٧/٥١٨٢]
وقال القرطبي : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردي .

إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

﴿ أُولَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذى يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتى بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين جاء عيسى بأنه جاء بعد موسى - عليه السلام - فلا يستبعد عقلاً أنْ يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث فى الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التى لا تتغير موجودة فى كتابه ، وهو أُميٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صدْقه .

فقوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أى : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد ﷺ .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين :

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أمَة - جارية - فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها »(١) .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن في الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء في الإيمان الثاني ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هي حيثية ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص]

وكما أن الله تعالى يُؤتى أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتي بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم - كما بيَّن سيدنا رسول الله : « عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أمَةٌ ... » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذي باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وأهم هذه المنافع ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشاعر :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٩٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٤) كتاب الإيمان من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بنحوه .

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أوْ حَدُّ مُرْهَفٍ ... يُقيم ظباه[1] أخْدعَىْ[2] كلِّ مائلِ

فَهَـذا دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ عَاقِلٍ ... وذَاك دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ جاهلِ

ولى أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿ أُوْلَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص] وقد كنا فى بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسى المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَّق بذهنه بعض الآيات ، فجاءنى مرة يقول : سمعت المقرىء يقرأ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فألسْنا من العالمين ؟ قلت له : نعم أُرسل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرِم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ فى القرآن نظرة إمعان وتبصُّر تجد أنه رحم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] ولم يقل بين المؤمنين ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾ [النساء] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية[3] وهى قصة الدرع الذى أودعه اليهودى زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ،

---

(١) الظبة : حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما إلى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : ظبا] .

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . وقال اللحيانى : هما عرقان فى الرقبة. [لسان العرب ـ مادة : خدع] .

(٣) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٢) ـ طبعة المكتبة الثقافية بيروت .

وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه في كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودي فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودي ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودي ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق[1] .

وجلس رسول الله يفكر في هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحي ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى في حقِّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أي : كثير الخيانة وبرَّأتْ اليهودي ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السيء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودي .

---

(١) قال ابن حجر العسقلاني في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » (٢/ ٢٨٥) (ترجمة ٤٢٢٨) : « ذكره أبو إسحق المستملي في الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً .. وقد تُكلِّم في إيمان طعمة » .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام فى نظر الجميع : المسلم واليهودى وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام فى نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذى يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذى شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره . فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٥٤)﴾ [القصص] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤)﴾ [القصص] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهى الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .. (٥٥)﴾ [القصص] واللغو : هو الكلام الذى لا فائدةَ منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغى على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغَى .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] أي : لا يلتفتون إليه .

وسبب نزول هذه الآية[1] : لما استقبل رسول الله ﷺ رُسُل النجاشي وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا بها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله من ركْب - وهم الجماعة يأتون في مهمة - أرسلكم من خلفى - يعنى : النجاشى - لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا ركْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .

هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (٥٥) ﴾ [القصص]

وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص] لنا أعمالنا الخيِّرة التى يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التى ينبغى أنْ تُترك ، فكلٌّ منَّا له شأن يشغله .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٥) ﴾ [القصص]والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك فى جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيْتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعنى : إننى ليس لدىَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة

---

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٩٣) وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨٣) وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

والسلام – وبين عمِّه ، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌ بدعوته لعمه أبي طالب الذي ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمي رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة في الإسلام ، ولله تعالى حكمة في أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر ؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله للجميل لا يكون بعَرَض من الدنيا ، إنما بشيء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : « يا عم ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة »

---

(١) سبب نزول الآية : قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب . ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٩٤) .

وقاله ابن عباس (أخرجه ابن مردويه) ، وابن عمر (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود في القدر) ، وقتادة (أخرجه عبد بن حميد) أورد كل هذه الأقوال السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٢٩) .

فقال : يا ابن أخى ، لولا أن قريشاً تُعيِّرنى بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها[1] .

لكن يُرْوى أنه بعدما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التى طلبتَ من عمك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا ؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلّمنا فى معنى الهداية ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص] وقلنا : إنها تأتى بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أى : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هدايةً أخرى ، هى هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت] ؛ لذلك حُرِموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص] هى هداية المعونة والتوفيق للإيمان ؛ لأنه ﷺ هدى الجميع هداية الدلالة والإرشاد ، وكان مما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥) كتاب الإيمان ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٤٤) ، والواحدى فى « أسباب النزول » ص ١٩٤ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله ﷺ ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وهذه المقولة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطَّف من أرضنا ، ولابُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقِرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يُتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا ، وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس في

---

(١) سبب نزول الآية : قال الواحدي في أسباب النزول (ص ١٩٤) : « نزلت في الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبي ﷺ : إنَّا لنعلم أن الذي تقول حقّ ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .. قاله ابن عباس فيما أورده عنه القرطبي في تفسيره (٥١٨٦/٧)

أموالهم أو فى أنفسهم - على فرض أن هذا صحيح - قصارى ما يصيبهم خسارة عَرَضٍ فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذى سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

أما إنْ ظلُّوا على كفرهم ، فمتاع قليل فى الدنيا الفانية ، ولا نصيبَ لهم فى الآخرة الباقية . إذن : فأىُّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طريق الهدى واتباع الحق الذى جاء به رسول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قال إنكم إن اتبعتم الهدى مع رسول الله تُتخطَّفوا وتُضطهدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا محمد : كذبتم ، فلن يتخطفكم أحد بسبب إسلامكم : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مشركون به ، تعبدون الأصنام فى جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة فى رحاب بيته الحرام ، ووفَّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذى زرع حيث يُجْبَى إليه الثمرات من كل مكان ، فالذى صنع معكم هذا الصنيع أيترككم ويتخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] استفهام للتقرير ، فاسألهم وسوف يعترفون هم أن الله مكَّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمرات كل شيء ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت هذه القضية بإقرارهم بها .

ومعنى ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] نجعلهم مكينين فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] والتمكين

يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص] مع أن الأمن لمن في المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه في الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر في هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً في رمي الجمرات في حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبِّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم - عليه السلام - نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعِدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

هذا يعني أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفي الزرع يعني عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا[1] .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ في طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء في سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها في كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيِّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس من حديث طويل ، وفيه أن إبراهيم جاء بهاجر وابنها إسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا » .

يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكى من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله فى هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال :﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأنه - عليه السلام - يريد أن يطمئن على إقامة أهله فى هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذى نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى فى أوقات الفروض ، أما بيت الله الذى اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة فى أىِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

وقد رأيت الحرم فى إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أىِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

من الفعل هَوَى يهوى ، يعنى : سقط ؛ لأن الذى يسقط لا إرادةَ له فى عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتى بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما

تكاسل الناس في أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلي أو لا يُزَكّي . إلا الحج حيث قال الله فيه :﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧) ﴾ [الحج] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك تجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفّر تكاليف الحج . فهو - إذن - الفريضة الوحيدة التي يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم - عليه السلام - دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة في قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعني : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأيِّ بلد آمن لا تُقام إلا في مكان يُؤْمَنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأيّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالي إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وقالوا : أينَ هذا الأمن ، وقد حدث في الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث في أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفي العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل في الحرم .

وهذه الآية : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم ، وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفَرْق بين القضيتين : الكونية لابُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعي لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التي كثيراً ما يُسأل عنها في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦) ﴾ [النور] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتي كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلَّف مدلولها .

فالمعنى في الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردَّ عليه ، لابُدَّ من وجود التكافؤ حتى في (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية في صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعني الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضي ، وأنت لا تدري رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضي ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن في قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا في أذنه (ابْرُكْ محمود وارجع راشداً)[1] يعني : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبركَ الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، هذا كله من الأمن الذي جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم في رحلة الشتاء والصيف ، وأيّ أمن ، وأيُّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/٥٢) ، والذي قال للفيل : ابرك ، هو نفيل بن حبيب الخثعمي . وفيه « أنهم ضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن (المحجن : عصا مُعقَّفة الرأس) لهم في مراقه ليبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك » .

كلمة ﴿ وَكَمْ (٥٨) ﴾ [القصص] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعني : أنا لن أعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت .لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون في صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هي كثيرة . فكم هنا تعني الكثرة ، وينطق بها المخاطب لتكون حجة عليه .

ومعنى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ (٥٨) ﴾ [القصص] من للعموم أي : من بداية ما يُقال له قرية ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا (٥٨) ﴾ [القصص] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أي : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّب في نِعَمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة في معصية المنعم عز وجل .

ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلّ من مستواه ، كالولد الذي تأتي له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول في العامية : أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا ؟ كلمة في لغتنا العامية لكن لها أصل في الفصحى .

إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضى بها ، وتطلب أعلى منها .

ومعنى ﴿ مَعِيشَتَهَا (٥٨) ﴾ [القصص] أي : أسباب معيشتها ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها ﴿ إِلَّا قَلِيلًا (٥٨) ﴾ [القصص] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ

يرثهم ، وإذا تُرك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .

وفى آية أخرى يعالج الحق سبحانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾[النحل] يعنى : بطرت بنعمه تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتضى مستوراً ، فكان الأصل أن الله تعالى موجود ، لكن الكافر يستر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفر نفسه دليلاً على الإيمان ، فالإيمان هو الأصل والكفر طارىء عليه .

ومثال ذلك قولنا : إن الباطل جُنْدى من جنود الحق ، فحين يستشرى الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .

وكذلك نقول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفاء ؛ لذلك نجد أن أخطر الأمراض هو المرض الذى يتلصص على المريض دون أنْ يُشعره بأىِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد استفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه - والعياذ بالله - المرض الخبيث .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كفروا بها أى : ستروها ، إما بعدم البحث فى أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا بها على العاجز الذى لا يستطيع الكسب ؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .

وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائيا بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم

نعمه ويقطع هذه الرتابة ، فإنما ليفهموا أن الرتابة في التكليفات تُضعف الحكمة من التكليف ، كيف ؟

نقول : الحق - تبارك وتعالى - حرَّم علينا أشياء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فأصبحت عادة رتيبة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليفَ العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً في صوم رمضان .

ويُحرِّم عليك ما كان حلالاً لك طوال العام ، وقد اعتدْتَ عليه ، فيأتي رمضان وتكليف الصيام ليُحرِّم عليك الطعام الذي كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حرارة العبادة موجودةً تُشوِّق العبيد إليها ، وتُعوِّده الانضباط في أداء التكاليف .

ثم يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل] والجوع له مظهران : أنْ تطلبه البطن في أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع . والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذي يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .

وهذه سُنَّة الله في القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾

إذن : لابُدَّ أن نُعْلِم بالمنهج ، ويأتي رسول يقول : افعل كذا ،

ولا تفعل كذا ، حتى إذا حَلَّ العذاب بالكافرين يكون بالعدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نتركَ الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام.

وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام ، وما كان الله ليهلك قرية ظلماً ، إنما عقوبةٌ لهم على ما فعلوا .

والقرية لها تسلسل فنقول : (نَجْع) وهو المكان الذي تسكنه اسرة واحدة ، و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة ، وقد نزل القرآن في أمة مُتبدية ، تعيش على الترحال ، وتقيم في الخيام تتنقل بها بين منابت الكلأ ، فقالوا (أم القرى) للمكان الذى تجد به القرى ، وتتوفر فيه من مقومات الحياة مَا لا يوجد في النجوع والكفور والقرى الصغيرة ، كما يعيش الآن أهل الريف على قضاء حوائجهم من (البندر) ، كأنَّ أمَّ القرى لها حنان ، يشمل صغار البلاد حولها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

معنى : ﴿ مِّن شَيْءٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] من أيِّ شيء من مُقومات الحياة ، ومن كمالياتها ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء]

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غاية ، لأن

بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم في الدنيا أنه إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك في الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا - عَزَّ وجلَّ - على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص]

﴿ خَيْرٌ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر قدرة الله وعطائه وكرمه ، ﴿ وَأَبْقَىٰ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] لأنه دائم لا ينقطع . فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابي الذي حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل في سبيل الله ، وكان في يده تمرات يأكلها فألقاها[1] ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة ؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة . لماذا ؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يُجري هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٨٩٩) في كتاب الإمارة . قال ابن حجر في فتح الباري . « لم أقف على اسم الرجل . وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام ، وسبقه إلى ذلك الخطيب . لكن وقع التصريح في حديث أنس (عند مسلم) أن ذلك كان يوم بدر .. فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين والله أعلم » .

[التوبة] إما أن تنتصر عليكم وتُذلكم ، ونأخذ خيراتكم ، وإما ننال الشهادة فنذهب إلى خير مما تركنا ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربَّص بكم إلا شراً .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) ﴾ [الأعلى] لذلك ذيَّل الآية هنا بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] لأن العقل لو قارن بين الدنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

تُعد هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده ، فإنْ كان الوعد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعالى في العطاء ، ثم إنَّ وعده تعالى لا يتخلف ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

---

(١) سبب نزول الآية : عن مجاهد قال : نزلت في علي وحمزة وأبي جهل . وقال السدي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة . وقيل : نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل . [أورده الواحدي في أسباب النزول ص ١٩٤] قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٩٠) : « قال القشيري : الصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم . وقال الثعلبي : وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر مُتّع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة » .

لذلك قال ﴿ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ .. (٦١) ﴾ [القصص] أى : حتماً ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٦١) ﴾ [القصص] وهو لا محالة زائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] أى : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] لا تستعمل فى القرآن إلا للعذاب ، وربما الذى وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتى أبداً بخير .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾ [الصافات]

ثم يقول سبحانه مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) ﴾

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿ وَيَوْمَ .. (٦٢) ﴾ [القصص] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله ﷺ ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذى هو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أى الثابتة التى لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أى : التى تصخ الآذان التى انصرفتْ عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمُّ ، ويوم الدين ، أى : الذى ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله ﷺ عُودى وأُوذى وهزئ به وسُخر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكال من خصومه فبيّتوا له بمكر ، وصنعوا له سحراً .. إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح ؛ لأنها تصيبهم في مصالحهم وفى شهواتهم وفى جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعى أن يقفوا فى وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذى سيُذهب باطلهم ، ويقضى على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما فى هذا اليوم من القسوة والخزى والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذى يُوقفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ .. (٦٢) ﴾ [القصص] وقد ناداهم فى الدنيا : يا أيها الناس ، يا بنى آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر] فكأن الحق يُذكّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثاني : أن الآية جاءت تسلية لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأنني سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سرَّ هذا الإيعاز النفسي في نفس المضطهد وفي نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد يبتهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التي تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّي عن نفسه ما يلاقي .

ومضمون النداء ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص] فلم يقُلْ شركائي ويسكت ، إنما وصفهم ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء في زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص]

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذقْهم يا رب العذاب ضِعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركون حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغووهم ، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ .. (٦٣)﴾ [القصص] أي : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات]

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾ [النمل]

لكن ، ما هو القول الذى وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم ؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندى فى الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان فى النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .

وماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن تعترفون بعد أنْ سُلِب منكم الاختيار ، ولم تَعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التى كنت تبطش بها ، ورجْلك التى كنت تسعى بها ولسانك .. كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك ؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ومعنى ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : المشركين ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : لنكون سواء ، هذه علَّة غوايتهم ، أن يكونوا فى الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .

وهذه المسألة تعطينا السيال النفسي لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون في الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون ؟ واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .. (٨٩) ﴾ [النساء]

ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم في الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين]

وليت الأمر ينتهي عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] يعني : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعدهم هذه المسألة وتُرضى شيئاً في نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكنّ المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولّى ربه - عز وجل - الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة في يوم بَاقٍ لا ينتهي فيه عذابهم :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وكان الحق - تبارك وتعالى - يسترضي عباده المؤمنين : أيعجبكم

ما آلوا إليه ؟ أقدرنا أن تجازيهم على ما اقترفوه في حقكم ؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان في دار الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم في دار الحق الباقية ، وهي سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣) ﴾ [القصص] يعني : حتى نكون سواء ، لا يكون أحدنا أحسن من الآخر ، ومن هذا المنطلق أغوى إبليسُ آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرد من رحمة الله ، ومن الصفائية التي كان ينعَم بها مع الملائكة ، أراد أنْ يأخذ آدم بل وذريته إلى هذا المصير ، فقد حَزَّ في نفسه أن يلاقي هذا المصير وحده ، في حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجد إبليس - لعنه الله - لا يكتفي بأن تُغوي ذريته ذرية آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البعث ليباشر بنفسه هذه الغواية ، فهو (المعلم) الكبير ، وكأنه يحذر أن إمكانات ذريته في الغواية قد لا ترضيه ؛ لذلك يتولى بنفسه هذه المهمة فيقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

والبعض يفهم قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي[1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾ [الأعراف] أن الله تعالى أجاب إبليس إلى ما طلب ، لكن ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾ [الأعراف] ليست إجابة ، إنما تقرير لشيء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى ؛ لأنك من المنظرين فعلاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذي أغوى آدم وأخرجه من الجنة باقياً أمام ذريته ليُذكِّرهم دائماً : هذا الذي أغوى أباكم آدم .

---

(١) أنظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . وقوله : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف] أي : أمهلني وأخِّر حسابي وعقابي إلى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

وقولهم : ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] لنا وقفة مع ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] وهى اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهى عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك فى هذا ، هذه ، هذان ، هاتان . فالهاء فيها للتنبيه لتنبه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته من كلامك شيء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبتَ ربك - عز وجل - فمن سوء الأدب أنْ تستخدم فى خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا ﴿رَبَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] فليس من الأدب أن يقولوا ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] أيُنبِّهون الله عز وجل ؟

لذلك نلحظ هذا الأدب في خطاب نبي الله موسى - عليه السلام - فيما حكاه عنه القرآن : ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ [طه] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عزَّ وجلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا .. (٣٨)﴾ [الأعراف] ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا .. (٨٦)﴾ [النحل] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

ثم يقولون : ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] الآن ينكصون كما قالوا من قبل ﴿رَبَّنَا.. (٦٣)﴾ [القصص] يقولون الآن ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ .. (٦٣)﴾ [القصص] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب

وسَلْب الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

وقولهم : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر تحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم فى انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم ؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها ؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم ؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا ما يريده المشركون ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمر أو نهى يحول بين النفس البشرية وما تشتهى ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشىء ، فيسير فى حياته على هواه ، وهذه هى التى روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هى الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَنْ أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حدِّ قَوْل الشاعر :

* إبليسُ لما عَصى مَنْ كان وسْوَسَةُ ؟ *

إذن : فهي كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع ؛ لذلك جاء في الحديث الشريف : « إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين »[1] .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس ؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنّا نُعلِّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هي الشياطين صُفِّدت وسُلْسلت ، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سَلْسلتها ؟ إذن : هي نفسك التي توسوس لك ؛ لذلك نقول : كل معصية تقع في رمضان ليس للشيطان فيها نصيب . إنما هي شهوة النفس .

وسبق أنْ بيَّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان ؟ ومتى تكون شهوة نفس ؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ في غيرها ، فهي من الشيطان ؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أي وجه ، وبأيِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهي تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨١/٢) ، والنسائي في سننه (١٢٨/٤) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

وسبق أن ناداهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص] أى : فى زعمكم ؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] ولم يقُلْ شركائى ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] أفى دعوى الألوهية ؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] ؟ قالوا : الإضافة تأتى بمعَانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أى : من قمح ، أو بمعنى (فى) مثل : مكر الليل أى : مكر فى الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أى : قلم لزيد .

فالمعنى هنا ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] أى : من جنسكم أو فيكم يعنى : لا يتميز عنكم بشىء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُسَاوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] يعنى : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : ﴿هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. ﴿١٨﴾﴾ [يونس]

وقلتم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذى يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله ؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

﴿فَدَعَوْهُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] لأنهم مشغولون

بأنفسهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص] يعنى : لو كانوا يهتدون بهَدْى الله ، وهَدْى رسوله ، ويرونْ العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة فى الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قال هنا أيضاً ﴿يُنَادِيهِمْ .. ﴿٦٥﴾﴾ [القصص] فما الغرض من كل هذه النداءات ؟ إنها للتقريع وللتوبيخ وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتم بما جاءوا به من أحكام ؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً ؟

وهذا الاستفهام للتعجيز ؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون ؛ لذلك يقول بعدها ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ .. ﴿٦٦﴾﴾ [القصص] أى : خفيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْهَا ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص] لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج]

وهؤلاء لا يتساءلون ؛ لأنهم فى الجهل سواء ، وفى الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾[عبس]

وكما سُئل المشركون ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [القصص] فى موضع آخر يسأل الرسل : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩)﴾ [المائدة] أي : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس ؟

وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم فى مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى فى خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة]

فكيف يقولون ﴿لا عِلْمَ لَنَا .. (١٠٩)﴾ [المائدة] وهم يعلمون ؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاَّم الغيوب .

إذن : جعلوا الحق - تبارك وتعالى - هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية فى محكمة العدل الإلهى التى سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر]

والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل

الأستاذ تلميذه ليقرَّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن] أى : سؤالَ علم ؛ لأننا نعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات] أى : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامى يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يدلُّك على أنه تعالى يُبشِّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلهم يرعوون ويتوبون ؛ لذلك يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أخِرَّ على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِّ إئذن لى أنْ أغرق ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوِّقهم إلى الجنة ، وأخوِّفهم من النار . وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١/ ٤٢) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل ، ضعَّف إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (١/ ٢٨٦) .

ولو أُغلِق باب التوبة فى وجه العاصى ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصى وبمَن اكتوى بنار المعصية .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [القصص] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء فى المتكلم أقوى من الرجاء فى الغائب ، فإنْ كان الرجاء فى الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء] فأىُّ رجاء أقوى من الرجاء فى الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتي الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذى أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعونى أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربى بالتربية التى تُوصله إلى المهمة منه .

والمربَّى قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقى الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبِلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : لا خيارَ لكم ، فدعونى لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف يطمعون فى أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين

قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا فى مسائل الآخرة وفى رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم ؟!!

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾﴾ [القصص] أى : الاختيار فى مثل هذه المسائل .

ويجوز ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾﴾ [القصص] أى : المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون فى العذاب ؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرِّه .

وقوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص] أى : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزِلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزَل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ـ وأهواؤهم مختلفة ـ لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً فى الرغبات والأهواء ، بل وفى مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم فى سنٍّ واحدة ، وفى مركز اجتماعى واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ما تُكِنُّ صدورهم أي : السر ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه] والسر : ما تركتَه في نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررتَ به إلى الغير ، وساعتها لن يبقى سراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أوْلَى ؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسِره في نفسك قبل أنْ يوجد في صدرك ، وهو وحده الذي يعلم الأشياء قبل أن توجد .

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شيء معلوم للجميع ؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرىء آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى في علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك]

والآية التي معنا : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [القصص] وفي هذه الآيات قدَّم السر على الجهر ، أما في قوله تعالى :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) ﴾ [الأعلى]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا في فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ في نفسك شيئاً ، فربما ظهر في سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررْته ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد]

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً ؛ لأنه مقابل بالجمع : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها ؟ هذا هو اللغز في الجهر والملحظ الذي فاتهم تدبُّره ، لذلك امتنَّ الله علينا بعلمه للجهر من القول الذي لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة في جمهور من الناس ؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها في الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْتَصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقي في مصرع كليوباترا ، لما انهزموا في يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلي على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمعِ الشَّعْبَ دُيُونُ كَيْفَ يُوحُونَ إلَيْهِ
مَلأَ الجوَّ هتافاً بحيَاتيْ قَاتليْهِ
أثّر البهتانُ فيهِ وَانْطلى الزُّور عليْهِ
يَا لَهُ مِنْ بَبغاءٍ عقلُه في أُذُنَيْهِ

إذن : فَعلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ .. (٦٩) ﴾ [القصص] ليُطمئن رسول الله : لأنه سبحانه ربه ، والمتولي لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أُخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فأخبره ربه بما يدور حتى في النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أنني سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصي عليهم كل شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٧٠﴾﴾ [القصص] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحدَ يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشيء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل في مسألة العبادة علانية و (نفاصل) : من صاحب هذه السلعة : أي يوم القيامة .

ومعنى ﴿الأُولَىٰ .. ﴿٧٠﴾﴾ [القصص] أي : الخَلْق الذي خلقه الله ، والكون الذي أعدَّه لاستقبال خليفته في الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتي الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بني آدم ، فقد سبقه في الخلق عوالم كثيرة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] أي : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهي تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير في خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله في كون أُعدَّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة في ظهر أبيك ، ونطفة في بطن أمك إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنتها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسنَّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج

النهائي في تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

لذلك نجد من حكمة الله تعالى ألاَّ يعطي الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولانْقرض هذا النوع ؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا في الريف شجرة التوت أو شجرة المشمش مثلاً يسقط الثمر الناضج على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذي يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : ﴿ وَالآخِرَةِ .. (٧٠) ﴾ [القصص] يعني : له الحمد في القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس] فيحمد الله في الآخرة ؛ لأنه كان يمتعني في الدنيا إلى أمد ، ويمتعني في الدنيا على قَدْر إمكاناتي ، أما في الآخرة فيعطيني بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد في الأولى ، والحمد في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ [القصص] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل في الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ

مـا له وما عليـه ، فـلا تظن أن الذين آذوك وظلمـوك سيُـفلِتـون من قبضتنا .

﴿وَإِلَيْـهِ تُرْجَـعُـونَ ۝٧٠﴾ [القصص] أي : للحـسـاب ، وفي قـراءة (تَرْجِـعُـون) لأنهم سـيرجـعـون إلينا ويأتوننا بأنفـسـهـم ، كـأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبـه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

وعلى قـراءة ﴿تُرْجَـعُـونَ ۝٧٠﴾ [القصص] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتـأبَّوْا علينا ، كـمـا تأبيـتُم على رسُلنا في الدنيـا ؛ لأن الداعي في الدنـيا كـان يأخـذكم بالرفق واللـين ، أمـا داعي الآخـرة فـيجـمعكـم قَسْـرًا ورَغْـمـا عنكم ، ولا تسـتطيـعون منه فكاكـا ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ [الطور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾

---

(١) يُدعون : أي يُدفعون دفعا عنيفا بقهر وقسوة . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم في اللغة . والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

يُعدِّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نعمه على عبيده فى شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتى بالخير للناس ، والسكون يأتى بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أنْ يعطى ويتعب إلا بعد راحة ، والذى يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ فى نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى . كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة ؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول ﴿ أَرَأَيْتُمْ .. (٧١) ﴾ [القصص] يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون ﴿ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧١) ﴾ [القصص] يعنى : طوال حياتكم ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١) ﴾ [القصص] والسرمد : الدائم المستمر .

وقال ﴿ بِضِيَاءٍ .. (٧١) ﴾ [القصص] ولم يقل بنور ؛ لأن النور قد يأتى من النجوم ، وقد يأتى من القمر ، أمَّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتى إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾ [يونس]

وقال : ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفي الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء في سلامة لي ولها ، وإلاَّ لو سرْنا في الظلام لتحطمنا أو حطَّمنا ما حولنا ؛ لأنك حين تسير في الظلام إمَّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء في الماديات يكون كذلك له دور في المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التي تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منكَ ، أو أنْ يُحطمك الأقوى منك ؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

والمراد : من ظلمات المعاني إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأنني لا أستغنى عنه لراحتي ، فله مهمة عندي لا تقلُّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى في وصفه لنوره عز وجل ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

نور مادي تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادي يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصي ، فلم يضنَّ به على أحد من خَلْقه ، أما النور المعنوي نور الهداية ونور اليقين والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَيْ رسُله ، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما في الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور]

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] يعني : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .

ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهي آية النهار : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧٢) ﴾ [القصص] يعني : دائم لا نهاية له ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلٍّ معنىً ما يناسبه ، ففي آية الليل قال ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وفي آية النهار قال ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] ذلك لأن العين لا عملَ لها في الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .

أما في النهار وفي وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه .

ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين في قوله سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ في الليل والنهار كلٌّ على حدة جمعهما ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفي الآية ملمح بلاغي يسمونه « اللف والنشر » ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ثقةً منه تعالى بفطنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ، والنهار يقابل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

فاللفُّ أي : جَمْع المحكوم عليه معاً في جانب والحكم في جانب آخر ، والنشْر : ردّ كلّ حكم إلى صاحبه .

وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :

قَلْبى وجَفْنى واللسَانُ وخَالقى رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور

فجمعتُ المحكوم عليه فى الشطر الأول والحكم فى الشطر الثانى ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .

والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة ؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل ؛ لأن لك طاقة ، وفى جسمك مُولِّدات الطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك أنك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .

والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً فى حالة السير ، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتى الذى يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التى خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد فى نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان فى هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيتَه ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) ﴾

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى : لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء في الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣) ﴾ [القصص]

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) ﴾ [القصص]

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم ، إذن : فكلمة (أين) و (شركائى) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب في كل قَدْر غير المطلوب في القَدْر الآخر ، فليس في الأمر تكرار ، إنما توكيد في الكل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥١٩٦/٧) : « المناداة هنا ليست من الله ، لأن الله تعالى لا يكلم الكافر لقوله تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٧٤) ﴾ [البقرة] لكنه تعالى يأمر مَنْ يوبخهم ويبكتهم ، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٧٤) ﴾ [البقرة] حين يقال لهم ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون] .

أى : أخرجنا من كل أمة نبيَّها . وأحضرناه ليكون شاهداً عليها ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥) ﴾ [القصص] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات ، فقد ضلُّوا عنهم ، وهربوا منهم .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾ [القصص]

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا .. (٧٥) ﴾ [القصص] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلَّغكم الرسل .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ [النساء]

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ فى البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم ؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : قولوا : إن رسلنا لم يبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأسقط فى أيديهم حيث غاب شهداؤهم وحضر الشهداء عليهم ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ .. (٧٥) ﴾ [القصص]

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها فى الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذِّره من وعورة الطريق الذى سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال ينبغى عليه أنْ ينصرفَ عنه ، إنْ كان الناصح له صادقاً ، ولا عليه حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حدِّ قول الشاعر :

زَعَمَ المنجِّمُ والطبيبُ كِلاهُمَا لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُمَا
إنْ صَحَّ قولكُمَا فلستُ بِخَاسِرٍ أوْ صَحَّ قَوْلى فَالخسَارُ عليكُمَا

وما عليك إنْ حملتَ بندقية فى هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك ؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : غاب ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ [القصص] من ادِّعاء الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - لقطة من لقطات يوم القيامة . والقيامة لا تخيف إلا مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر ؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمى صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقى الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمى حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧) ﴾ [الطور]

يعني : قبل عذاب الآخرة .

فالذي يقع للكفار في الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدي ، وأنْ يقف في وجه الحق ؛ لذلك يعطينا ربنا - عز وجل - صورة لهذا العذاب الدنيوي للمفسدين في الأرض ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ[1] فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ[2] بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فلم يتكلم عن قارون وجزائه في الآخرة ، إنما يجعله مثلاً وعبرة واضحة في الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلّه يرتدع .

والنبي ﷺ اضطهده كفار قريش ، ووقفوا في وجه دعوته ، وآذوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على رسول الله يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

فيتعجب عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا ؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتِلوا . قال

---

(١) قال ابن عباس : كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . وزعم ابن إسحاق أن قارون كان عم موسى بن عمران . [قاله ابن كثير في تفسيره ٣/٣٩٨] .

(٢) ناء الرجل بالحمل : نهض به متثاقلاً في جهد ومشقة . أي : تثقل عليهم وتجهدهم وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

عمر[1] : نعم صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر]

لذلك يقولون : لا يموت ظالم في الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ويرى فيه المظلوم يوماً يشفي غليله ، ولما مات ظلوم في الشام ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجَّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن تشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار دار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وعَدْل الله - عز وجل - يقتضي هذه المحاسبة .

والحق - تبارك وتعالى - يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون في أَخْذه عبرة لمن دونه .

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الإسكندرية ، فتجمَّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه في الأرض ، وعندها تفرَّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ .. ۝٧٦﴾ [القصص] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِي بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذي ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامري الذي خانه في قومه في غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبي حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يهزم ؟ أي : أيّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

ومُنى من قومـه بقارون ، ومعنى : من قومـه ، إما لأنه كان من رحمـه من بنى إسرائيل ، أو من قومه يعنى : الذين يعيشون معه . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا ، لكن المفسرين يقولون : إنه ابن عمه . فهو : قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب و موسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام فى العداوة بين موسى وقارون ، قالوا : حينما سأل موسى عليه السلام ربه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون ، أجابه سبحانه ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ (٣٦) ﴾ [طه] وليست هذه أول مرة بل ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) ﴾ [طه] وأرسل الله معه أخاه هارون ؛ لأنه أفصح من موسى لساناً ، وجعلهما شريكين فى الرسالة ، وخاطبهما معاً ﴿ اذْهَبَا .. (٤٣) ﴾ [طه] ليؤكد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب فى القرآن لموسى بمفرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فيه ، ومن ذلك لما دعا موسى على قوم فرعون ، فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

فالذى دعا موسى ، ومع ذلك لما أجابه ربه قال : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعى ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف] وفى غيبة موسى حدثتْ مسألة العجل ، وغضب

موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص فى رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذى يُعَد مرجعاً ، كما أُعطى (القربان) أى : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون ؛ لأنه خرج من هذه المسألة صُفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة

ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من قارون زكاة ماله ، دينار فى كل ألف دينار ، ودرهم فى كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى ـ عليه السلام[1] .

ثم دبَّر له فضيحة ؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طستاً مليئاً بالذهب ، على أن تدَّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغىُّ وقالت : هو راودنى عن نفسى ، فقال لها : والذى فلق البحر لَتقولِنَّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون فى البَغْى والطغيان حتى أخذه الله ، وقال فى

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى عليه السلام قال لقارون : إن الله أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل ، فما ترى ، فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فترسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٣٦] .

حـقـه هذه الآيات : ﴿ إِنَّ قَـارُونَ كَـانَ مِن قَـوْمِ مُـوسَىٰ فَـبَـغَىٰ عَلَيْـهِمْ .. ⟨٧٦⟩ ﴾ [القصص]

والبغى : تجاوز الحدّ فى الظلم ، خـاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قـوة بين قومه ، والبغى إما بـالاستيلاء على حقـوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثـية هذا البغى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ .. ⟨٧٦⟩ ﴾ [القصص]

كلمة (مـفاتح) كما فى قـوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ .. ⟨٥٩⟩ ﴾ [الأنعام]

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفـردها ؟ لا تقُلْ مفتاح ؛ لأن مفتاح جمـعها مـفاتيح ، أما مـفاتح ، فـمفردها (مَـفْتح)[1] وهى آلة الفتح كالمـفتـاح ، وهى على وزن (مبـرد) فالمـعنى : أن مفاتيـح خزائنه لو حملتْها عصبـة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثَقُل عليه ، ونحن لا نـميز الخفيف من الثقيل بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حمله للإحساس بوزنه.

وقلنا : إن هذه الحاسة هى حاسة العَضَل ، فـالحملُ الثقيل يُجهد العضلة ، فتـشعر بالثقل ، على خلاف لو حـملتَ شيئاً خفـيفاً لا تكاد تشـعر بوزنه لخـفَّتـه ، ولو حـاولتَ أنْ تجمع أوزاناً فى حـيز ضـيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقل يفضحك ؛ لأنك تنوء به .

والعُصْـبة : هم القوم الذين يتـعصَّبـون لمبدأ من المـبادىء بدون

---

(١) المـفتح : الخـزانة . قال الأزهـرى . كل خزانة كـانت لصنف من الأشياء ، فهى مَفْتح ، والمفتح : الكنز . قيل - هى الكنوز والخزائن ، قال الزجاج : روى أن مفاتحه خزائنه . قال الأزهرى : والأشبه فى التفسير أن مفـاتحه خـزائن ماله . والله أعلم بمـا أراد . [لسـان العرب ـ مادة : فتح] .

هَوًى بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ⑧﴾ [يوسف]

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض في مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى[1] ، فطبيعي أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلى العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. ④﴾ [يوسف] وهم إخوته ومنهم بنيامين ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ④﴾ [يوسف] أي : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذي يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام علي - رضي الله عنه - مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجتُ امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام علي : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن ؟ قال : نأخذها من قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا .. ⑮﴾[الأحقاف] وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. ②③③﴾ [البقرة]

يعني : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هي أقل مدة للحمل . وهكذا

---

(١) تزوج يعقوب أولاً ليئة بنت لابان ، ثم تزوج أختها الصغرى راحيل ، جمع بينهما ، لأنه كان مباحاً في شريعتهم وقد ولدت له ليئة ٦ بنين (راوبين ، شمعون ، لاوي ، يهوذا ، يساكر ، زبولون) وبنتاً واحدة (دينة) . وولدت له راحيل ولدين : يوسف وبنيامين . وولدت له سريته « بلهة » ولدين : دان ، ونفتالي . وولدت له سريته « زلفة » ولدين : جاد ، وأشير . ذلك ما ذكرته التوراة في [سفر التكوين : الأصحاح ٣٥ : ٢٢ - ٢٦] .

تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضهـا بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها فى ذات الموضوع .

ثم يقـول سبحـانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص] والنهى هنا عن الفـرح المحظور ، فـالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفرْق بين أمر يسرُّك : لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدث له متعة ، مع أنهـا مضـرة بالنسبة لـه ، إذن : فالفرح ينبغى أن يكون بالشىء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا فى النافع .

فحينمـا يقـولون له ﴿ لا تَفْرَحْ .. (٧٦) ﴾ [القصص] أى : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشىء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذى يتناول الدواء المر الذى يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [يونس]

ويقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] فسمـاه الله فرحاً ؛ لأنه فرح بشىء نافع ؛ لأن انتصار الدعوة يعنى أن مبدأك الذى آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فـرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١) ﴾ [التوبة] هذا هو فرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

أى : فرح المتعة الذى لا ينظر إلى مَغَبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً : إنه فن جميل وفن رَاقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقى أن يظل جميلاً ، لكن أنْ يتقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث فى الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَٱبْتَغِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] أى : اطلب ﴿ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه فى حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

وفى الحديث الشريف لما سأل رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة

عن الشاة التي أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيتْ إلا كتفها »[1] .

ويقول ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[2] .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام علي - رضي الله عنه - جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندى ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم في هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطى ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا - عز وجل - يوصينا بأن نبتغى الآخرة ، فهذا لا يعنى أن نترك الدنيا : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس في الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] نفهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٥٠) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها . قال الترمذي « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه .

أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكَّرني الله بها .

ولأهل المعرفة في هذه المسألة ملْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التي تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجها للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] يعني : خُذْ منها القَدْر الذي يعينك على أمر الآخرة . لذلك قالوا عن الدنيا : هي أهم من أن تُنْسى ـ لأنها الوسيلة إلى الآخرة ـ وأتفه من أن تكون غاية : لأن بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء في الأثر « تخلقوا بأخلاق الله » .

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٠١) : « قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] اختلف فيه .

فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك ، إذ الآخرة إنما يُعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة

ـ وقال الحسن وقتادة : معناه لا تُضيِّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه . وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، قاله ابن عطية » .

لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [النور]

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطى دون مخافة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب - وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة - حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدى ، مسئول منى أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندى - حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره - فمَنْ إذن يقرضنى لأسدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك وسَعْيك .. كما لو أراد والد أنْ يُجرى لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضونى من أموالكم لأجرى الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

وفى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة - رضوان الله عليها - فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به « ؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ » ؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد]

وقال في موضع آخر : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام] وفي الحديث الشريف : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة - هذا في نظرهم - لأنهم لا يملكون الملكة العربية في استقبال البيان القرآني . وبتأمل الآيات والأحاديث تجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف - ظاهراً - في قوله تعالى : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد] وقول النبي ﷺ : « والقرض بثمانية عشر » .

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها الدرهم الذي تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص] والفساد يأتي من الخروج عن منهج الله ،

---

(١) عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/١٢٦) وعزاه للطبراني في المعجم الكبير وقال : « فيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف » .
وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض ثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما للقرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/٣٣٣) .

فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون في المادة يكون في المنهج ، وفي المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنوية - أوْلَى من قوام الحياة المادية .

إذن : فلتكنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبني حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهي ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أشِراً[1] مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

ووجدوه قد نسي نصيبه من الدنيا فلم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق في الخير ، فقالوا له : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] يعني : عدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك .. وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

---

(١) الأشَر : البطر . وقيل : هو أشد البطر . والبطر : الطغيان في النعمة ، فهو بَطِر : لم يشكرها . [لسان العرب - مادتا : أشر - بطر] .

ثم يقول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التي توجَّه بها قومه إليه :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لكن ما وجه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] على المطلوبات الخمسة التي طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم بهذه الأمور : لأن الذي أعطاني المال علم أنني أهلٌ له ، وأنني أستحقه ؛ لذلك ائتمنني عليه ، ولستُ في حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] يعني : بمجهودي ومزاولة الأعمال التي تُغل عليَّ هذا المال . وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت في قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .

فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فكيف فاتتْه هذه المسألة مع علْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أي : من ضمن ما علم ﴿ مِنَ الْقُرُونِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد

أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة ﴿ جمعا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] يجوز أن تكون مصدرا يعنى : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أى : له عُصْبة .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .

وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب فى أىِّ وقت ، إذن : لن نسألهم . ولن نُجرى معهم تحقيقا كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .

وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرسا بَطِراً لم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحا باغيا مفسدا ، ويحكى عنه القرآن :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنيا وجيها ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد . كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج فى زينته وفى موكب عظيم ، وفى أبهة ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص]

وللعلماء كلام كثير[1] في هذه الزينة التي خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس .. إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفي هؤلاء يقول تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص] وقد خاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿١٣١﴾﴾ [طه]

والمعنى : لا تنظر إلى ما في يد غيرك ، واحترم قدر الله في خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحتَ بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْتَ نفعها ؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره ؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه ، وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما ذنبه هو ؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

---

(١) قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر . [أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم] . قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . [أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم] . أورد السيوطي هذه الآثار وغيرها في [الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٤٤١] .

بعضكم على بعض .. (٣٢) ﴾ [النساء]

لأن لكل منكم مهمة ودوراً فى الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التى يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فضله على خَلْقه ؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوى مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عنى فى خصلة ، وأزيد عنك فى أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم ... إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ فى عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، فى حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار ؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً فى شىء فلا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشىء بسيط : حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد اليسرى تجد أن اليد اليمنى - لأنها مرنة سهلة الحركة - تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التى كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها .

وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوّق في شيء أو أحسن في صُنْعه فاحمد الله ؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد ؛ لأنك ستنتفع به في يوم من الأيام .

لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهروا بزينة قارون ؟ قالوا : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص] يعني : كما نقول نحن (حظه بمب) : لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأيٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور ؛ لذلك ردُّوا عليهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا
وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (٨٠) ﴾

فما كان الحق - تبارك وتعالى - ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكّكون الناس في قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخلي الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :

إنَّ الذي جَعَلَ الحقيقةَ عَلْقَماً لم يخْلِ من أهْلِ الحقيقة جيلا

وما دام أن الله تعالى قال في الجماعة الأولى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا .. (٧٩) ﴾ [القصص] فهم لا يرونَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال في الأخرى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ .. (٨٠) ﴾ [القصص] فهذا يعني : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم

علم ينفعهم ؛ لذلك وقعوا فى هذا المأزق الذى نجا منه أهل العلم ، حينما أجروا مقارنة بين الطمع فى الدنيا والطمع فى الآخرة .

كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة ؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص]

أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : ﴿ وَيْلَكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] أى : الويل لكم بسبب هذا التفكير السطحى ، وتمنِّى ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم ، وباعتراضكم على أقدار الله فى خَلْقه .

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا ؛ لذلك قال الله عنهم فى موضع آخر : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الروم]

يعنى : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجِّهونهم الوجهة الصحيحة : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] أى : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولم ترضَوْها ؟

ومعنى : ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] أى : يُلقَّى الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبِلَ على عمل الآخرة ، ويُفضِّلها

عن الدنيا ، أي : يُلقَّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفَّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ [فصلت]

والصبر : احتمال ما يؤذي في الظاهر ، لكنه يُنعِّم في الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاصٍ ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحل ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس ؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة] فهناك دَواعٍ شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفَّها على نفسك ، بل وقرَّة عيْن لك .

والنبي ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس في قوله لمؤذنه بلال : « أرحنا بها يا بلال »[1] لا أرحنا منها تلك المقالة التي يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً ﷺ : « وجُعلَت قرة عيني في الصلاة »[2] وخصَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائي في سننه (٧/٦١) والحاكم في مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وتمامه : « حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطيب ، وجُعلت قرة عيني في الصلاة » .

الصلاة بالذات من بين سائر العبادات ؛ لأنها تتكرر في اليوم خمس مرات ، فهي ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة في العام ، أو مرة واحدة في العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثاني : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنسَ أنه أول صبر تصادفه في حياتك أنْ تصبر على نفسك ؛ لذلك يقول الشاعر[1] :

إذا رُمْتَ أنْ تَسْتقرِضَ المالَ مُنفقاً ... على شَهَوات النفْسِ في زَمَن العُسْرِ

فَسَل نفسَكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها ... عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ

فإنْ فعلتْ كنتَ الغنيَّ وإنْ ... أبتْ فكل مَنُوع بعدها واسِعِ العُذْرِ

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأوْلَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ لم تسعْك نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التي لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية بحكمة مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول في الحديث الشريف : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »[2] .

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

(٢) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم في الحلية (٢٣٧/٤) وابن الجوزي بإسناده في « العلل المتناهية » (٥١٩/٢) وضعَّفه . وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٤٥٧/١) .

إذن : حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنّ إلا نفسك ، كالطالب الذى يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل فى الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شىء من الغرور ، وعوّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حدّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ منَ اللهِ للفتَى فَأوَّلُ مَا يَجْنى عليْهِ اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذتَ بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدى عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حكماً فى كل منهما ، ففى النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ولده :
﴿ واصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ويقول فيما لك فيه غريم : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣)﴾ [الشورى] فما دام قد ذكر المغفرة ودعاك إليها ، فلا بُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغي أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجنى إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر في هذه الحالة أشدَّ ويحتاج إلى عزيمة قوية .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] ولم يقل كما فى الاولى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا - تبارك وتعالى - كيف تعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعنى أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه في نفسك ، فإنِ ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرِج الغيظ والغِلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإنِ ارتقيتَ إلى المرتبة الأعلى أحسنتَ ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهى قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها ؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثَّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأولاها فلا شيء عليك ؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقى فى طاعة ربك ، فنعْم الرجل أنت ، ويكفيك ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

ويكفيك أن المسيء بإساءته إليك جعل الله في جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أحسن لمن جعل الله في جانبي ؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتدَى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدي ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - إنِ اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظلمه .

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذي يستحقه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذي يقول (يا أرض انشقي وابلعيني) ، والخسف كان به وبداره التي فيها كنوزه وخزائنه وما يملك ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] أي : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إنْ حلَّ ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسفت به الأرض ؟!

وهنا ينبغي أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتِنوا بماله وزينته ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٢) ﴾

لقد كانوا بالأمس يقولون ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ .. (٧٩) ﴾ [القصص] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين - اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : ﴿ ويَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. (٨٢) ﴾ [القصص]

كلمة (وَىْ) اسم فعل مثل : أفّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهى تنديد وتَخْطِيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَىْ) للتعجب . فقولهم (وى) ندماً على ما كان منهم من تمنى النعمة التى تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن ويُخطِّئون أنفسهم ؛ لأن لله تعالى فى رزقه حكمة وقدراً .

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. (٨٢) ﴾ [القصص] أى : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليلَ كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله بسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : ﴿ كَلاَّ .. (١٧) ﴾ [الفجر] يعني : أنتما خاطئان ، فلا سعةُ الرزق دليلُ كرامة ، ولا تضييقه دليلُ إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطى بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه ؟

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر]

إذن : فأيُّ كرامة في مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلِب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح في يد الذي لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا .. (٨٢) ﴾ [القصص] لأنهم بالأمس تمنَّوْا مكانه ، أما الآن فيعترفون بأن الله مَنَّ عليهم حين نجاهم من هذا المصير ، ثم يقولون ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) ﴾ [القصص] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل في هذه المسألة :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بني جنسه ، ولا على بيئته إلا بشيء ذاتي فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته ؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو على غيرك بشيء موهوب لك ، إنْ أردتَ فبشيء ذاتي فيك ، وليس فيك شيء ذاتي ، فلست أفضلَ من أحد حتى تعلو عليه ، كما أن الدنيا أغيار ، وربما انتقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك ؟

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السيرك ، ثم امسك نفسك في هذا العلو ، وطبعاً لن تستطيع ، لماذا ؟ لأنه لا ذاتية لك في العُلو .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تعلو ؛ لأنك بعلوِّك تُحفظ الآخرين ؛ فإنْ حصل لك العكس شمتوا فيك ، وأيضاً لأن الإنسان لا يعلو في بيئة ولا في مكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونك فأنت لم تتنبه إلى أسرار فَضْل الله في خَلْقه .

ولو تأملتَ لوجدتَ في كل منهم خصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ونحن جميعاً عنده تعالى سواء ، وقد وزَّع المواهب بيننا جميعاً بالتساوي ، وبالتالي لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالي إذن ؟ ولِمَ الكبر ؟

وأيضاً الذي يتعالى لا يتعالى إلا في غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذي يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحي أن يتكبر على خَلْقه .

والنبي ﷺ يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين ؟ وكيف نتواضع لهم ؟

فلما دخل عليه الصحابي الجليل عدى بن حاتم[١] قام عن كرامة مجلسه له ، يعنى : إن كانْ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله ﷺ على المساواة فى المجلس ؛ لذلك قال عدى بن حاتم لرسول الله ﷺ : أشهد أنك لا تريد علُواً فى الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً فى مساجدنا ، وهى بيوت الله وأَوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلَّى ليصلى عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز ؟

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلَّى جانباً ، ويصلى كما يصلى بقية الناس ، وأظن أن الذى يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغى علواً فى الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سويَّ الحركة فى أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضِّغْن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيشٍ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] أى : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة فى النعيم المقيم الدائم للمتقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) هو : ابن حاتم الطائي المشهور بالكرم . أسلم عدى في سنة تسع وقيل سنة عشر وكان نصرانيا قبل ذلك ، وثبت على إسلامه عند ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول ﷺ ، شهد فتوح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع على ومات بعد الستين هجرية [الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٥٤٦٧)] .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

وتُطلق ويُراد بها الأحسن في الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير »[1] فهي بمعنى التفضيل ، أي : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل . وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أي : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسن ، والمراد أن الحسنة بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجة في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

فقوله تعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصي ، ومعنى ﴿جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] أي : أتى بها حدثاً لم يَكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها في الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً في الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك في الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء في نصحهم : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء في مجال ذكر الحسنة . والحسنة أهي الشيء الذي يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشيء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشيء ولا يستطيبه ، ويأتي له بالنفع .

فمن إذن الذي يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين في هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذي خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذي يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يفعل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون في تعريف الحسنة : هي ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، في حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى في صفة الطعام : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] لأن الطعام قد يكون مَنِيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مريء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] فالحسنة خير ، لكن الثوابَ عليها خيرٌ منها أي : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعي لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التي تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خَلْقه .

لذلك قال ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أي : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى في سورة (عم) : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ[1] أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا[2] ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ]

---

(١) الكواعب الأتراب : أي فتيات ناضجات متماثلات في السن . وكعب الثدي : برز ونهد . يُقال للفتاة : كاعب . أي : ذات ثدي بارز . [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٢) الكأس الدهاق : الممتلئة المتتابعة على شاربيها . وقوله تعالى ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النبأ] أي : في الامتلاء الدائم . وهذا كناية عن النعيم الدائم . [القاموس القويم ١/٢٣٤] .

فحساباً هنا لا تعنى أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعنى كافيهم فى كل ناحية من نواحى الخير ، ومنه قولنا : حسبى الله يعنى : كافينى .

وفى المقابل يقول سبحانه فى السيئة : ﴿جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)﴾ [النبأ] أى : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا ـ عز وجل ـ يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغرى الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفى المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه :

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمَّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه فى أول سورة النور : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١)﴾ [النور]

يعنى : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعنى ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هى ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب ، إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة

ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذى يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها ؛ لأن الخالق - عز وجل - خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله فى الإيمان ، فهو مقهور له تعالى فى مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، ويُعذِّب مَنْ يُعذب بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله فى قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً فى كل شىء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله فى الحكم ، وبهذا المنطق يكون الجميع فى الآخرة عباداً ؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوى فى ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وسُمِّى إنزال القرآن فَرْضاً لما فى القرآن من تكاليف ، وهى عادةً ما تكون شاقة على النفس ، ألاَ ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهى أم العبادات : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع ؛ لذلك كان النبى ﷺ يقول

لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[١] ويقول : « وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة »[٢] ؛ لأنه ﷺ أحبها وعشقها ، حتى صارت قُرَّة عينه ، ومُنْتهى راحته .

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شاقاً ؛ لذلك يحتاج إلى صلابة إيمان وجَلَد يقين ، بحيث تثق في أن العمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة في الآخرة .

ويقول تعالى عن القتال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إن استحضرتَ الجزاء ، وعرفتَ أنه : إما النصر ، وإما الشهادة ، فإنه يحلو لك حتى تعشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابي في بدر بعد أن سمع ما للشهيد من الأجر وكان في فمه تمرة يمضغها فقال : « أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل » ؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال[٣] .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات في نفس المؤمن ؛ ليقبل على العمل بحب وشهوة . ومن هنا يقول بعض العارفين الذين عشقوا الخير حتى أصبح شهوةَ نفْس عندهم : أخشى ألاَّ يُثيبني الله على الطاعة ، لماذا ؟ يقول : لأنني أصبحتُ أشتهيها ، أي : كما يشتهي أهل المعصية المعصية .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) ، أبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٢٨) ، والنسائي في سننه (٧/٦١) ، والحاكم في مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٨٩٩) في كتاب الإمارة من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

وحين يصل الإيمان بصاحبه إلى درجة أنه يعشق الطاعة ، فقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

وكان النبى ﷺ يقوم الليل حتى تورمَتْ قدماه ، فلما سألتْه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[١] ؟

ومعنى : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] يعنى : يجازيك أفضل الجزاء ، ونزلتْ هذه الآية لما اضطهد أهلُ مكة رسولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهاب إلى الطائف ليبحث فيها عن نصير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيها ، وعاد متكسراً حزيناً لم يجد مَنْ يدخل فى جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدى .

وتأمل حين يكون رسول الله بجلالة قدره لا يجد مَنْ يناصره ، أو يُدخله فى جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفى هذه الفترة لاقوا المشاق فى سبيل الدعوة ، فحاصرهم الكفار فى شِعْب أبى طالب ، وفرضوا عليهم المقاطعة التامة حتى عزلوهم عن الناس ، ومنعوا عنهم الطعام والشراب ، والبيع والشراء ، حتى الزواج ، وحتى اضطروا إلى أكل المخلّفات وأوراق الشجر .

لذلك أمرهم الله بالهجرة ، والهجرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار إيمان ، إلى دار أمن كالهجرة إلى الحبشة حيث قال لهم رسول الله ﷺ مُبيِّناً حيثية الهجرة إليها : « إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٣٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . وعند البخارى زيادة : « فلما كثر لحمه صلى جالساً ، فإذا أراد أن يركع قام ، فقرأ ثم ركع » .

أحد »[1] يعنى : النجاشى ملك الحبشة ، وفعلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلما أرسلتْ قريش فى إثرهم مَنْ يكلم النجاشى فى طلبهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهم ، وأن يُمكِّن قريشا منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عظمة رسول الله ، وعلى فكره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشة لا يأتى إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمى فى أمة أمية ، ولو لم يذهب وفد قريش فى طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتيجة « لا يظلم عنده أحد » فقد شرَّفه الله بالإسلام فأسلم ووكَّله رسول الله فى أن يُزوِّجه من السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت رضى الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجها الذى تنصَّر هناك ، وبقيتْ هى على دينها وتمسكتْ بعقيدتها .

وفى هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عشْقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً معه بدينها ؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد فى تركه ؛ لذلك طلبها رسول الله لنفسه ، ثم لما مات النجاشى صلى عليه رسول الله وترحَّم عليه . هذه هى هجرة الإيمان إلى دار الأمن .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٢١/١) : « قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار في المدينة أروع مَثَل في التضحية التي ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضِنّ على غيره بما يملك ، فتعطيني سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار في هذه المسألة نظرة أخرى حيث أشركوا إخوانهم المهاجرين في كل شيء حتى في زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة للنساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتي ، فأيتهنّ أعجبتك أطلّقها ، وتتزوجها أنت ، هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً في تاريخ الناس حتى عند الكفرة .

ثم أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْية في حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادي في أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو يُيتم ولده ، أو تُرمَّل زوجته فليلْقني خلف هذا الوادي .

أما رسول الله فقد خرج خُفْية ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفى عليه الحكمة منها ، فرسول الله ﷺ كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوي فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية ؛ لذلك لا يستحي أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .

ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدى ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول « شاهت الوجوه »[١] .

ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق ؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار ؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به ﷺ .

والمتأمل فى حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعى كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا فى شخص رسول الله ﷺ ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله ﷺ من مكة وهى بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىَّ ، فأسكنِّى أحب البلاد إليك »[٢] .

لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةً لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله ؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾﴾ [القصص]

---

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (٣٦٨/١) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (٢٨٦/١) والدارمى فى سننه (٢١٩/٢) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقال : هذا حديث رواته مدنيون من بيت أبى سعيد المقبرى ، قال الذهبى « لكنه موضوع ، فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة . وسعد بن سعيد المقبرى ليس بثقة » .

فالذى فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها . هو الذى سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردَّ فتح ، وما أشبهَ ردَّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه فى قوله تعالى لأم موسى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. ⑦ ﴾ [القصص] ليس رَدّاً عادياً ، إنما ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ ﴾ [القصص]

إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله فى ردِّ موسى يصدق فى ردِّ محمد .

ومعنى ﴿ مَعَادٍ .. ⑧٥ ﴾ [القصص] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد به المكان الذى تعود إليه بعد أنْ تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذى تحنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .

أو : نردك إلى (معاد) أى : إلينا ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ⑦٧ ﴾ [غافر] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧٥ ﴾ [القصص] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً ﷺ الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذى يؤمن به (صبأ فلان) يعنى : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذى يؤمن فى نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. ①٢٥ ﴾ [النحل] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أمَّا الجدل العفيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك ؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧٥ ﴾ [القصص] أى : جاء بالهدى من عند الله

وهو النبي ﷺ : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾ [القصص]

ثم يعطى الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ دليلاً من واقع حياته ؛ ليطمئن على أنه مُؤيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفى له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه ؟

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يعنى : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك ؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً ؟ إنه أمر لم يكُنْ في بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذى أعطاك الرسالة ولم تكُنْ فى بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه ؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صدْق ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] وفى موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] فالذى أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ [القصص] أي : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة[1] ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريهم في باطلهم ، لذلك كان النبي ﷺ لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من اتباعه .

وسبق أن ذكرنا في تأويل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] قصة اليهودي زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده دِرْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده في بيت اليهودي ، وكان السارق قد وضعه في كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودي بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودي على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .

لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة في رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حكْماً ؛ وعندما نزل[2] الوحي على رسول الله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

---

(١) عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكُفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هي ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء الوحي من عند الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٥٤/٨) وعزاه لابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والطبراني .

(٢) أورده الواحدي النيسابوري في « أسباب النزول » (ص ١٠٣) ، وقال : « هذا قول جماعة من المفسرين » .

بين النَّاس .. ﴿١٠٥﴾ [النساء] أي : جميع الناس ، المؤمن والكافر ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] أي : تخاصم من أجلهم ولصالحهم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء] أي : مما خطر ببالك في هذه المسألة .

وفي بعض الآيات نجد في ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة]

وكل ما يكون في القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله ﷺ ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطي للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم ؟

كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشيء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجِّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حدِّ المثل القائل (إياك أعني واسمعي يا جارة) .

لذلك يقول بعض العارفين :

مَا كَانَ في القُرآنِ مِنْ نِذَارةٍ إلى النَّبيِّ صَاحِبِ البِشَارةِ
فَكُنْ لَبِيباً وافْهَمِ الإشَارةَ إيَّاكِ أعنى واسْمَعِي يَا جَارةَ

يعني : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجِّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى :لا يصرفنك ولا يمنعنك المشركون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى : قراءتها وتبليغها للناس ، وقوله : ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] هذا أيضا داخل فى (إياك أعنى واسمعى يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] كسابقتها ؛ لأن رسول الله ﷺ ليس مظنة أن يدعو مع الله إلها آخر ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] أى : لا معبودَ بحق إلا هو .

ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أى : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، او ليتقرَّبوا إليه .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] الوجه فى عُرْفنا ما به المواجهة فى الإنسان ، وكل شىء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه فى إطار قوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا في كل الصفات التي يشترك فيها الحق سبحانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتي ، ليس كوجودك أنت .

وقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ .. (٨٨)﴾ [القصص] كلمة شيء يقولون : إنها جنس الأجناس يعني : أي موجود طرأ عليه الوجود يسمى (شيء) مهما كان تافهاً ضئيلاً . وقد تكلم العلماء في : أيطلق على الله تعالى أنه شيء لأنه موجود ؟

قالوا : ننظر في أصل الكلمة (شيء) من شاء شيئاً ، فالشيء شاءه غيره ، فأوجده ؛ لذلك لا يقال لله تعالى شيء ؛ لأنه سبحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .

وفي آية أخرى يقول تعالى في عمومية الشيء : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] يعني : كل ما يُقال له شيء موجود سبق وجوده عدم ، إلا يسبح بحمد الله ، البعض قال : هو تسبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبيح مقالة حقيقية ، لكن قوله سبحانه ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] يدل على أنه تسبيح حقيقي ، فكل شيء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .

وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها ، لكن كيف نطمع في معرفة لغات الحجر والشجر ، ونحن لا نفهم لغات بعضنا ، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزية ، أتعرف ماذا يقول المتحدث بها لو سبَّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلَّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات ؟

لذلك يقولون في معجزاته ﷺ : سبَّح الحصى في يده ، والصواب أن تقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى

يُسبِّح في يد رسول الله ، ويُسبِّح في يد أبي جهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجذع لرسول الله ﷺ . ثم ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾ [النحل]

ألم يَقُلْ عن الأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً ؟ ألم يكلم الهدهد سليمانَ عليه السلام ، وفهم منه سليمانُ ؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التي يفهمها أفراده عن بعض ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾[النور] وإنْ شاء الله أطلع بعض خَلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى ﴿ هَالِكٌ .. (٨٨) ﴾ [القصص] البعض يظن أن الهلاكَ خاصٌّ بما فيه روح كالإنسان والحيوان . لكن لو وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالهلاك يقابله الحياة ، فكل شيء يهلك كانت له حياة تناسبه ، وإنْ كنا لا نفهم إلا حياتنا نحن ، والتي تذهب بخروج الروح .

ومعنى : ﴿ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] أي : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو ؛ لأنه تعالى ليس شيئاً ، وللوجه هنا معنى آخر ، كما نقول : فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجه الله يعني : فعلت والله في بالي ، فالمعنى : كل شيء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً ؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره في الدنيا وثوابه في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص] أي : له الحكم في الآخرة يوم يقول ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦) ﴾ [غافر] لكن

لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم في الدنيا وفي الآخرة ؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً في الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه في النمرود : ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وقال سبحانه : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذي يُملِّك خَلْقه في الدنيا دنيا الأسباب ، لكن في الآخرة تُنزَع الملكية من أيِّ أحد إلا لله وحده ، حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه في الدنيا .

وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صِدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التي تجري عليك ، كالمرَض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أنْ تتأبى عليها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص] أي : للحساب في الآخرة ؛ لأن الله تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لابد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .

والمتتبع لهذا الفعل في القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذي تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف في النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله في الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه في الآخرة ، ويأتي مبنياً للمعلوم (ترجعُون) وهو للمؤمن الذي يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه .

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

سورة العنكبوت[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ① ﴾

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة نتكلم عن مجالات الأذهان في فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة في سور القرآن ؟ لتظل دائماً على البال .

(١) سورة العنكبوت هي السورة رقم ٢٩ في ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٦٩ آية . اختلف في كونها مكية أم مدنية ، قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر : مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة في أحد قوليهما : مدنية كلها ، وفي القول الآخر لهما وهو قول يحي بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال علي بن أبي طالب : نزلت بين مكة والمدينة . [تفسير القرطبي ٥٢٦١/٧] . نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين ، وهي السورة رقم ٨٤ في ترتيب نزول سور القرآن . [انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٧/١] .

وقلنا : إن القرآن الكريم مبنيٌ في كل آياته وسوره على الوَصْل ، لا على الوقف ، اقرأ : ﴿مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[1] (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧)﴾ [الرحمن]

فلم يقل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧)﴾ [الرحمن] ويقف ، إنما وصل : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)﴾ [الرحمن] لأن القرآن موصول ، لا فصلَ أبداً بين آياته ؛ لذلك ليس في القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .

وكذلك القرآن مبنيٌ على الوَصْل في السور ، فحين تنتهي سورة لا تنتهي على سكون ، فلم يَقُلْ ـ سبحانه وتعالى ـ وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ليبدأ سورة أخرى موصولة .

فهذه إذن سمة عامة في آيات القرآن وسُوره إلا في الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، فهي مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا ؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصَل بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .

---

(١) نضخت البئر : ارتفع ماؤها وجاش وفار . أي : يخرج ماؤهما غزيراً . ونضاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسَج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميِّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطي أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً ؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحِّد المادة الخام عند الجميع .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إن القرآن مُعْجِز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها في صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .

إذن : اختلف أسلوب القرآن ؛ لأن الله تعالى هو الذي يتكلم ، فمعنى (الم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .

أو : (الم) تحمل معنى من المعاني ؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُميُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير في المدرسة : تهجَّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .

إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله ﷺ كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .. إلخ ، إذن : لا بُدَّ أن ربه علَّمه ولقَّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين والتلقّي في تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح] فينطق الأولى

على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها ؟

وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية، فلو قرأنا مثلاً في الشعر الجاهلي نجد عمرو بن كلثوم[1] يقول :

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا   وَلاَ تُبْقِي خُمُورَ الأنْدَرِينَا

نسأل : ماذا أفادت (ألاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها ؟ (ألا) لها معنى عند العربي ؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شيء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادي أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا ....) كأنك تقول له : تنبه لأنني سأكلمك .

والتنبيه جاء في اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته في أي وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عنده استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأته بالمراد ، فربما فاته منه شيء قبل أنْ يتنبه لك .

وكذلك في (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتي كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهي - إذن - معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بني تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، ولد في بلاد ربيعة في شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى . وعمَّر طويلاً ومات في الجزيرة الفراتية نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلي ٥/٨٤] . والبيت من معلقته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾[1]

الفعل (حسب) بالكسر في الماضي ، وبالفتح في المضارع (يحسَب) يعني : ظن . أما : (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أي : عَدَّ .

فالمعنى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ .. (٢) ﴾ [العنكبوت] أي : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهي تفيد نفي هذا الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولو العزم رسالة الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هي التي منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا ؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقَالوها ، إنما هي منهج حياة له متطلبات . إنها تعني : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس في الآية قوماً من المؤمنين كانوا بمكة . وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر . [ذكره القرطبي في تفسيره ٥٢١٢/٧] وانظر أيضاً [أسباب النزول للواحدي ص ١٩٥]

هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا .. ۝٢﴾ [العنكبوت] فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب ؛ لأن القول قد يكون صدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى في آية أخرى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. ۝١١﴾ [الحج]

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكوني ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصدْق الرسول الذي جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبي بكر في حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله ﷺ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] في حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد من هذه الخوارق - التي يقف أمامها العقل - أنْ يُميِّز

(١) قالت عائشة رضي الله عنها : لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة : فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبي .

بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصدْق الرسول فى البلاغ عن ربه .

وسبق أنْ بيَّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعى أنك أتيت بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] فلم يقل محمد : إنى سريت بنفسى إنما أُسْرِى بى .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدى الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست ؟

وسبق أنْ تكلَّمنا فى قضية ينبغى أن تظل فى أذهانكم جميعاً ، وهى أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قدْر قوة فاعله ، فالوزن الذى ينقله الطفل الصغير فى عدة مرات تحمله أنت فى يد واحدة . فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذى يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذى يذهب فى سيارة أو على مَتْن طائرة ، وهكذا .

إذن : قِسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهى قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم ؛ لأنه يريدكم لمهمة

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) : « فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة » .

عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد[1] القوى فى إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه فى أكثر من موضع : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ .. (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذى نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التى يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعِلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التى نُدب إليها .

ومعنى ﴿ يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] يُخْتبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره فى النار ؛ لنُخرج ما فيه من خَبَث ، ونُصفّى معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

---

(١) الصنديد : السيد الشريف ، وكل عظيم غالب : صنديد . [لسان العرب - مادة : صند] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق في القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُسلِّي السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُربوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجر يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً في هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٣ ﴾ [العنكبوت] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بني إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهون وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت]

ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم ؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلِم عنه .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ حينما نقول للمدرس مثلاً : أعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس في الوقت سعة للامتحان فيقول من واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتني لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا ـ عز وجل ـ يختبر

عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت] علْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ(١) يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هنا أيضاً ﴿ حَسِبَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ظن الذين يعملون السيئات ﴿ أَن يَسْبِقُونَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعنى : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهى أنهم لن يُفْلتوا من عقابنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وغيرهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ٧/٥٢١٥] .

معنى ﴿يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ .. ۝﴾ [العنكبوت] يعنى : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذى خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك سيُعيده ويحاسبه ؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء فى الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً فى جنة ؛ لذلك تقول رابعة العدوية[1] :

كُلُّهم يَعْبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... ويـرَوْنَ النجاةَ حَظًّا جَزِيلاً
أوْ بِأنْ يَسْكُنُوا الجنانَ فيحظَوْا ... بِقُصُورٍ ويَشْربُوا سَلْسبِيلا
لَيْسَ لى بالجنَانِ والنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أبتَغِى بِحِبى بَدِيلاً

أى : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، وهى أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنى أحبك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها .

ويقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذى يُرْجى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ .. ۝﴾ [العنكبوت] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنُّسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ [الأعلام للزركلى ٣/١٠] .

على تحقُّق الفعل ، كما قال سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ (٨٨) ﴾ [القصص] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر]

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً ؛ لأن المَيِّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتي أو سيأتي ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته . أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يُلِم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك أَزِمَّة الامور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار في فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتي ، بل ﴿ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا في هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستعجل الإنسان إلا ما لم يَأْتِ بَعْد ؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم مَلَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أي مُحقَّق ؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، منها : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] وفى الآية التى معنا ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنسنا فيها بشىء حسىٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحسىِّ إلى الغيبى غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بنى آدم فى هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت .. إلخ .

وفى كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة فى انقضاء الأجل ، لا فى سنٍّ ولا فى سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَبِ السُّقْمَ كأسَ المماتِ   وإنْ كانَ سُقْماً شَديدَ الأثَرْ
فَرُبَّ عليلٍ تَراهُ استَفاقَ   ورُبَّ سَليمٍ تَراهُ احتُضِرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَبَ الممتلِى صحةً   وصَحَّ السَّقيمُ فَلَمْ يذْهبِ

وتجد السبب الجامع فى الوباءات التى تعترى الناس ، فيموت

واحد ويعيش آخر ، فليس في الموت رتابة ، والحق - سبحانه وتعالى - حينما يقول : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾ [الأعراف] نجد واقع الحياة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ في عمر ، ولا وحدةَ في سبب .

والصدق في الأجل الأول المشاهد لنا يدعونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فالأجل الذي أنهى الحياة بالاختلاف هو الذي يأتي بالحياة بالاتفاق ، فبنفخة واحدة سنقوم جميعاً أحياءً للحساب ، فإن اختلفنا في الأولى فسوف نتفق في الآخرة ؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فيه ، ومستقبل لا نعرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطي لنا في الوجود المشاهد دليلَ الصدق في غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال ما أخبرنا الله به من أن أصلْ الإنسان تراب اختلط بالماء حتى صار طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار .. إلخ .

ثم جعل نسل الإنسان من نطفة تتحول إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم تُكْسى العظام لحماً . وإنْ كان العلم الحديث أرانا النطفة والعلقة والمضغة . وأرانا كيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدِّق من يقول : إني أعلمه ! لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضلين في قوله : ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ

أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فلا علمَ لهم بخَلْق الإنسان ، ولا علمَ لهم بخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسمع لهم ، وخُذْ معلوماتك من كتاب ربك الذى خلق سبحانه ، ويقوم وجود المضلين الذين يقولون : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، أو أن الإنسان أصله قرد - يقوم وجودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدِّق نظرية ترقِّي القرد إلى إنسان ؟ ولماذا ترقَّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقى القرود ؟

وإذا كان المؤمن مُصدِّقًا بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رسول الله ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدِّق ؟ لذلك يُؤْنس الحق سبحانه هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء يُؤْنسها بما تشاهد : فإنْ كنتَ لا تُصدِّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكٍّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشيء يأتى عكْس بنائه .

والخالق - عز وجل - أخبر أن الروح هى آخر شىء فى بناء الإنسان ، لذلك هى أول شىء يُنقَض فيه عند الموت ، إذن : مشهدك فى كيف تموت ، يؤكد لك صدْق الله في كيف جئت ؟

وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثاب المطيع ويُعاقب العاصى ، ألاَ ترى إلى النظم الاجتماعية حتى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ

لاستقامة حركة الحياة ؟ فما بالك بمنهج الله تعالى فى خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلت من العقاب فى الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا ؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق ؟

ثم تُختَم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [العنكبوت] ألاَ ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموعَ أيضاً ؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات ؟ فلماذا قال ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [العنكبوت] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .

وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع ؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .

ولأهمية القول قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف] فكل فعل ناشيء عن انصياع لقول أو سماع لقول ؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

وكلمة ﴿ جَاهَدَ .. ۝٦ ﴾ [العنكبوت] تناسب النجاح في الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد في إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان في كذا يعني : عمل أقصى ما في وُسْعه من الجدّ والاجتهاد في أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال في النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشيء الذي تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذي يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتي منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة في البحث العلمي والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل . فإنْ تحوّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس في تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل في الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل في حَدّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .

ولو عملنا بهذا الحديث لقضينْا على القنبلة الذرية للاقتصاد في بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله ﷺ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[1] .

وبهذا المنهج الغذائي الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقة وحُزْن .. إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عني وجهك ـ يعني : أنا لا أحبك ـ فيقول : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكي على الحب

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمي نفسه فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس » أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة في سننه (٣٣٤٩) وأحمد في مسنده (٤/١٣٢) والحاكم في مستدركه (٤/٣٣١) .

النساء ، يعني : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرتَ أن تدفع أذاه بالتي هي أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربة ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك في هذه المتاهة ، وأوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وتنتهي المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التي يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربي أراد بي خيراً ، فبها تُكفَّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أنني غفلت عن ربي أو غرَّتني النعمة ، فابتلاني الله ليلفتني إليه ويُذكِّرني به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس في تلقِّي المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل في لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل في افعل . وحين تستقصي (افعل ولا تفعل) في منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك في الحياة ، والباقي مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاص ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

فعليك - إذن - أن تتذكَّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقعك على أي حال . إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادة وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت] يطلب من الإنسان الذي يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة آت ، وذلك أمر لا شكَّ فيه - يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما في الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت في مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غني عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمت لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذي تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذي تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ .. ۝٦﴾ [العنكبوت] أي : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية في آيات عديدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. ۝٧﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ۝٢٨٦﴾ [البقرة]

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حِرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذي يريد لصنعته أن

تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتي قدرة ، ومن علمي علماً ، ومن بَسْطي بَسْطاً ، ومن جبروتي جبروتاً ، وأعطيه من صفاتي .

لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون في وهب الصفات ومجال الصفات في الفعل ليس في أنْ أفعل لك ، إنما في أنْ أعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أي : يُعدِّي إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق - سبحانه وتعالى - فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغناه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطِ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك في كل الأوقات ، افِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغنَى ، والعلماءَ العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالى ألاَّ يُعدِّي أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّي بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطي سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التي تفعل بها لمجرد أن تفكر في الفعل ، بالله ماذا تفعل لكي تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتها أمراً ؟ هل قلت لها افعلي كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ،

وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل فى نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر فى القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت فى الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فصدِّقه ؛ لأنك شاهدتها فى نفسك وفى أعضائك ، فما بالك بربك - عز وجل - أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

لا شيء غير الإرادة فى داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) ، وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترَّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سلبَها منك لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] فتأتى لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك . ذلك لتعلم أنه هبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهى ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخارى أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إننا فى شدة ، ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة ـ فترة الابتلاء ـ لن تطول ، فيقول : « والله لَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئبَ على غنمه »[1] .

والنبى ﷺ وهو خاتم النبيين ، يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدرى فيجد رسول الله ﷺ يشتكى حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذى يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال ﷺ : « يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء »[2] .

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهى ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وبكذا ؟ ويذكرون حيثياتِ هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبوننى ، أى : يحبوننى لذاتى .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شىء إلى الله تعالى ، ولا تزيد فى مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغنى عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذى يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غِناه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٦/٣٩٥) من حديث الخباب بن الأرتّ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٠٢٤) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدىّ فوق اللحاف ، فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾

يذكر لنا - سبحانه وتعالى - النتائج ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [العنكبوت] أى : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم .. إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٧) ﴾ [العنكبوت] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقِى الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزِدْه صلاحاً .

يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾ [البقرة]

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، ألاَ ترى المناطق التى لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذى يشرب

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . [القاموس القويم ٢/٦٣]

منه أهل الصحراء ، فقد نرمي فيه القاذورات التي تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتي مَنْ يبني حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع في حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيِّناً ـ ما دام يؤدي خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هي قيمة العامل الذي يُحسنها وينفع الناس بها ، يعني : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ؛ لذلك يقولون : قيمة كل امرىء مَا يُحسنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُناس غير مسلمين : كان نقيب العمال في فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التي كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفي إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت في يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكنني كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ⑦ ﴾ [العنكبوت] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم

على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمي لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً ؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق ـ عز وجل ـ يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقِعهم في المعصية . وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبة عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة . فيقول سبحانه ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ⑦ ﴾ [العنكبوت]

بل وأكثر من ذلك ، ففي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] فأيُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئةَ حسنةً . فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. ①①④ ﴾ [هود] وفي الحديث الشريف : « .. وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها »[1] .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٨ ، ٢٣٦) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٣٧٦) من حديث معاذ بن جبل ، وتمامه : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

يعملون (٧)﴾ [العنكبوت] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطي الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغنى لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين ميْسرة ، فكما أنك لا ترجع في هبتك ، كذلك ربُك - عز وجل - لا يرجع في هبته .

وأذكر ونحن في أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وبين قول النبي ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر »[1] .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدّق . لكن في القرض مثلاً لو تصدّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى في تكوين المجتمع ، وهي دائرة الأسرة المكوّنة من : الأب ، والأم ، والأولاد ،

---

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوبا على بابها : الصدقة بعشر أمثالها . والقرض بثمانية عشر » رواه الطبراني والبيهقي كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٤) .

فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة في حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر في حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين في حالة برِّهم بهم ، وفي الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم ؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله في مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة - لا لإنجاب طفل - إنما لإنجاب أب لك يعولك في طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبني الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت] ، وفي موضع آخر قال سبحانه في نفس الوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

(١) سبب نزول الآية : قال المفسرون : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة : يا سعد بلغني أنك صبوت . فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ما كنت عليه ، وكان أحب ولدها إليها ، فأبى سعد فصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل بظل حتى خُشي عليها . فأتى سعد النبي ﷺ وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله هذه الآية والتي في لقمان والأحقاف . [أسباب النزول للواحدي ص ١٩٥].

وفَرّق بين المعنيين : ﴿ حُسْنًا .. ⑧ ﴾ [العنكبوت] أى : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْنَ ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْنِ ذاته . أما فى ﴿ إِحْسَانًا .. ⑮ ﴾ [الأحقاف] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان ؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته فى الآية التى تذكر اللدد الإيمانى ، حيث قال : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. ⑧ ﴾ [العنكبوت] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما ؛ لا مجرد الإحسان ؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفي في برِّهما الإحسان إليهما ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ⑮ ﴾ [لقمان]

والحق سبحانه حين يُوصى بالوالدين ، وهما السبب المباشر فى الوجود إنما ليجعلهما وسيلةَ إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلى وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة ؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقى ، أما الوالدان فهما وجود سببى .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى فى قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ㊱ ﴾ [النساء] لأنهما سبب الوجود الجزئى ، والله تعالى سبب الوجود الكلى .

وهذا أيضاً من المواضع التي وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفي موضع آخر : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهذا التعارض لا يوجد إلا في عقول هؤلاء ؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فعْلُ الخير ، فيمن تميل إليه ، أمَّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] يعني : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففي موضع آخر ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان]

فكُفْر الوالدين لا يعني السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك ؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا ؟

وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت في الآية الأخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] وهذه تكون في الآخرة .

قالوا : ذكْر الحيثيات كلها للأم ؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطِّفل ليس لديه الوعي الذي يعرف به فَضْلَ أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذي يقضي له كل ما يحتاج إليه .

إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ ﴾

فقدّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول في الصالحين مسألة كبيرة ، وهي كذلك ، ويكفي أنها مُتَمنّى حتى الأنبياء أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله .. (١٠)﴾ [العنكبوت] قال : كان أناس من المؤمنين آمنوا وهاجروا . فلحقهم أبو سفيان ، فرد بعضهم إلى مكة فعذبهم فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم هذا . [الدر المنثور ٦/٤٥٢] .
القرطبي في [تفسيره ٧/٥٢٦٨] : « وقيل . نزلت في عياش بن أبي ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذي وضُرب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه » .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ⑩ ﴾ [العنكبوت] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② ﴾ [الصف]

ويقول تعالى في صفات المنافقين : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ① ﴾ [المنافقون] فالله تعالى لا يُكذّبهم في أن محمداً رسول الله ، إنما في شهادتهم أنه رسول الله ؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطىء القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [العنكبوت] أي : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [العنكبوت] فتنة الناس أي : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسوَّاه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء في المساواة بين العذابين ؛ لأن عذابَ الناس سينتهي ولو بموت المؤذَى المعذَّب ، أما عذاب الله في الآخرة فباق لا ينتهي ، والناس تُعذِّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطىء .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في عياش بن أبي ربيعة[1] ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

---

(١) قال ابن حجر في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٦١٦٨) : « يلقب ذا الرمحين ، ابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة ، كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة فحبسوه ، وكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت . مات عام ١٥ هـ بالشام في خلافة عمر ، وقيل : استشهد باليمامة ، وقيل : باليرموك » .

السبب ، وكان عياش بن أبي ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التي هي أسماء[1] .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلني سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه[2] ، وظلت على هذه الحال التي وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقِّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكنه رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه في الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث ؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجا من الحرم ، وبعد أن

---

(١) هي : أسماء بنت مخربة . ويقال : بنت عمرو بن مخربة بن جندل ، ذكر البلاذري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى : قدم هشام بن المغيرة نجران فرأى أسماء بنت مخربة فأعجبته فتزوجها وحملها إلى مكة فولدت له أبا جهل والحارث ، ثم مات ، فتزوجها عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة فولدت له عياشا ، فكان أخا أبي جهل والحارث لأمهما . وقال : قال محمد بن سعد : إنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عياش إلى المدينة . ويقال : إنها أسلمت وأدركت خلافة عمر ، وذلك أثبت . (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٨/١٠) .

(٢) أورد الواحدي النيسابوري هذه القصة في (أسباب النزول ص ٩٧) . في سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً .. ﴿٩٢﴾﴾ [النساء] وفيه أن أبا جهل والحارث بن هشام خرجا يطلبان أخاهما لأمهما عياشا ، فأتوه وهو في الأطم (حصن بالمدينة مبني بالحجارة) ، فقالا له : انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك ، وقد حلفت لا تأكل طعاما ولا شرابا حتى ترجع إليها ، ولك الله علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك ، فلما ذكرا له جزع أمه وأوثقا له ، نزل إليهم فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسع وجلده كل واحد منهم مائة جلدة » .

استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث[1] عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ونفذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النساء]

ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرِد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : اجعلوا لنا سهماً في المغنم ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] فالله سبحانه يعلم ما يدور في صدورهم وما يتمنونه لنا ؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعِلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا

(١) تحقيق هذا الأمر : أن عياشاً لم يقتل الحارث أخاه ، بل قتل الحارث بن يزيد بن أنيسة وكان مع أخويه أبي جهل والحارث عندما أوثقاه وضرباه . قال ابن حجر في « الإصابة » في ترجمته (١٥٠٤) : « كان يؤذيهم بمكة وهو كافر ، فلما هاجر الصحابة أسلم الحارث ولم يعلموا بإسلامه وأقبل مهاجراً ، حتى إذا كان بظاهر الحرة لقيه عياش بن أبي ربيعة فظنه على شركه فعلاه بالسيف حتى قتله ، فنزلت هذه الآية » . وانظر أسباب النزول للواحدي (ص ٩٧) ، وابن كثير في تفسيره (١/٥٣٤) .

وكذا : لأنى أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله مـا كان سيحدث منا شيء ؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) ﴾

وهذا لَوْن من ألـوان الإيذاء أن يقـول الذيـن كـفـروا للـذين آمنوا ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. (١٢) ﴾ [العنكبوت] أى : ما نحن علـيه من دين الآباء والأجداد ، ومـا نحن عليه من عـبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعبد آلهة لا تـكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعبدون إلهاً له منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمـعنى : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. (١٢) ﴾ [العنكبوت] خُذوا الحكم منا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. (١٢) ﴾ [العنكبوت] يعنى : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليـكم خطايا سنحملهـا عنكم ، وانظر هنا إلى غبـاء الكافر فقـد آمن هو نفسه أن هذه خطيـئة ، ومع ذلك يتعرَّض لحـملها ، لكن كيف يحملهـا ؟ وكيف يكون هو المسئول عنهـا أمام الله - عز وجل - حين يحاسبنى ربى عليـها ويعـاتبنى على اتباعى له ؟ وهل للكافـر شفاعة أو قوة يدافع بها عنى فى الآخرة ؟

لذلك يقول تعـالى بعدها : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) ﴾ [العنكبوت] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

ويقول التابعون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

فالمودة التي كانت بينهم في الدنيا تحولت إلى عداوة ؛ لأنهم اجتمعوا في الدنيا على الضلال ، فتفرقوا في الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف] فالمتقى ساعة يرى المتقى في الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل ؛ لأنه أخذ على يديه في الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثنى عليه ، وربما اعتبره عدوه في الدنيا . أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيّن في قولهم : ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. (١٢)﴾ [العنكبوت] ، كما هو بيّن في قولهم ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وكما هو بيّن في قولهم : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧)﴾ [المنافقون] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى في المواجهة .

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾

وفي موضع آخر : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل] . فالأثقال هي الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم

للغير[1] ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]
والافتراء : تعمُّد الكذب .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات في عمومها ، أراد أنْ يتكلَّم عنها في خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ[2]
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) ﴾

يقول العلماء : إن نوحاً - عليه السلام - هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعملون به ، فيكونون نموذجاً إيمانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم ، أما إنِ اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفرِّق بين النبي والرسول ، بأن النبي أُوحِيَ إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه ، أما الرسول فقد أُوحِيَ إليه بشرع وأُمر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية رضي الله عنه قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يسلمون ، يقولون : إنه يحرم الخمر ، ويحرم الزنا ، ويحرم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت] [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٥٤] .

(٢) أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الدنيا » (ص ٨٨ مكتبة القرآن) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليه السلام ، فقال : يا أطول النبيين عمراً ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان ، فوقف وسط الباب هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » (٦/٤٥٦) .

إذن : فالنبى أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .

لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات ؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثي عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .

والحق سبحانه يأتي بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح - عليه السلام - مع أن له سورة مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة في الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتي لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) في مسألة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعني أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته في الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .

لذلك كان رسول الله ﷺ حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه .

فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به ؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به[1] . لماذا ؟ لأنه يعرف له سوابق يبني عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .

---

(١) أورد البيهقي في دلائل النبوة (٢/١٦٤) أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ما عتَّم منه حين ذكرته وما تردد فيه » وعزاه لابن إسحاق .

إذن : ففي كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق ؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم ملَك ؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

ولو فُرِض أننا أرسلناه ملَكاً أهم يروْن الملائكة ؟ لا يروْنها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملَك الناس ؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم في صورة بشر ، ولو أتاهم في صورة بشر لقالوا نريد ملكاً .

وقوله عز وجل : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] هذا العدد من الممكن أن يؤدي لمعانٍ كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً[1] . وفي الأعداد في القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢)﴾ [الأعراف]

وفي آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (٥١)﴾ [البقرة]

ففي سورة البقرة إجمال ، وفي آية الأعراف تفصيل . والحكمة في هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل في مدة الثلاثين ليلة .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٢٢) : فإن قيل : فلم قال ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] ولم يقل : تسعمائة وخمسين عاماً ، ففيه جوابان :
أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ ، وأكثر في العدد .
الثاني : ما رُوي أنه أُعطي من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر أُخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأتِ بالاستثناء في قوله : ﴿إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب في عَدِّ البشر ، أما في حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعنى : منتهى ما في استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلتَ : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام ؟ نقول : هي لتسلية رسول الله ﷺ ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوا أصحابه ، وضيَّقوا الخناق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنةً من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعنى مدة المشقة التي تحملتها ما زالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ .. (١٤)﴾ [العنكبوت] ثم استثنى منها ﴿إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ، ليدلَّك على أن السنة تعنى أيَّ عام ، ويُرفَع الخلاف ؛ لأن البعض يقول : إن السنة هي التي تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة ، في حين أن السنة ليس من الضروري أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة ، إنما تبدأ في أي وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أي : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربي ؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التي هي اثنا عشر شهراً قمرياً ونزيد أحد عشر يوماً في السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعلِّمنا أن السنة هي العام ، لا فرْق بينهما ، ولا داعيَ للجاج في هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذَّبوا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾ [العنكبوت] فالعلة في أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهي القصة أو اللقطة في آية واحدة الغرض منها تسلية النبي ﷺ ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة ﴿ فَأَخَذَهُمُ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] الأخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكنْ بعنف أو بغير عنف ؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شيء حي يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات في الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى - عليه السلام - ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه

الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التى لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها ؛ لذلك يقول أحمد شوقى فى قصيدة النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفقُ   وبأىِّ كفٍّ فى المدائنِ تُغْدِقُ
ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على   الجِنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبُه فَيُصبح عَسْجَداً[1]   والأرضُ تُغرقُها فيحيَا المغْرَقُ

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح ـ عليه السلام ـ الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ بالسفينة التى قال الله عنها فى سورة هود : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١)﴾ [هود]

وقد أمره الله بصناعة السفينة : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾ [هود] فكان نوح ـ عليه السلام ـ على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها فى نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه .

لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم ؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨)﴾ [هود] فكان يردُّ عليهم فى نفسه : ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

---

(١) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ لكي تجول في كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها . وفي قصة نوح مسائل كثيرة تستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ولادة الأنبياء ولادة قيم ومنهج ، وولادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .

فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود] فيعطيه الله الحكم في هذه المسألة ، ويُصحح له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبي من أنبيائه ، إنما هي كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشي أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره ؛ لذلك يقول تعالى عنها في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم]

ويُبيِّن الحق سبحانه العلة في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود] بقوله ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود] حتى لا تذهب بنا الظنون في زوجة نبي الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح . وبنوة الأنبياء بُنوّة عمل . لا بُنوّة نَسَب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ[1] ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

أي : فأنجينا نوحاً عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخِروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها في الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .

ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لمَنْ لا يجد ذلك الشيء ، سواء كان علْماً أو مالاً أو قدرة .. إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] فهي حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] وقد ورد هذا الحق في المال مرتين في القرآن الكريم ، مرة ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] ، ومرة أخرى ﴿ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .

وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة في مقام

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٢٢٣/٧) : « الهاء والألف في « جعلناها » للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ، ثلاثة أقوال » .

الإيمان ، وغير المعلوم هى الصدقة ؛ لأنها لا تخضع لمقدار معين ، بل هى حَسْبَ أريحية المؤمن وحُبه للطاعات ، ودخوله فى مقام الإحسان الذى قال الله فيه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

وهذه الزيادة فى العبادات دليل على عشق التكليف وحُبِّ الطاعة والثقة بأن الله تعالى ما كلَّفنا إلا بأقلّ مما يستحق سبحانه من العبادة ؛ لذلك يقول العلماء : إياك أنْ تنتقل إلى هذا المقام وتُلزم به نفسك ، أو تجعله نَذْراً ؛ لأنك إنْ فعلتَ صار فى حقك فرضاً لا تستطيع أنْ تُنقص منه .

إنما اجعله لنشاطك ومقدرتك ؛ لأنك إنْ تعوّدت على منهج وألزمت نفسك به ثم تراجعت ، فكأنك تقول كلمة لا ينبغى أنْ تُقال ، فكأنك - والعياذ بالله - جربت وُدّك لله فلم تجده - والعياذ بالله - أهلَ وُدٍّ فتركته .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥) ﴾ [العنكبوت] يدلنا على أنها صُنعَتْ بأمر الله من أجلهم ، وبفراغ نوح من صناعتها كانت حقاً لهم ، لا ملْكاً له عليه السلام .

لكن كيف نفهم ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥) ﴾ [العنكبوت] وقد حمل فيها نوح - عليه السلام - من كُلٍّ زوجين اثنين ؟ قالوا : الزوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة ؛ لأنهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] أى : أمراً

عجيباً لم يسبق له مثيل في حياة الناس ، فقد صنعها نوح ـ عليه السلام ـ بوحي من ربه على غير مثال سابق ، فوجه كَوْنها آية أن الله تعالى أعلمه وعلَّمه صناعتها ؛ لأن لها مهمة إيمانية عنده ، فيها نجاة المؤمنين وغَرق الكافرين ، وهذه الآية ﴿لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت] جميعاً .

ثم يذكر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ، فيقول :

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)﴾

الواو هنا لعطف الجمل ، فالآية ـ معطوفة على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] إذن : فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل أرسلنا[1] ، وللسائل أنْ يسأل : لماذا لم تُنوَّن إبراهيم كما نُوِّنت نوح ؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم ؛ لأنها اسم ممنوع من الصرف ـ أي من التنوين ـ لأنه اسم أعجمي .

ونلحظ في هذه المسألة أن جميع أسماء الأنبياء أسماء أعجمية تُمنع من الصرف ، ما عدا الأسماء التي تبدأ بهذه الحروف (صنن شمله) وهي على الترتيب : صالح ، نوح ، شعيب ، محمد ، لوط ، هود . فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والمعنى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] يعني : واذكر إبراهيم

---

(١) سبب نصب كلمة إبراهيم في الآية له ثلاثة أقوال ذكرها القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٢٢٤):
– قال الكسائي . منصوب بـ « أنجينا » يعني أنه معطوف على الهاء
– وأجاز الكسائي أن يكون معطوفة على نوح ، والمعنى : وأرسلنا إبراهيم .
– وقول ثالث : أن يكون منصوبا بمعنى : واذكر إبراهيم .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] وقلنا : العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ في أوامره ونواهيه ، إذن : لو جاء مَنْ يدَّعي الألوهية . وليس له أمر نؤديه ، أو نهي نمتنع عنه فلا يصلح إلهاً .

لذلك كذب الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليست لها أوامر ولا نواه ، فألوهيتهم (متظرية) بلا تكليف ، فأول الأدلة على بطلان عبادة هذه الآلهة المدَّعاة أنها آلهة بلا منهج .

ثم عطف الأمر ﴿ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] على ﴿ اعْبُدُوا .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] والتقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر ، وتجتنب النواهي ، فهي مرادفة للعبادة ، لكن إنْ عطفت على العبادة فتعني : نفِّذوا الأمر لتتقوا غضب الله ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية .

وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال : كالقهار ، الجبار ، المنتقم ، المذلّ .. إلخ . وصفات جمال : كالغفار ، الرحمن ، الرحيم ، التواب ، وبالتقوى تنال متعلقات صفات الجمال ، وتمنع نفسك وتحميها من متعلقات صفات الجلال .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) ﴾ [العنكبوت] ذلكم : أي ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتقوى خير لكم ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلا خيرَ في علمكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

فالعلم الحقيقي هو العلم بقضايا الآخرة ، العلم بالأحكام وبالمنهج الذي يعطيك الخير الحقيقي طويل الأمد على خلاف علم الدنيا فإنْ نلتَ منه خيراً ، فهو خير موقوت بعمرك فيها .

وسبق أنْ قلْنا : إن العلم هو إدراك قضية كونية تستطيع أن تدلل عليها ، وهذا يشمل كل معلومة في الحياة ، أي : العلم المادي التجريبي وآثار هذا العلم في الدنيا ، أما العلم السامي الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله لك ، وهذا للآخرة .

واقرأ في ذلك مثلاً قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه علم النبات والجماد و ﴿وَمِنَ النَّاسِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أي : علم الإنسانيات ﴿وَالدَّوَابِّ .. (٢٨)﴾ [فاطر] علم الحيوان ، وهكذا جمع كل الأنواع والأجناس ، ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر] مع أنه سبحانه لم يذكر هنا أيَّ حكم شرعي .

إذن : المراد هنا العلماء الذين يستنبطون قضية يقينية في الوجود ، كهذه الاكتشافات التي تخدم حركة الحياة ، وتدلُّ الناس على قدرة الله ، وبديع صُنْعه تعالى ، وتُذكِّرهم به سبحانه .

وتأمل في نفسك مثلاً وَضْع القصبة الهوائية بجوار البلعوم ، وكيف أنك لو شرقت بنصف حبة أرز لا تستريح إلا بإخراجها ،

---

(١) الجُدّة من الجبل : القطعة منه ، والجدّة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)﴾ [فاطر] أي : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

وتأمل وَضْع اللهاة وكيف تعمل تلقائيا دون قَصْد منك أو تحكم فيها .

تأمل الأهداب فى القصبة الهوائية ، وكيف أنها تتحرك لأعلى تُخرج ما يدخل من الطعام لو اختلَّ توازن اللهاة ، فلم تُحكِم سدَّ القصبة الهوائية أثناءَ البلع .

تأمل حين تكون جالساً مطمئناً لا يقلقك شيء ، ثم فى لحظة تجد نفسك محتاجاً لدورة المياه ، ماذا حدث ؟ ذلك لأن فى مجرى الأمعاء ما يشبه (السقاطة) التى تُخرج الفضلات بقدر ، فإذا زادتْ عما يمكن لك تحمله ، فلا بُدَّ من قضاء الحاجة والتخلص من هذه الفضلات الزائدة .

تأمل الأنف وما فيه من شعيرات فى مدخل الهواء ومُخَاط بالداخل ، وأنها جُعلت هكذا لحكمة ، فالشعيرات تحجز ما يعلَق بالهواء من الغبار ، ثم يلتقط المخاطُ الغبارَ الدقيق الذى لا يعلق بالشعيرات ليدخل الهواء الرئتين نقياً صافياً ، تأمل الأذن من الخارج وما فيها من تعاريج مختلفة الاتجاهات ، لتصدَّ الهواء ، وتمنعه من مواجهة فتحة الأذن .

والآيات فى جسم الإنسان كثيرة وفوق الحَصْر ، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلا باستنباط العلماء لها ، وكشفهم عنها ، وهذا من نشاطات الذهن البشرى ، أما العلم الذى يخرج عن نطاق الذِّهْن البشرى فهو نازل من أعلى ، وهو قانون الصيانة الذى جعله الخالق سبحانه لحماية الخَلْق ، فالذى يأخذ بالعلم الدنيوى التجريبى فقط يُحرَم من الخير الباقى ؛ لأن قصارى ما يعطيك علم المادة فى البشر أنْ يُرفه حياتك المادية ، أمّا علم الآخرة فيُرفِّه حياتك الدنيا ويبقى لك فى الآخرة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ⟨١٦⟩﴾ [العنكبوت] أي : قانون الصيانة الرباني بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) في (لا تفعل) أو مدلول (لا تفعل) في (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القانون (بالكتالوج) الذي يجعله الصانع لحماية الصنعة المادية لتؤدي مهمتها على أكمل وجه ، كذلك منهج الله بالنسبة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ⟨٢٠⟩﴾[الشورى]

إذن : فالخير الباقي هو الخير في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ
إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ
رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⟨١٧⟩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ .. ⟨١٧⟩﴾ [العنكبوت] أي : على حدِّ زعمهم ، وعلى حدِّ قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ⟨٣⟩﴾ [الزمر] ، وإلا فلا عبادة لهذه الآلهة ، حيث لا أمر عندهم ولا نهي ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ⟨٣⟩﴾ [الزمر] فهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : ما نُصب للتقديس من حجر ، أياً كان نوعه : حجر جيرى ، أو جرانيت ، أو مرمر ، أو كان من معدن : ذهب أو فضة أو نحاس .. إلخ أو من خشب ، وقد كان البعض منهم يصنعه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضى الله عنه .

وبأىِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل وتستحسن منه حجراً فتنحته على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهاً تعبده من دون الله ، وهو صنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه ، فأىُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل ؟

لذلك يخاطبهم القرآن : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) ﴾ [الصافات] وكلما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة ؛ لأنها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأية حال .

ومعنى ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] أى : توجدون ، والإيجاد يكون من عدم ، فهم يُوجدون من عدم ، لكن أيُوجدون صدْقاً ؟ أم يُوجدون كذباً ؟ إنهم يُوجِدون ﴿ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] والإفك تعمد الكذب الذى يقلب الحقائق ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] أى : القرى التى كفاها الله على نفسها .

وسبق أن أوضحنا أن الحقيقة هى القضية الصادقة التى توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : محمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخصاً اسمه محمد وله صفة الكرم ، فإن اختلف الواقع فلم يوجد محمد أو وُجِد ولم تتوفر له صفة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنها مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق ؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراثَ من الحديد .. إلخ فأوجدتَ معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً لا يكبر ، حتى يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خِلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر .. إلخ ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] في موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هي استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذي نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتي مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول في المثل (اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي) إنما أُطعمك وتسمع لغيري ؟!!

والرزق هو الشُّغل الشاغل عند الناس ، ففى أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب فى التخزين للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخر للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التى تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقى دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها فى حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانه وعنوانه ، فإنْ قُسِم لك الرزق جاءك يطرق عليك الباب ، وإنْ حُرمت منه أعياك طلبه .

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذى كان يأتيها بشكل دورىّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم ؟ هذا الدم هو رزق الجنين فى بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدَّ من التخلص منه ؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقى لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هى ، بل رزق ولدها فى أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رِزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رِزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلِب منك ، واشغل نفسك بمراد الله فيك ؛ لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلاً في مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبي ﷺ يقول : « إذا بليتم فاستتروا »(١) ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم ، وقعدوا في بيوتهم لَساقَ الله إليهم أرزاقهم إلى أبوابهم .

إذن : الرزق مضمون من الله ؛ لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ..﴾ (١٧) [العنكبوت] ثم يقول سبحانه ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧) [العنكبوت] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

وكان يكفي أن نعمه عليكم مُقدَّمة على تكليفه لكم ، لقد تركك تربع في نعمه دون أنْ يُكلِّفك شيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سنَّ الرشد ، وهي سنُّ النُّضْج والبلوغ والقدرة على إنجاب مثلك ، ثم بعد ذلك تقابل

(١) تمام هذا الحديث : « إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا » أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/٨٧) (حديث ٢١١) وقال : رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر . والحديث الأوْلى بالاستشهاد هنا هو ما أخرجه الحاكم في مستدركه (١/٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى - إذا ابتليت عبدي المؤمن ولم يشكُني إلى عواده أطلقته من إساري ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » . وصححه الحاكم على شرط الشيخين . وأقره الذهبي . والله تعالى أعلى وأعلم

تكليفه لك بالجحود ؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نِعَم الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحِرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التي تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] يعني : مملوك لشركاء مختلفين ، وليتهم متفقون ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] أي : ملك لسيد واحد ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر] فكذلك الموحِّد لله ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] فاللص الذي يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولساقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعني هذا أنْ تُفلتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آتٍ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] أى : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا ؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، فى حين أن الكون كله لا اختيارَ له ؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه .

كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فالكون كله مسخر يؤدى مهمته ، كما يقول سبحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى .

فالمعنى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] فلستم بدعاً فى التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هى المسألة التى ينبغى عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقول : كيف يقول القرآن فى خطاب قوم إبراهيم ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. (١٨)﴾ [العنكبوت] مع أنه لم يسبقهم إلا أمة واحدة هى أمة نوح عليه السلام ؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هى أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعاً فى أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مدة بقاء نوح فى قومه طالت حتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل - كما قالوا - مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)﴾ [العنكبوت] فمهمته مجرد البلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، الرسول لن نعطيه مكافأة أو عمولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى - خاصة وقد كانوا كارهين له - فالمعنى : علىَّ البلاغ فحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جزائى وأجرى من ربى ، فأنتم لا تكيدوننى بكفركم ، بل تكيدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمد ﷺ يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد من أمته فكفر ، حتى خاطبه ربه : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢)﴾ [البقرة]

وخاطبه بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وحين نزل عليه ﷺ : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى] انتهز النبى هذه الفرصة ودعا ربه : إذن

لا أرضى وواحد من أمتى فى النار[1] ؛ ذلك لأنه ﷺ مُحِبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين ، أى : واضح ظاهر ؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التى تؤيد البلاغ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد ﷺ : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم ؟ لو استعملتم عقولكم فى تأمل الكون الذى تعيشون فيه ، والذى طرأتم عليه ، وقد أُعِدَّ لكم بكل مُقوِّمات حياتكم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ .. (١٩) ﴾ [العنكبوت] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن عباس أيضا أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم . انظر الدر المنثور للسيوطى (٨/٤٤٢) .

(٢) العنت : المشقة . أى : أحبوا وتمنوا دوام عنتكم ودوام المشقات عليكم . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

تعالى لرسوله ﷺ أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبى بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

والهمزة فى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا .. (١٩)﴾ [العنكبوت] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم تَرَ إلى فلان الذى أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذى أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسن إليك بكذا وكذا ، فيُقِر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ فى الاعتراف .

فساعة يأتى بعد الهمزة نَفْى يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما يقابله ، والنفى بعد الإنكار نفى للنفى ، ونفى النفى إثبات .

فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل ؟ أيكذبون ولم يَرَوْا آيات الله ، وقدرته شائعة فى الوجود كله ؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

لكن ، كيف يُقرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله ؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْن أُعِدَّ بهذه الدقة وبهذه

العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه ؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] : لأن هذه الشهادة هي التي ستجعله يقول للشيء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت] كيف ونحن لم نَرَ الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء ؟

قالوا : نرى البدء والإعادة في مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها في الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيي الأرض بالنبات ، ثم يأتي وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التي تعيد الدورة من جديد . والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها في الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .

انظر مثلاً إلى دورة الماء في الكون : هل زادتْ كمية الماء التي خلقها الله في الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء ؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة في عدد السكان ؛ لأن عناصر الكون هي هي منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٌّ منذ بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور في دورة طبيعية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت] أيهما : الخَلْق أم الإعادة ؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون في عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال في حقِّه : هذا هيِّن ، وهذا أهون ؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً ﷺ :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير في الأرض أم على الأرض ؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] أي : نسير فيها ؛ لأن الغلاف الجوى المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير في الأرض فهي تحتك ، وغلافها الجوى فوقك ، فكأنك بداخلها .

والعلة في السير ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

وفي آية أخرى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك في بلادك . فقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت] أي : نظر اعتبار وتأمل .

أما في ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] فثم تفيد العطف والتراخي ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا في الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال في السورة السابقة (القصص) : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾﴾ [القصص] والمراد بذلك الهجرة ، وفي هذه السورة تأتي : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت]

والمعنى : إن ضاق رزقك في مكان فاطلبه في مكان آخر ، أو : إنْ لم تكنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة في الاعتبار والتأمل فسرْ في الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعبَر في اختلاف الأجناس والبيئات والثمار والأجواء .. إلخ .

لذلك يقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [النساء]

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هي السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي إنْ زُرعت سدَّتْ حاجة العالم العربي كله ، أنستطيع

الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق - عز وجل - وعُدْنا إلى منهجه الذى وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام[1] ، ويوم تحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك ؛ لذلك أكثر الشكوى فى عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحدث التكامل الذى أراده الله فى كونه ؟

إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق] فيشكُّوا فى الخَلْق الآخر ؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب ؟ فى حين قدَّم المغفرة

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

في آية أخرى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٨) ﴾ [المائدة]

قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذِّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [العنكبوت] فإنْ قُلْت : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب ؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .

وقد صَحَّ في الحديث القدسي : « رحمتي سبقت غضبي »[1] ففي الوقت الذي يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾ [العنكبوت] أي : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عَنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها ؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها .

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذي يُعجِز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعني : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ،

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي . أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

ولن تتـأبَّوْا عليـه ، حيـن يريدكم للوقـوف بين يديـه ، بل تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : لن تعجزوني حين أطلبكم ؛ لأن نفيَ الفعل غير نفي الوصف ، فحين تقول مثلاً : أنت لا تخيط لي ثوباً ، فهذا يعني أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم يَنْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم ، فالهرب والإفلات من لقاء الله في الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنما نفى عنهم الوصف من أساسه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢)﴾ [العنكبوت] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غير معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يُعجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم ، أو يدافع عنهم . فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شيء .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥)﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

فنفى عنهم الولي ، ونفى عنهم النصير ؛ لأن هناك فَرْقاً بينهما : الوليّ هو الذي يقرب منك بمودة وحُبٍّ ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى وبالسياسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته ، أمّا النصير فهو الذي ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولى والنصير . لكن ذكر ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت] يعنى : من الممكن أن يكون لهم ولىٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولى الحق والنصير الحق فليؤمنوا بى ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت] ولم يقل من دون الله : لأن الموقف فى الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع . فقوله ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت] لا تكون إلا فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشىء وكفر بى ، فليس له مَنْ يحميه منى ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التى عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين : لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونية التي تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق ـ عز وجل ـ كالليل والنهار والشمس والقمر . أو آيات المعجزات التي تصاحب الرسل ؛ ليؤيدهم الله بها ويُظهر صدْقهم في البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقد كفر هؤلاء بكل هذه الآيات . فلم يُصدِّقوا منها شيئاً ، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله في الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبيَّن لهم بطلان عبادة آلهتهم ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، كان عليهم أن يجادلوه ، وأن يدافعوا عن آلهتهم ، وأن يُظهروا حجتهم في عبادتهم .

إنما يأتي جوابهم دالاً على إفلاسهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجرد هروب من المواجهة ، وإفلاس في الحجة ، إنه جواب مَنْ لم يجد جواباً ، وليس لديه إلا التهديد والتلويح بالقوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً ؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو في صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : ﴿اقْتُلُوهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل في التراب ، إذن : فهما سواء في أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي تضيء ، فالكهرباء لا توجد في اللمبة ، إنما في شيء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء في اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة لاستقبال التيار ، فإنْ كسرتها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضيء ، وقد تمتنع عنها الكهرباء وهي سليمة .

ثم قالوا ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً في العقوبة ؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمَّا التحريق فلا يعني بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقط اقتلوه وتنتهي المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه ؟

إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا ﴿اقْتُلُوهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] ثم تراءى لهم رأى آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا

يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجولة لصالحهم .

لكن مَن الذى قال ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَن المأمور ؟ لقد اتفقوا جميعاً على قتله . فالآمر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالقوم جميعاً تواطئوا على هذه المسألة . أو أن الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الذين يأتمر الناس بأمرهم ، أما التنفيذ فمهمة الأتباع .

ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنوه ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهنا يعترض الفلاسفة : كيف والنار من طبيعتها الإحراق ؟ كيف يتخلف هذا القانون ؟ لكن كيف تكون معجزة إنْ لم تأتِ على هذه الصورة ؟

إن الحق سبحانه خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدى مهمتها تلقائياً ، فالأرض مثلاً حينما تحرثها ، وتلقى فيها الحَبَّ ، ثم ترويها ، الناموس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .

لذلك إن لم يكُنْ لك رزق فى حرثك هذا ، فلا ينبت النبات ، أو ينبت ثم تصيبه آفة أو إعصار فيُهلكه قبل استوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .

وقد خرق الله نواميس الكون لموسى - عليه السلام - حينما ضرب البحر ، فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء

إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار :
﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل في الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل . ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾ [العنكبوت]
ونذكر في قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] آية وهنا قال ﴿ لَآيَاتٍ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهناك قال ﴿ لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [العنكبوت] وهنا قال : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالاختلاف إذن بين السياقين في أمرين :

قال في السفينة ﴿ آيَةً .. (١٥) ﴾ [العنكبوت] لأن العجيب في أمر السفينة ليس في صناعتها ، فمَنْ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمَّا في مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكان من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه . وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه في النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفيء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء في النار .

لكن لم يحدث شيء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه في

النار وهي مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصِبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن السفينة حينما رستْ ونجا ركابها ظلَّتْ السفينة باقية في مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشاهد .

أمّا في مسألة إبراهيم - عليه السلام - فقال ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن نجاة إبراهيم - عليه السلام - كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهي آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التي رأيتموها حين نجاني ربي من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر ؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون

بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٥)﴾ [العنكبوت] يعني : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة ؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وفي آية أخرى ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤)﴾ [المائدة]

لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفي الآخرة ستنقطع بينكم هذه المودات : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٦٧)﴾ [الزخرف] يعني : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت]

وقال : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ذلك لأن المقدمات التي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .

وفي الوقت الذي تنقلب فيه مودة الكافرين عداوةً تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن

لأخيه الذي جرَّه إلى الطاعة وحمله عليها - على كُرْه منه وضيق - جزاك الله خيراً لقد أنقذتني .

ولا ينتهي الأمر عند هذه العقوبة التي يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ [العنكبوت] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله ؛ لأن الكلام في الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولي أو نصير من الله .

كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .

وهكذا تنتهي هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكي قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفي أن الله تعالى قال عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾

أي : أن قوم إبراهيم - عليه السلام - ظلوا على كفرهم ، والذي آمن به لوط - عليه السلام - وكان ابن أخيه ، وكانوا في العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .

وكلمة ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] حين نتتبع كلمة آمن في

(١) الأمة : الرجل الجامع للخير ، والأمة : الرجل المتفرد بدينه لا يشركه فيه أحد . [لسان العرب - مادة : أمم] .

القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف فى المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابى ، فهنا ﴿فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] وهل يؤمن لوط لإبراهيم ؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق ﴿فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] فلا بُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما فى قوله تعالى عن قريش : ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذى آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف] ومعنى ﴿فَآمَنَ لَهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] أى : صدقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف] أى : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا ؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى ـ رحمة الله عليه ـ وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطى[1] ، وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضى عليها ؟

---

(١) جاء فى : [لسان العرب ـ مادة : لَوَط] ، لاط الرجل لواطاً ولاوط أى : عمل عمل قوم لوط . وقال الليث : لوط كان نبياً بعثه الله إلى قومه فكذبوه وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلاً لمن فَعَل فِعْل قومه .

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن ؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلى ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزى ، ولبختنصر قالوا : بختى ، والآن نقول فى النسب إلى دار العلوم دَرْعمى .. إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة ؟ فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قوْطى) ونُجنِّب نبى الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته فى تكريمه : (لك فى العلم مبدأ طَحْسَنى) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] جاءت جملة اعتراضية فى قصة إبراهيم عليه السلام : لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم فى قومه ؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : منصرف عن هذا المكان ؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شىء إلى شىء آخر ، لكن هَجَرَ تعنى أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبى ﷺ لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

وهذا يعنى أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل فى الهجرة ، وهم طرف ثانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبى :

إذَا ترحَّلْتَ عَنْ قوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة أنْ يسمي نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثي ، ولا يقول مهاجرة ؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذي تركه ، لكن هنا قال في الفعل : هاجر . وفي الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار إيمان ، لأن رسول الله ﷺ حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : « لأن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد »[1].

وكأنه ﷺ بُسطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة ؛ لأنه قد تَبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرةً إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربي هي المقصودة ، وإلا فلَكَ أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك في كل مكان هنا وهناك ؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربي ومتوجه وجهة هو آمر بها ؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة في الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع ؛ لأنه

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان ﷺ في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل ، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٠١/٢) وأورده ابن هشام في السيرة بنحوه (٣٢١/١) .

حقق رغبة فى نفسك ، فأنت - إذن - لا تذهب لأمر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء فى الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

فالمعنى ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] يعنى : ليس الانتقال على رغبتى وحَسْب هواى ، إنما حسب الوجهة التى يُوجِّهنى إليها ربى . وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع فى تاريخنا ، وكنا جماعة من سبعين رجلاً ، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا ، فأصدر قراراً بنقلنا جميعاً وشتَّتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه علَّه يرجع فى قراره ، لكنه صمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمرى على المرؤوسين ؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله .

وكانت هذه هى كلمة الحق التى هزَّتْ الرجل ، وأعادت إليه صوابه ، فالحق له صَوْلة ، وفعلاً سارت الأمور كما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أن ربى هو الذى يُوجِّهنى ، وهو سبحانه فى كل مكان . يؤيد ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى ما وجَّهتكم فى صلاتكم إلى الكعبة إلا لأؤكد هذا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب . وأوله « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

المعنى : لأنك تتجه إليها من أي مكان كنت ، ومن أية جهة فحيثما توجهتَ فهي قبلتُك .

ثم يقول : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)﴾ [العنكبوت] اختار الخليل إبراهيم - عليه السلام - من صفات ربه ﴿الْعَزِيزُ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] أي : الذي لا يُغلب وهو يَغْلب . وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه ، وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حصن مَنْ لا يُغْلب .

و ﴿الْحَكِيمُ (٢٦)﴾ [العنكبوت] أي : في تصرفاته ، فلا بُدَّ أنه سبحانه سينقلني إلى مكان يناسب دعوتي ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه . وتنتظر كلمة الحق التي أعرضتم أنتم عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾

وجاء وقت الجزاء لينال إبراهيم - عليه السلام - من ربه جزاء صبره على الابتلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبريل لما جاءه يعرض عليه المساعدة وهو في طريقه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا[1] . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق

(١) أخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى في النار قال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٤١] .

له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً في القوم ، بدليل قولهم عنه لما حطَّم أصنامهم : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه وقال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأُجرينَّ ذكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام في التشهد في كل صلاة .

واقرأ قول إبراهيم في دعائه لربه ؛ ليؤكد هذا المعنى : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء] وكأنه يقول : يا رب إن قومي يستقلونني ، فاجعل لي ذكْراً عندك .

ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهي الأَمَة وتتميز عليها[2] ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذ مائة ؟

قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب في هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ، وأجعلك تُنجب هبة من عندي ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/١٢٤] . وقال ابن سيده : القانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . وقال ابن منظور : القنوت الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) ذكرت التوراة هذا : « رأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق . فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدْعى لك نسل . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » [سفر التكوين ٢١ : ٩ ـ ١٣] .

إسْحَاقَ .. ﴿٢٧﴾ [العنكبوت] ثم ﴿وَيَعْقُوبَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى قال : ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء]

أى : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت فى الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب .

وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت] لذلك حين تستقرىء موكب الأنبياء تجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته[1] .

والذرية المذكورة هنا يُراد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهَبان من سارة ، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعى الذى يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - فى هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد ﷺ ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٢٩) : « فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، ووحد الكتاب ، لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل والفرقان ، فهو عبارة عن الجمع ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والفرقان على محمد من ولده ﷺ » .

فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين فى الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْكِتَابَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : الكتب التى نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهى : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قالوا : إنه كان خامل الذِّكْر فنبغ شأنه وعلا ذِكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه فى السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً .. إلخ وهذا أجره فى الدنيا فقط[1] .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : لن نقول له أذهبتَ طيباتك فى حياتك الدنيا ، بل هو فى الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره فى الدنيا لم يُنقص من أجره فى الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيه إبراهيم فى الآخرة بأنه من الصالحين ؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثِر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١١) ما يقرب من هذا دون تفصيل ، فقال : « كان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه » . أما القرطبى فقال فى تفسيره (٧/٥٢٢٩) : « يعنى : اجتماع أهل الملل عليه ، قاله عكرمة » . وقال ابن عباس : « إن الله رضّى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون به » وفى قول آخر عنه « الولد الصالح والثناء » . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٩) .

لما سأله عن سارة قال : أختي ، والثانية لما قال لقومه حينما دعوه للخروج معهم لعيدهم : إني سقيم[1] . والثالثة قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] أي : عندما حطَّم الأصنام .

ويقول هؤلاء المتصيدون : إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء ، لكن ما قولكم إنْ كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح في الآخرة ؟

ثم إن المتأمل في هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التي قال عنها النبي ﷺ : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب »[2] فقوله عن سارة : إنها أختي ، هي فعلاً أخته في الإيمان ، وربما لو قال زوجتي لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغي للمؤمن حضوره ، كما أن السُّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله ؛ ليقررهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : أرسل إليه ملكهم فقال : إن غدا عيدنا فاخرج . قال فنظر إلى نجم ، فقال : إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي فتولوا عنه مدبرين . [الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٧/١٠٠] .

(٢) أخرجه ابن عدي في « الكامل في ضعفاء الرجال » (٣/٩٦) من حديث عمران بن حصين ، وفيه داود بن الزبرقان .قال البخاري : مقارب الحديث . وقال النسائي : ليس بثقة ، قال ابن عدي : هو في جملة الضعفاء الذين يُكتب حديثهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن في الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً . كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل في الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت] وسمى خسيسة قومه فاحشة : لذلك قال العلماء في عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النساء] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فِعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

لا يعنى هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعلت فهى فردية ، ليست وباءً منتشراً كما فى هؤلاء .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله فى الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأنثى الحيوان المنوى الذكرى الذى تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق فى جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط فى إتيان المرأة أن يكون فى مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣)﴾ [البقرة]

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم فى فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣)﴾ [البقرة] أى : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتى من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أىّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون فى مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتعة تفوق أيَّ لذة أخرى في الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب فتسعد به أذنك .. إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأيِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية ؟ وأيّ ملكة فيك تُسَرُّ منها ؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها ؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التي يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه ؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق - عز وجل - ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها في تربية الأولاد .

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : « جَدَع الحلال أنفَ الغيرة » فالرجل يغار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين ؟ في الأولى كان دمه يغلي ، والآن تنزل كلمات الله في عقد القرآن على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] فهي انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة في غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] أي : تقطعون الطريق على بقاء النوع ؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له

البقاء الكريم الشريف فى المجتمع . فالحق سبحانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .

والسبيل كلمة مطلقة وتعنى الطريق ، سواء كان الطريق المادى أى : الشارع الذى نمشى فيه أو : المعنوى وهو الطريقة التى نسير عليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف] أى : طريقى ومنهجى ؛ لذلك السبيل القيمى سبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم فى حركة الحياة المعنوية . أمّا السبيل المادى فمتعدد حتى لا نتزاحم فى حركة الحياة المادية .

والسبيل المادى (الطريق) الذى نسير فيه يُعَدُّ سمة الحضارة فى أى أمة ، ونذكر أن هتلر قبل أن يدخل الحرب سنة ١٩٣٩ جعل كل همّه فى إنشاء شبكة من الطرق ؛ لأن حركة الحرب غير العادية تحتاج إلى طرق إضافية أيام الحرب ، ومن ذلك مثلاً الطريق الذى يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احتاجت إلى طرق إضافية . وهذه الطرق تتناسب والمكان الذى تنشأ فيه ، فالطرق فى المدن نُسميِّها شوارع وفى الخلاء نسميها طرقاً تناسب المساحة داخل المبانى ، ومنها تتفرع الحارات ، وهى أقل منها ، ومن الحارة تتفرع العَطْفة ، وهى أقل من الحارة ، وكلما ازدحمتْ البلاد لجأ الناس إلى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .

كما نرى فى القاهرة مثلاً من أنفاق وكَبَارٍ ، حتى لا تُعاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجمال فى المدن ، والكبارى أجمل فى الفضاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكبارى آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث

عكس ذلك فأُنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلّل من جمال المكان وتُحوّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش، كما أنها تؤذى سكان العمارات المجاورة لها.

وعلى الدولة أن تراعى هذه الأمور عند التخطيط، ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)﴾ [عبس] لا بُدَّ أن نُيسِّر السبل للسالكين؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة في هذه الطرق.

فقوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ..(٢٩)﴾ [العنكبوت] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس فى أسفارهم وحركتهم، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم. وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم. وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع[1].

يقول سبحانه فى حقهم: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ..(٢٩)﴾ [العنكبوت] فكانوا لا يتورعون عن فِعْل القبيح وقوله فيجلسون فى الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون الآن على المقاهى ويتسكعون فى الطرق ويؤذون خَلْق الله، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل، فلا يسْلَم من إيذائهم أحد.

لذلك يعلمنا النبى ﷺ آداب الطريق، فيقول لمن سأله:

---

(١) قيل فى معنى ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ.. (٢٩)﴾ [العنكبوت] ثلاثة أقوال:
- كانوا قطاع الطريق. قاله ابن زيد.
- كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة
- إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن منبه. أى: استغنوا بالرجال عن النساء.

قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٢٠) بعد ذكر هذه الأقوال: «ولعلّ الجميع كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك».

وما حَقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام »(١) .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

والنادى : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) ﴾ [العلق] أى : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادى كذا ، ونادى كذا . والنادى وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذى يجب أن يكون فى المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة فى بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك فى صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفى الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذى تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التى تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف فى مكتبه ، والطالب فى مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل فى بقاء النوع ، حيث أتوا غير مأتىً وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادى ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها فى أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم ؟

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٥) ، (٦٢٢٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٢١) كتاب السلام ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٦ ، ٤٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) ﴾ [العنكبوت] أى : من الصادقين فى أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأرنا العذاب الذى تتوعدنا به ، وقولهم ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] مع أن العذاب شىء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وثقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفى موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل]

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] والعلة ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] لأن الطُّهْر فى نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم فى الحكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾

وفَرْق بين الفاسد فى ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين فى أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدين ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى
قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾

جاء هنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى سياق قصة لوط ، كما جاء لوط فى سياق قصة إبراهيم . ومعنى ﴿رُسُلُنَا .. ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت] أى : من الملائكة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾﴾ [الحج]

وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن ؛ لأننا نُبشِّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلِحة فى الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .

ونلحظ فى الآية أنها لم تذكر العلة فى البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة فى إهلاك أهل القرية ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت] لماذا ؟ لأن المتفضِّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .

فماذا كان الانفعال الأوليّ عند إبراهيم ـ عليه السلام ـ ساعةَ سمع البُشْرى والإنذار ؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط ، لذلك قال :

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ[1] كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

---

(١) قال الضحاك : كانت تسمى هيشفع ، ومُسخت حجراً . قاله الضحاك فيما أخرجه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ١٢٠] .

فلم يستشرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسألة إهلاك قرية قوم لوط ؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لغيره ، وهنا ردُّ الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] فهذه مسألة لا تخفى علينا .

ثم يُطمئنونه على ابن أخيه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] وأهله : تشمل كل الأهل ؛ لذلك استثنوا منهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت]

والغابرون : جمع غابر ، ولها استعمالان في اللغة : نقول : الزمان الغابر أي الماضي ، وغابر بمعنى باقٍ أيضاً ، فهي إذن تحمل المعنى وضده ؛ ذلك لأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهي إذن باقية في العذاب . فجاءت الكلمة ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت] لتؤدي هذين المعنيين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سبب حضورهم إليه ، لكن لماذا سيء بهم ، مع أنهم رسل الله ملائكة جاءوه على أحسن صورة ؟ قالوا : لأن الملك يأتي على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شخصاً بالجمال نقول : مثل الملاك ، ومن ذلك قول النسوة

لامرأة العزيز عن يوسف عليه السلام : ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝﴾ [يوسف]

فلما رآهم لوط على هذه الصورة خاف عليهم ، بدل أنْ يفرح بمرآهم الجميل ؛ لأن قومه قوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء ؛ لذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ .. ۝﴾ [العنكبوت] أى : أصابه السوء بسببهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ۝﴾ [العنكبوت] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعنى : يتناول الأشياء بسهولة ؛ لأن يده طويلة ، فالمعنى : ضاق بهم ذَرْعًا . يعنى : لم يتسع جهده لحمايتهم من القوم .

ونلحظ هنا اختلاف السياق بين الآيتين : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ .. ۝﴾ [العنكبوت] أما فى لوط فقال : ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا .. ۝﴾ [العنكبوت] لأنهم تأخروا بعض الشيء عند إبراهيم عليه السلام .

فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝﴾ [العنكبوت] لا تخَفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئْنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ .. ۝﴾ [العنكبوت] فكثيراً ما ضايقته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضيوفه ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب .

لكن ، ما الطريقة التى ستقضون بها على هؤلاء القوم ؟

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ(1) رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التى يمطرهم الله بها ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) ﴾ [العنكبوت] أى : بسبب فسقهم وخروجهم عن منهج الله .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية فى الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات] إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .

لذلك قال الله عنها ﴿ آيَةً بَيِّنَةً .. (٣٥) ﴾ [العنكبوت] الآية : الشىء العجيب الذى يدعو للتأمل ﴿ بَيِّنَةً .. (٣٥) ﴾ [العنكبوت] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾ [العنكبوت] يعنى : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله .

---

(1) هى قرية سدوم قرية قوم لوط ، على الطريق بين المدينة المنورة والشام . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٢٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] فصارت مدين علَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات[1] .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿ أَخَاهُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفى للرسالة يصطفى مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصْلح غير مُفْسد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] كلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ [العنكبوت] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى :

---

(١) قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . [تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢١] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فأطلق القوم ، وهم الرجال في مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهي ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكمال القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شيء أمر به شعيب قومه ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التي استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول في هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التي جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هي إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التي انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ في بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن في الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى في زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقي .. إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذي قعد عن العمل والسعي ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذي أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أراديبَ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات في الدنيا لننال النعيم الباقي في الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما في الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأوْلى بك أنْ

تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان في العبادة مشقة ، وللإيمان تَبِعات ، فانظروا إلى عظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استحضرتَ العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذي يجعل الإنسانَ يتمادى في المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد في الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع في المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة في نفسه ، كما قال النبي ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا في الأرض عثَوا ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء في قوله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إني رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] والجمع بين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعني : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق - عز وجل - أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هِبَات الخالق ، وشُريان للحياة يجري بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتي بالطمي فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمي آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسَد ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعاني آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البِكْر التي ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[1] فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)﴾

---

(١) الرجفة في القرآن : كل عذاب أخذ قوماً ، فهي رجفة وصيحة وصاعقة . قاله الليث . وقال ابن الأنباري : الرجفة معها تحريك الأرض . ورجفت الأرض وارجفت إذا تزلزلت . [لسان العرب - مادة : رجف] .

فلماذا يُكذِّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيّ يكره رسول الله ﷺ ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعِدُّون التاج لعبد الله بن أبي ، لينصبوه ملكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ونهى واحد فى ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن الأمر والنهى قولٌ لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشيء وقع أنه لم يقع ، أو لشيء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صِدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنه صدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قفْ ، هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتي إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربى إلى خبر وإنشاء .

ولكى نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتي بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ فى ذهنه ،

فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ في ذهني هذه المسألة ، وكان في الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .

إذن : النسبة الواقعية لا تأتي نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتي النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبي الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ونهي واحد : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] والأمر والنهي من الإنشاء الذي لا يُوصَف بالصدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧) ﴾ [العنكبوت] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملَكَة العربية التي يفهمون بها كلام الله ، فالحق سبحانه قال هنا ﴿ فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته : لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد في الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهي أمر واجب فكذَّبوه لعلَّة الأمرين ، ولعلَّة النهي .

ومعنى ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] خصُّوه سبحانه بالعبادة ،

وهى الطاعة في الأمر والانتهاء عن المنهى عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهي شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التى لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبى لآخر .

ومعنى ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم فى الآخرة رجاء يرجوه أم حقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهي واجبة له ومن حقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا فى الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضى ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك فى الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

كما لو أنك استخدمتَ أجيراً بمائة جنيه مثلاً فى الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيته أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ فى آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهى فَضْلٌ منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] لأن الجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضْلٌ من الله ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته »[1] .

والنهى فى : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] أى : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هى فى ظنكم نافعة وهى ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسى فى مصر ومصدر الدَّخْل ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دى دى تى) فقضتْ على الدودة فى بادئ الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلَّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدى دى تى) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعانى الأمرَّين من آثار هذه المبيدات فى الماء ، وفى التربة ، وفى الزراعة ، وفى صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغى النظر فى العواقب قبل البدء فى الشئ ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فى أسفارهم وفى حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة فى وسائل النقل لو قارنا نفعها بضررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكر عندما جئنا إلى مصر سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٨ وجدنا فى الميادين العامة مواقفَ للحمير ، مثل مواقف السيارات الآن ، وكانت هى الوسيلة الوحيدة للانتقال ، ويكفى أن روْثَ الحمار يُخصِّب الأرض ، أمَّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدى للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله فى الأنبياء قبل محمد ﷺ أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحمل السيف ضد الكفار ، إنما إنْ كذَّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

وكوْن الحق - تبارك وتعالى - لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقى ، والدليل رأيناه فى بنى إسرائيل لما طلبوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولم يُؤْمر بالقتال لنشر الدعوة إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنه ﷺ آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفى كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] وهذا عقاب الله ؛ لأنه كان سبحانه يتولَّى المكذِّب . وفى

(الحجر) وفى (هود) قال (الصيحة)[1] وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل فى الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أى : هزة شديدة كالتى تهدم البيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] قال (فأصبحوا) ولم يقلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال فى أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب فى الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة فى الحرب ، كما خالفها قادتنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ، حيث فاجأوا عدوهم فى وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غِرَّة ؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .

إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ فى أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب

---

(١) وردت كلمة (الصيحة) كعذاب فى حق :
- قوم ثمود . (سورة هود - آية : ٦٧) . (سورة القمر - آية : ٣١) .
- قوم لوط . (سورة الحجر - آية ٧٣) .
- قوم شعيب . (سورة هود - آية ٩٤) .

إلى عمله ، ويقضى مصالحه ، فقال له الوالد : ابن فلان استيقظ مبكراً ، فوجد محفظة بها مائة جنيه . فقال الولد - وكان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] يعنى : هامدين بلا حراك .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرسالات ، وكأنها برقيات :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾

نلحظ فى هذه البرقيات السريعة أنها تذكر المقدمة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ[(١)] .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذا موجز لما نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكى لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

والآن مع الثورة العلمية استطاعوا تصوير ما فى باطن الأرض ، وظهرت كثير من الآثار لهذه القرى عاد وثمود والأحقاف[(١)] ، واقرأ

---

(١) عاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٢] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر]

وطبيعي الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها ؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن ، ولِمَ لا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطي أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين في أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية في رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطي قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض ؟ والآن نشاهد في الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطي الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها ـ ولو من خلال الصور الحديثة التي التقطت لهذه القرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. ۝٣٨﴾ [العنكبوت] يعني : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل في حركة الحياة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .. ۝٣٨﴾ [العنكبوت] فما دام قد زُيِّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت] يعني : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذي اختاره الله تعالى لخلقه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۝١٥﴾ [الإسراء] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر ؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ما زالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذِّبين عاداً وثمود ، وهنا ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] والدليل على قوله سبحانه في الآية السابقة ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] قوله تعالى هنا ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : بالأمور الواضحة التي لا تدع مجالاً للشك في صدْق الحق سبحانه ، وفي صدْق الرسول في البلاغ عن الله .

﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] استكبر : يعني افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه في ذاته ما كان ينبغي له أنْ يستكبر ؛ لأن الذي يتكبَّر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه ، إنما بشيء موهوب ؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به ؟

لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرْأى ربه في آثار خَلْقه ، فلو كان ربه في باله لاستحى أنْ يتكبَّر .

فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر في نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبي ؛ لأنه لم ينظر في حال الضعيف الذي يتعالى عليه ، فلربما يفوقه في شيء آخر ، أو عنده عبقرية في أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عَرَضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .

إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا في الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً بغير حق ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الواقعة]

والسبق لا يُمدح ولا يُذم في ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أيّ شيء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعي ، والرجعية لا تُذَم في ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنعْم هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] أي : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَبَ السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا في الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ منْ أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلتوا من قبضتنا ، ولن يُعجزوا قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا(١) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى في النار لتسعر به . فالحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٥٥] .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿ فَكُلاًّ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذِّبين فالتنوين فى ﴿ فَكُلاًّ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين فى : ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة] فهو عوَض عن جملة ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه ﴿ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] والأخذ يناسب قوة الآخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أَخْذه للمكذِّبين ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] فالعزيز : الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أى : القادر على الأخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿ بِذَنْبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتى فى تذييل الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمى لا لتجرح ، ولكن يُحْمَى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم . كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازى[1] حين قال فى هذه الآية أنها جمعت العناصر التى بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها فى الماضى العناصر الأربعة . لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمَّا العنصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتى منها شىء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و .... إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منها رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعنى : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعنى يتكون من ذرتين .. إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم ٩٢ . لكن وجد فى وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كورى ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا

---

(١) هو محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) وإليها نسبته ، ويقال له « ابن خطيب الرىّ » ، تُوفى فى هراة عام (٦٠٦ هـ) عن ٦٢ عاماً . من كتبه « مفاتيح الغيب » ، « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة في جدول (مندليف) ، فوضعوه في موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمي الآن إلى ١٠٥ عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التي نأكل منها المزروعات وجدوها ١٦ عنصراً ، تبدأ بالأكسجين كأعلى نسبة ، وتنتهي بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة .

وكان الحق - سبحانه وتعالى - أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صِدْقه تعالى في خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سراً من أسرار كونه يأتي به ولو على أيدي الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التي يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذي توفي سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفي مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته تعالى يجعل عناصر البقاء هي نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجي ويُهلك بالشيء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى - عليه السلام - بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين

الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التى كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق - سبحانه وتعالى - يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون في كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا مما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبي ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] فينبغي إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء . لذلك فالملاحظة هى أساس كل علم تجريبى أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسى فى حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن فى الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك تسمعهم يقولون فى شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسى فى وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك

لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ في هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقوله سبحانه ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] لأن الخالق - عز وجل - كرَّم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ في الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس في الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . وقال الأزهري : شديدة البرد جداً . [لسان العرب - مادة : صرر] .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصية النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسان وهو سيد الكون الذى كرَّمه ربه بالعقل تظل فيه الجمادية بدليل أثر الجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفسه من مكان عالٍ لا يستطيع أن يمسك نفسه فى الهواء ، وكذلك تظل فيه النباتية والحيوانية . ففيه إذن كل خصائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم بالعقل .

لذلك لا يكلِّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب فى عقله كالجنون مثلاً ، وأن يكون مختاراً فالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسان الذى كرَّمه ربه بالعقل والاختيار ، وفضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد ما هو أقل منه رتبة ، فهذا شيء عجيب لا يليق به ، فالعابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من المعبود ، وأنت بالحكم أعلى درجةً مما تحتك من الحيوان والنبات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده نَحْتاً ، وتقيمه فى المكان الذى تريده وإن انكسر تصلحه ؟!!

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيت لها بالدونية ، جعلك سيداً وجعلت نفسك عبداً لأحقر المخلوقات ؛ لذلك يقول تعالى فى

الحديث القدسي « يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلي ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »[1] .

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ .. ④⓪ ﴾ [العنكبوت] أي : لا ينبغي لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكنْ لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفي الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لأنه لا ينبغي له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعني أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْي انبغاء قول الشعر من رسول الله ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس] فالنبي ﷺ كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغي للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفي كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشيء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتي على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم - وتعالى الله عن هذا علُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون في الحدث ذاته ، كأن تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون في تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أَكُول أو أكَّال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٣٥٨/٢) عن أبي هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدَّ فقرك » .
وقال ابن كثير في تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء » .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتضى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلَّام) .

وهناك قضيةٌ لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبالغة ، فحين تقول مثلاً : فلان أكول ، فهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين تقول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفسهم جاء من تدنِّيهم وإهانتهم لأنفسهم بالكفر بعد أنْ كرَّمهم الله ، وكان عليهم أنْ يُصعِّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعد أن حدثتنا الآيات عن الكافرين الذين اتخذوا الشركاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل وما كان من عقابهم ، تعطينا مثلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ
لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

كلمة (مَثَلُ) وردت بمشتقاتها فى القرآن الكريم مرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا

قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعني تشبيه قصة أو متعدِّد بمتعدِّد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحق - سبحانه وتعالى - لا يُشبِّه شيئاً بشيء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا في وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذي سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ .. (٥٩) ﴾ [آل عمران]

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان

ينبغى عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضى أن تكون الفتنة فى آدم لا فى عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته فى أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشىء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزّوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب - والأدلة على ذلك واضحة - إذن : فطلاقة القدرة فى هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشىء الغامض بشىء واضح ، والمبهم بشىء بيِّن ، والمجمل بشىء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن فى ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال فى البيان والتوضيح .

ويُحكَى أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد فى نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويَتْ أتــاحَ لَهــا لِســانَ حَسُــود
لَوْلاَ اشْتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يعرف طِيب عَرْفِ العُود

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرق .

ومن مشتقاتها أيضاً (مَثُلَة) كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. ۝﴾ [الرعد] وهى العقوبات التى حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتهر المثَل انتشر على الألسنة ، وضربه الناس مثلاً كما اشتهر حاتم الطائى بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتهر بيننا عبارة موجزة ، فتصير مثلاً يضرب فى مناسبها كما نقول للتلميذ الذى يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامتحان (قبل الرماء تملأ الكنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل فى كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمى ولا كنائن .

كما أن المثَل يقال كما هو دون تغيير ، سواء أكان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلك تقول (ماذا وراءكِ يا عصامِ) بالكسر : لأنها قيلت فى أصل المثل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. ۝٤١﴾ [العنكبوت]

فهذا مثل فى قمة العقيدة ، ضربه الله لنا للتوضيح وللبيان ، ولتقريب المسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقول للمثل الذى ضربه الله

لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سِرِّ العظمة فيها .

ففي هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموي .. إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات الا ترى الميكروبات التي لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] ما فوقها أي : في الصِّغَر والاستدلال . أي : ما دونها صغَراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشيء الأقلّ حجماً الأكثر دقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهي أضخم وأشهر ساعة في العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصَّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها في ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التي جعلوها في فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دقَّة الصنعة في صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان في حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً في حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التي بين جنبيك والتي بها حياتك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثل الذي ضربه الله لنا : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .. (٤١)﴾ [العنكبوت] أي : شركاء وشفعاء ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١)﴾ [العنكبوت] هذا المخلوق الضعيف الذي ينسج خيوطه بهذه الدقة التي نراها ، والذي نسج خيوطه على الغار في هجرة رسول الله ﷺ ، واشترك مع الحمامة في التعمية على الكفار .

﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١)﴾ [العنكبوت] أي : من هذه الخيوط الواهية ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١)﴾ [العنكبوت] فخطأ العنكبوت ليس في اتخاذ البيت ، إنما في اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط في البيت أن يكون حصيناً يحمي صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط .. إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق في الخَلْق لكان أنسب وأجْدى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨)﴾ [إبراهيم]

ومعنى : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت] أى : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق - عز وجل - فلو فكَّروا فيها وفى أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهى - إذن - دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذى تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً فى خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخادمين . ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها - أى : فى زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كان ينبغى منك أن تبحث عن شىء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شئتَ عن الجماد قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : فى الأرض ﴿وَرَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت]

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هى مخازن القوت للناس على مَرِّ

الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمى الذى يحمله إلينا الماء فى أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة فى السهول والوديان ، فتكون مصدر خِصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمى .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفى موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى قمة العقيدة أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهى ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذى يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس فى الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) ﴾

يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢)﴾ [العنكبوت] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التى تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢)﴾ [العنكبوت] وقوله هنا ﴿مِن شَيْءٍ .. (٤٢)﴾ [العنكبوت] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أى شيء .

أو أن (شيء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشيء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذى شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشيء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه . فماذا جرى لكم ؟! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً فى الخَلْق ، والأصنام جمادات ، وهى أدنى أجناس الوجود .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢)﴾ [العنكبوت] العزيز الذى يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم فى كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] حيث استقلُّوا

البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عالمين بدقة المثل ، واقرأوا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسط شيء في حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامك ، فأخذ منه شيئاً أتستطيع أن تسترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت ؟

إذن : فالذبابة ليست شيئاً تافهاً كما تظنون ، بل وأقلّ منها الناموس (والميكروب) وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسرار تدلُّ على قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أي : ما فوقها في الصِّغَر ، ولك أن تتأمل البعوضة ، وهي أقلّ حجماً من الذباب ، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد ، ويمتصّ الدم الذي لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذي لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففي هذه المخلوقات الحقيرة في نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلها إلا العالمون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن ، ومَنْ لم يعقلها فظلّ على كفره مع أنه أوْلَى الناس بالإيمان بالله ؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخالق في الخَلْق . لذلك جاء في الأثر : « العالم الحق هو

الذى يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن لغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هى الوحيدة التى أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتى بجديد فى الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذى اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلى والعبقرى ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى

إنهم يقولون : فلان أول مَنْ قال مثلاً : أما بعد[1] ، وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل في كل المجالات ، وننسب كل صنعة وكل اختراع واكتشاف إلى صاحبه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقيم له تمثالاً .. إلخ .

إذن : فما بالك بالخالق الأعظم سبحانه الذي خلق السموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما ، أليس من حقه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حقه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق ؟ خاصة وأن خَلْق السموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعالى يخبرنا بهذه الحقيقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهذه المسألة - ولله المثل الأعلى - بجماعة جلسوا في مجلس ، فلما انفضَّ جمعهم وجد صاحب البيت محفظة نقود لواحد منهم ، فسألهم : لمن هذه المحفظة ؟ فقالوا جميعاً : ليست لي إلا واحد منهم قال : هي محفظتي ، فهل يشكُّ صاحب البيت أنها لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فقالوا (الله) فلماذا يذكر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق - تبارك وتعالى - لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنه خالق السموات والأرض ، إنما يريد أن يخبرنا أن خَلْق السموات والأرض

(١) عن أبي موسى الأشعري قال : « أول من قال أما بعد داود النبي عليه السلام . قال : وهو « فصل الخطاب » أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل (حديث ١٩١) والطبراني في الأوائل (٤٠) . وعزاه السيوطي في الوسائل (١١٧) لابن أبي حاتم والديلمي عن أبي موسى .

بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذي لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء في الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧) ﴾ [غافر]

فالسموات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً في عمر السموات والأرض وفي عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التي تعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذي نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هي لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أي : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفي نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلقا بحساب بديع دقيق ، ويكفي أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرف عن الشمس والقمر من كبَر حجمهما ، فإنهما يسيران في مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

هذا كله من معنى خَلْق السموات والأرض بالحق . أي : بنظام

ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف في كُلّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكنْ خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل في إبراهيم وفي موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفي شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] أراد سبحانه أن يُسلِّي رسوله ﷺ بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت] يعني : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذي لا ينقضي ، وهو كتاب الله ومعجزته التي أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته علَّ الله يأتي من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿اتْلُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذي يرسل رسولاً من البشر بشيء أو في أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فمما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إليَّ بأن تستمع إلى كتابي الذي أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا ..

﴿ ﴿٦﴾ ﴾ [محمد] تهوينا من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة في صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعِد الأذن الواعية والقلب الصافي غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرج ما في نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلْنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ في يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفسه في الشاي مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت] هذه هي مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكرِّرها في كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يَرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شيء إلا أننا

---

(١) الوقر : ثقل في السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

نُصدِّقها ونؤمن بها ؛ لأنّ القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتى كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذى يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهى المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا[1] عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْلٌ من فعل اللسان و ﴿ وَأَقِمِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هى : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا فى الإنسان حواسَّ أُخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التى تزن بها ثقل الأشياء . وإلا فبأىّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشىء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتى بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء

---

(١) المهيمن : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ، ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] .

بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر في مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدي مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف]

ولم يقل : ما لا تعملون ؛ لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبي ﷺ : « الصلاة عماد الدين »[1] وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضي على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام في أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعيف من حديث عمر » . وقال الملا علي القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف وقال النووي في التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (حديث ٢٧٩) .

لا يتعرضون لك ، وأنت حر فى إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم فى حَصْر الإسلام فى أركانه فقط .

وما فهم هؤلاء أن الأركان ليست هى كل الإسلام ، إنما هى أُسُسه وقواعده التى يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شىء فى حياتنا ، بدايةً من قمة العقيدة فى قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء فى حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحسْبة[1] المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله فى الأرض إذا رأى جزارا ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم فى نفخها هواء غير صحى ، فهو زفير مُحمَّل بثانى أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل فى هذا اليوم حتى لا يتأذَّى الناس برائحته .

---

(١) شرح الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » الحسبة وكل ما يتعلق بها من أركانها الأربعة « المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب ، وما يتعلق بكل منها من شروط ، ودرجات الاحتساب ، ثم آداب المحتسب من العلم والورع ، وحسن الخلق . وذلك بتفصيل فليرجع إليه فى « كتاب الأمر بالمعروف » من « إحياء علوم الدين » .

فأىُّ شرع هذا الذى يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فى حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمِثْل هذا الشرع يُعزَل عن حركة الحياة ويُقيَّد وينحصر فى مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن - دَعْك من العالم المتقدم - ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصَّيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلى عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا فى أزمتهم الاقتصادية بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا فى رَغَد من العيش ، إنك لو تحلَّيْتَ بهذا الأدب فى مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فترى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْى رسولهم ﷺ ، فهم يأكلون على شِبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف] وأُثِر عن العرب الذين عاشوا فى شظف من العيش : نِعْم الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقى ، والمشهِّى الأول .

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن . بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هي عماد الدين ، ومعنى : « الصلاة عماد الدين »[1] و « بُنِي الإسلام على خمس »[2] أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هي أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكي ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر والحائض .. إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذي يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكي أو لا يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّي ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكٌّ في إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرِعت بالوحي إلا الصلاة ، فقد شُرِعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في رحلة المعراج .

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩) : « رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً ، ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وسيق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذى يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفى بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصى بها ، أو يطلب الموظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه شخصياً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسَل إليه من المرسِل ، فأراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يحرم أمة محمد من فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادى أنْ يقرب منى كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلْ .

ومعنى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] إقامة الشيء : أداؤه على الوجه الأكمل الذى يؤدى غايته ، فالصلاة المطلوبة هى الصلاة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاةً لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة فى سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك فى بعض الفحشاء وفى بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] واضح فى قول النبى ﷺ لما قيل له : يا رسول الله ، إن فلاناً

يصلي ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : « دعوه ، فإن صلاته تنهاه »[1] .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعي عُرْضة لأنْ يُطاعَ ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادي قبل أن أموت : يا أولادي ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخير ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذي يحترم وصيتي منهم يكرم مَنْ يدخل بيتي من بعدي ، والذي لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى في شأن المسجد الحرام : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار في ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك في هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتي عن عدم فهم لمعنى الأمر الكوني والأمر التشريعي ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] أمر تشريعي قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصى ، كأن الحق - سبحانه وتعالى - قال : أمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّنَ مَنْ في البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم

(١) عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلاناً يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال : إنه سينهاه ما تقول . أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) والبزار (٣٤٦/١ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن) قال الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

في ساحته . ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لم تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمر في ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] فالصلاة تشريع من الله ، فإذا كان الله تعالى هو المشرِّع ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٩٠)﴾ [النحل] الله عز وجل نهانا ، لكن هل انتهينا جميعاً ؟

إذن : نقول : الصلاة في ذاتها لا تنهاك ، لأن هذا أمر شرعيٌّ .

والبعض يرى أن المعنى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] يعني : لا يوجد معها فحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صحيح ؛ لأنني حين أدخل في الصلاة بتكبيرة الإحرام فإن هذه التكبيرة تحرم عليَّ كل ما كان حلالاً لي قبل الصلاة ، ففي الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصلاة ، فما بالك بما كان حراماً عليك أصلاً قبل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفحشاء والمنكر في وقتها ؛ لأن تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعني أن الله أكبر من كل شيء في الوجود حتى من شهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدي ربك ، ثم تخالف منهجه ؟ فالصلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومعنى (الفَحْشَاء) كل ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال (والمنكَر) كل شيء يُنكره الطبع السليم ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] ذكر : مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبني ضَرْبُ الأمير لزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعجبني ضَرْبُ زيد من

الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذِكْر صادر من الله ، أو ذكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذكْر صادر من الله ، أي للمصلّي ، فحين يصلي الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء في قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فعْلاً ذكرتَ الله فيه ذكْراً بالقول وبالفعل ، والله تعالى يجازيك بذكركَ له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره في صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها في يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْركَ له بالطاعة[١] . هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعني : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذكْر الله في الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك في الصلاة تُعد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون في حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذكْرك في الحضرة .

ومثال ذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - مَنْ يمدح الأمير ويُثْني عليه في حضرته ، ومَنْ يمدحه في غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق في الذكْر ؟

---

(١) قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن . وهو اختيار الطبري . قاله القرطبي في تفسيره (٥٢٢٩/٧) .

واقرأ في ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

يعني : ذكْر الله في الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقط إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة] فيجب ألاَّ يغيب ذكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكْرك له سبحانه في الصلاة .

ورُوي عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبيد الله بن ربيعة : ما تقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت] ؟ فقال : قراءة القرآن حسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس - مع أن هذا القول مخالف لقوله في الآية -؟ قال : عجيب والله[1] ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعي أن يذكر الله في حال الطاعة ، فهو متهيء للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع

---

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره ، وكذا ابن كثير في تفسيره (٣/٤١٥) قال عبد الله ابن ربيعة : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت] ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه » . قال السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٦٦) : أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان .

عنها ، فهذا أقوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء في الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظلَّ إلا ظله - ومنهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله »[1] هذا هو ذكر الله الأكبر ؛ لأن الدواعي دواعي معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تحوِّل المعصية إلى طاعة .

أما قول ابن عباس في ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أن ذِكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك - عز وجل - لم يُكلِّفك إلا بعد سنِّ البلوغ ، وتركك تربَع في نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالي عليك نعمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نعمه عليك أكبر من ذِكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أنْ تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة في الدنيا موقوت ، أما ذِكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة في الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهي بشارة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذى يضع نفسه فى أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشىء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا فى الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّى بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التى يُراد لها الحبل تكون قوته .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٤٠) :

« اختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت]

– فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

– وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة] » .

ثم قال القرطبى : « قول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يُقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول ، واختار هذا القول ابن العربى » .

ومن الجدل أُخِذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفى معناها : الحوار والحجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منهما مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أى : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق فى الجدال أو الحجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفى ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مراءٍ أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقَين علَى الآخر ، والجدل فى هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ .. (٧٥) ﴾ [المؤمنون]

لكن إذا فَتَلْنا الشيء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل فى الجدل خَصْمك قوياً ؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّى نفسك فى مواجهته . قالوا : حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوى يقينه فى شيء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذى كان عليه ، فأنا قوَّيته بالحق . وفى العامية نقول (فلان منفوخ على الفاضى) أو نقول (فلان نافش ريشه) كأنه آخذ حيزاً أكبر من حجمه .

لذلك نلحظ أن التغلب فى الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعى .

أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهى الأرض ، كأن يطرح القوى الضعيف أرضاً فى صراع مثلاً .

والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذى يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذى يألف إلى

رأيك الذي لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما ألف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين .

فعليك إذن باللين والاستمالة برفق ؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقي رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خفة البيان ؛ لأنك تُخرِج خَصْمك عما ألف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكره ، بل بما يحب .

والإنسان قد يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبِّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذي رأى في منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبِّر له ما رأى ، فجاءه المعبِّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاي أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعني أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله . فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .

ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكي فقال : ما يُبكيك ؟ قال : أُخِذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً ؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغي له أنْ يحزن ؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأَوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .

ورجل قُتل له عزيز فجلس يصرخ ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابني قُتل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذي جعل منك المقتول ، ولم يجعل منك القاتل .

إذن : سلامة المنطق وخفّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن

يراعى بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا : مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق في البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبي ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا ؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم ؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم انصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا - عز وجل - أصول الجدل وآدابه ؛ لأنه يريد أن يُخرج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذى ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذي يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبياً ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل مِلَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها في أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله ؟ قال : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ [الطور]

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة ؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السموات والأرض والشمس والقمر .. إلخ أولَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق ؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن ؟

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق - سبحانه وتعالى - قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون . فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله ؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] ولم يقُلْ أحد أنا الإله ، إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة ؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريكَ لي ، فأين كان شركاؤكم ؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله ؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوْا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنتفي عنهم صفة الألوهية . فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه ؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم . فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فيماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم ؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم

مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم يقدر على شيء معين ؟

إنْ كانوا يزاولون الأشياء بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد ردَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصفِّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وبعد أنْ بيَّنَّا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم ؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التي نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ في حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول ميْزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتي رسول بعده ؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه في أصول الأشياء ؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد لله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم ؟

فربنا ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهُمْ

مؤمنون بإلهكم وبالرسل وبالكتب ، غاية ما هنالك أنهم لا يؤمنون برسولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتزوج كتابياً ؟ نقول : لأن أصل القوامة فى الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حين يتزوج كتابية مؤمن برسولها ، أما الزوج الكتابى فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفرْق بينهما كبير .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أن فى الجدال حسناً وأحسن ، وقد سبق الجدال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] ونوح عليه السلام يتلطف فى جدال قومه ، فيقول : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم فَهُمْ .

ونبينا محمد ﷺ يقول فى جدال قومه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] فيذكر ﷺ الجريمة فى حقه هو ولا يذكرها فى حَقّ المعاندين المكذّبين ، فأىُّ أدب فى الدعوة أرفع من هذا الأدب ؟

إذن : جادل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلموا أنفسهم فى مسألة القمة الإيمانية ، فادعوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنهم بذلك يدخلون فى صفوف سابقيهم من المشركين ، فإنْ كنا مأمورين بأن نجادلهم بالتى هى أحسن وقالوا بهذا القول ، فعلينا أن نجادلهم بما يقابل الأحسن ، نجادلهم إما بالحسن ، وإما بغير الحسن أى : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد ؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم .

أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

واقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾ [الشعراء] فإنْ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار ؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده ؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون في نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذي جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. ⑮⑦ ﴾ [الأعراف]

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت ؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. ⑰ ﴾ [المائدة] وقال أيضاً : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ .. ⑦③ ﴾ [المائدة]

أي : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئلْنا في الخارج من أبنائنا الذين يرغبون في الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سلْها أولاً : ماذا تقول في عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن ؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

هذا في معنى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ونحن لا نحمل السيف في وجه هؤلاء ؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمي اختيار المختار . فلي أنْ أعرض ديني ، وأنْ أعلنه وأشرحه ، فإنْ منعوني من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركوني أعلن عن ديني فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا . ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به في بلادنا ، ونظير حمايتنا لهم ، وما نُقدِّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً ؟

لذلك ترى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم جزية .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] لأنني لا أكرهك على شيء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشْد بيِّن والغيّ بيِّن ، فلا داعيَ للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صلِّ . يقول لك ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] ونقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه في أصل الدين في أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت في هذه حُرٌّ ، أمّا إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فليس لك أن تكسر حَدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين « لا إكراه في الدين » و « لا إكراه في التدين » .

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، تقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب في الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل ﴿ أَهْلَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يجادل المشركين بقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفي موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه . حتى قال عبد الله بن سلام[1] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد[2] ، ولم لا يعرفونه وقد ذُكر في كتبهم باسمه ووصفه : ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين في

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف : صحابي ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس ، لما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلي ٤/ ٩٠] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه » . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩٤) .

المدينة ، وتقولون : لقد أظلَّ زمان نبي يُبعث في مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[1] ؟ فلما جاءكم النبي الذي تعرفون أنكرتموه وكفرتم به : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون ؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

وكلمة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وردت في القرآن ، لكن في غير الجدل في الدين ، وردت في كل شيء يُوجب جدلاً بين أناس ؛ وذلك في قوله سبحانه : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد جاءني رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم أجد الولي الحميم ؟ قلت له : كوْنك تحمل هذا الأمر في رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتي هي أحسن ؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتي هي أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه وليٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين[2] :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ التي وَمِنَ الذِي
ادْفَعْ فديْتُكَ بالتي حتَّى تَرَى فإذَا الذِي

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) من شعر الشيخ رضي الله عنه .

والمعنى : من التي تسيء إليك ، أو الذي يسيء إليك ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [فصلت] حتى ترى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أنه جاءني شاب يقول : إن عمي مُوسر ، وأنا فقير ، وهو يتركني ويتمتع بماله غيري ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك ؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها ؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تتوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد في قلبك لعمك ، وثِقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل - والله يشهد - دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لي : أما دريتَ بما حدث ؟ قلت : ماذا ؟ قال : جاءني عمي قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال عليَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركني للأجانب يأكلون مالي وأنت موجود ؟ ثم أعطاني المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملي بنفسك ، فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أي : ظلموا أنفسهم بالشرك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] تظلم نفسك لا تظلم الله ؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء]

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكُّ عنها إما بالتوبة وإما برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلِّمنا الحق - تبارك وتعالى - التى هى أحسن فى الردِّ على الذين ظلموا منهم : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

يعنى : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذى يأتى بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

جاءت امرأة تشتكى أن زوجها لم يُوفِ بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاَّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعنى أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج ؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيت به ؟ قالت : أعجبنى وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك ؟ إذن : فاحترمى حقَّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : ﴿ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، لماذا ؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمَّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ تُسلم له الأمر فى « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » ، وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

إذن : فَرْق بين إيمان وإسلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] فقال هنا : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] يعنى : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ (٤٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أى : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة فى كل الكتب التى أُنزِلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذى جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد ﷺ كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله ﷺ ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف

التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به ؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌّ إلى قيام الساعة ، فلا بُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

في حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته ؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْلَ القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم ، حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرَهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتي بمعجزة ؟ المعجزة لا تأتي إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتي المعجزة لتثبت صدْقه في البلاغ عن ربه ؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشَعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر - رضي الله عنه - والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا في حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله ؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعي للمعجزة إذن ؟

إذن : تميَّز ﷺ على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته . وسبق أنْ قلنا : إن الحق - تبارك وتعالى - يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشيء لا علْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدَّانا به ؟ والعرب كانَوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقَوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُوَر ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى ؛ لذلك لا يأتي أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقى منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهى ما يشاء . أما العقائد فهى ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ فى القصص والأخبار .

والنسْخ لا يتأتى إلا فى التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل . ذلك لأن التشريع يأتى مناسباً لأدواء البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته ؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، فى زمنٍ انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة فى مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم فى بيئة مجاورة .

أما محمد ﷺ فقد جاء - كما يعلم ربه أزلاً - على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم فى آخر الدنيا ، فنعلم به ، بل ، ونشاهده فى التوِّ واللحظة ، وكأنه فى بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفى لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أى : من قبلك ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون فى أوصاف النبى الجديد التى وردتْ فى كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله ؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسى[1] أن بمكة نبياً جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ،

(١) سلمان الفارسى ، صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب فارس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب ، وسمع كلام النبى ﷺ ، أظهر إسلامه ، وهو الذى دل المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، توفى ٣٦ هـ بالمدائن وكان أميراً عليها . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فِطْنة النبوة التي أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة[1] .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو - ابن سلام - على يهوديته - فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت - يعني يُكثرون الجدال دون جدوى - وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامي أن يسبوني ، وأن يظلموني ، ويقولوا فيَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أنْ تسألهم عني ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنتُ إسلامي ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون في عبد الله بن سلام ؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا .. إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقالوا لتوِّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت[2] ؟

وقوله سبحانه ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت] أي : من كفار مكة مَنْ سيأتي بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ

(١) ذكر البيهقي قصة إسلام سلمان الفارسي في كتاب دلائل النبوة في ١٨ صفحة (١/٨٢-١٠٠) وفيه أنه عندما قابل رسول الله ﷺ ورأى أنه يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة دار خلف رسول الله ، يقول سلمان : « فيقطن لي النبي ﷺ فأرخى ثوبه ، فإذا الخاتم في ناحية كتفه الأيسر فتبينته ، ثم درت حتى جلست بين يديه فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٢٦ - ٥٢٩) ، والبخاري في صحيحه (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ [العنكبوت] الجحد : إنكار متعمد ؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتي من أن النِّسب إما نفي ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفي القلب سَلْب أو قال سلب وفي القلب إيجاب ، فهذا ما نُسمِّيه الجحود .

لذلك يُفرِّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ في النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون] وهذا منهم كلام طيب وجميل ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون] أي : أنه كلام وافق علم الله ، لكن ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله ؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا في قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل في شهادتهم ؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين في مسألة الجحود ؟ قالوا : لأن غير الكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله : ﴿ تَتْلُوا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : تقرأ ، واختار تتلو لأنك

لا تقرأ إلا ما سمعت ، فكأن قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ ، نقول : يتلوه يعنى : يأتى بعده ﴿ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : الكتابة .

وفَرْق بين أنْ تقرأ ، وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، كإخواننا الذين ابتلاهم الله بكفِّ نظرهم ويقرأون ، إنما يقرأون ما سمعوه ؛ لأن السمع كما قلنا أول حاسة تؤدى مهمتها فى الإنسان ، فمن الممكن أن تحفظ ما سمعت ، أما أن تكتبه فهذا شىء آخر .

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفار قريش الذين يُكذِّبون رسول الله ، ولوْن من ألوان التسلية لرسول الله ، كأنه يقول سبحانه لرسوله : اطمئن . فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك ؛ لأنك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك ، وهم يعرفون سيرتك فيهم .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

أربعون سنة قضاها رسول الله بين قومه قبل البعثة ، ما جرَّبوا عليه قراءة ولا كتابة ولا خطبة ، ولا نمَّق قصيدة ، فكيف تُكذِّبونه الآن ؟

فإنْ قالوا : كانت عبقرية عند محمد أجَّلها حتى سِنِّ الأربعين . نقول : العبقرية عادة مَا تأتى فى أواخر العقد الثانى من العمر فى السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة ، ومَنْ ضمن لمحمد البقاء حتى سِنِّ الأربعين ، وهو يرى مصارع أهله ، جده وأبيه وأمه ؟

لو كان عندك شىء من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ،

ولكان في الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب في أمرك ، كما قالوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان]

وقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ۝١٠٣ ﴾ [النحل] فردَّ القرآن عليهم[1] ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [النحل]

وقالوا : ساحر ، وقالوا : شاعر ، وقالوا : مجنون ، وكلها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الردُّ عليها : فإنْ كان ساحراً ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً وتنتهي المسألة ؟ وإنْ كان شاعراً فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته ؟

وإنْ قُلْتم مجنون ، فالجنون فَقْد العقل ، بحيث لا يستطيع الإنسان أنْ يختار بين البدائل ، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك ؟ وكيف يكون المجنون على خُلُق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادق الأمين ، فعنده انضباط في الملكات وفي التصرفات ، فكيف تتهمونه بالجنون ؟

وكلمة ﴿ مِن قَبْلِهِ .. ۝٤٨ ﴾ [العنكبوت] لها عجائب في كتاب الله منها هذه الآية : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. ۝٤٨ ﴾ [العنكبوت] فيقول بعض العارفين (من قبله) : أي من قبل نزول القرآن عليك ، وهذا القول ﴿ مِن قَبْلِهِ .. ۝٤٨ ﴾ [العنكبوت] يدل على أنه من الجائز أن يكون رسول الله ﷺ قد علم كيف يقرأ وكيف

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يُعلِّم قيناً بمكة اسمه بلعام ، وكان عجمي اللسان ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ۝١٠٣ ﴾ [النحل] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/١٦٧) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف .

يكتب بعد نزول القرآن عليه ، حتى لا يكون فى أمته من هو أحسن حالاً منه فى أى شىء ، أو فى خصلة من خصال الخير[1] .

ثم تأمل قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة] بالله لو جاءت هذه الآية بدون كلمة (مِنْ قَبْلُ) ألاّ يدخل فى روع رسول الله أنهم ربما يجترئون عليه فيقتلوه ، فيتهيب منهم ، أو يدخل فى نفوسهم هم ، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل ؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرر أن هذا كان فى الماضى ، أما الآن فلن يحدث شىء من هذا أبداً ، ولن يُمكِّنكم الله من نبيه .

وكلمة ﴿وَمَا كُنتَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] تكررت كثيراً فى كتاب الله ، ويُسمُّونها (ماكُنَّات القرآن) وفيها دليل على أن القرآن خرق كل الحجب فى الزمن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل .

كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾ [آل عمران]

وهنا : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤١/٧) : « ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبى ﷺ حتى كتب . وأسند أيضاً حديث أبى كبشة السلولى ، مضمنه : أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها . قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف » . ثم قال (٥٢٤٣/٧) : « الصحيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى » .

لذلك وصفه ربه ـ عز وجل ـ بأنه ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف] وإياك أن تظن أن الأمية عَيْب في رسول الله ، فإنْ كانت عيباً في غيره ، فهي فيه شرف : لأن معنى أمي يعني على فطرته كما ولدتْه أمه ، لم يتعلم شيئاً من أحد ، وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق .

ومن ذلك المكانة التي أخذها الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ في العلم والإفتاء حتى قال عنه عمر رضي الله عنه ـ مع ما عُرِف عن عمر من سداد الرأي حتى إن القرآن لينزلُ موافقاً لرأيه ، ومُؤيداً لقوله ـ يقول عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[1] . لماذا ؟

لأنه كان صاحب حجة ومنطق وصاحب بلاغة ، ألم يراجع الفاروقَ في مسألة المرأة التي ولدتْ لستة أشهر من زواجها[2] ، وعمر يريد أنْ يقيم عليها الحد ؛ لأن الشائع أن مدة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع البعض وقالوا : إنها سُبِق إليها ، لكن يكون للإمام على رأى آخر ، فيقول لعمر : لكن الله يقول غير هذا ، فيقول عمر : وما ذاك ؟ قال : ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] قال : بلى .

قال : ألم يقل : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

---

(١) أخرج الحاكم في مستدركه (٤٥٧/١) ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال : « حججنا مع عمر رضي الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ومن حديث طويل وفيه أن عمر رضي الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن » .

(٢) ذكر الجصاص في أحكام القرآن (٥١٧/٢) أن هذا حدث في زمان عثمان بن عفان ولكن يبدو أنهما حادثتان وقعتا في عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، فقد ذكر ابن قدامة المقدسي في كتابه « المغني » (١١٥/٩) أنه كان في عهد عمر واستشهد بما رواه الأثرم بإسناده عن أبي الأسود وذكر القصة .

وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقي ستة أشهر ، فإذا ولدتْ المرأة لستة أشهر ، فهذا أمر طبيعي لا ارتيابَ فيه[1] .

وفي يوم دخل حذيفة على عمر رضي الله عنهما ـ فسأله عمر : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين ، أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلّي بغير وضوء ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء .

فغضب عمر ، وهَمَّ أن يضربه بدرة في يده ، وعندها دخل عليٌّ فوجد عمر مُغْضباً فقال : مالي اراك مغضباً يا أمير المؤمنين ؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة ، فقال علي :

نعم يا أمير المؤمنين يحب الفتنة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥)﴾ [التغابن]

ويكره الحق أي : الموت فهو حقٌ لكنا نكرهه ، ويُصلّي على النبي بغير وضوء ، وله في الأرض ولد وزوجة ، وليس ذلك لله في السماء . فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

---

(١) عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت : وما يبكيك ؟ فو الله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضي الله سبحانه فيما شاء . فلما اتى بها عثمان أمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له علي رضي الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] وقال ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] فلم نجده بقي إلا ستة أشهر . فقال عثمان : والله ما فطنت بهذا ، عليَّ بالمرأة ، فوجدوها قد فرغ منها . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/١٥٧) .

فلماذا تميَّز عليٌّ بهذه الميزة من العلْم والفقه والحجة ؟ لأنه تربَّى في حِجرْ النبوة فاستقى من نَبْعها ، وترعرع في أحضان العلوم الإسلامية منذ نعومة أظافره ، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهلية ، فلما تتفاعل عنده العلوم الإسلامية لا تلد إلا حقاً .

ثم يقول سبحانه ﴿إِذًا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعني : لو حصل منك قراءة أو كتابة ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت] أي : لكان لهم عُذْر ووجهة نظر في الارتياب ، والارتياب لا يعني مجرد الشك ، إنما شك باتهام أي : يتهمون رسول الله بأنه كان على علْم بالقراءة والكتابة ؛ لذلك وصفهم بأنهم مبطلون في اتهامهم له ﷺ .

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)﴾

﴿بَلْ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] حرف يفيد الإضراب عما قبله ، وتأكيد ما بعده ﴿هُوَ﴾ أي : القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] وقال ﴿فِي صُدُورِ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : في ذاكرتهم ؛ لأن الأذن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل ، فإنْ قبله يستقر في القلب وفي الصدر ، وفيه يتحول إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشكَّ ولا يتزحزح .

لذلك يقول تعالى عن القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] فقال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] أي :

مباشرة استقر في قلبه ، ولم يمُرّ على أذنك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ(١) مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى : بعد أنْ جاءهم القرآن وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوا ، فإنْ كذبوا بعدها أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

واقرأ مثلاً قوله سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] فلما كذَّبوا بالآية التى طلبوها أهلكهم الله ؛ لأن المسألة إذن ليست مسألة آيات وإقناع ، إنما هى الإصرار على الكفر ، إذن : فطلب الإنزال لآية خاصة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السماء ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطع العهد لرسوله محمد ﷺ ألاَّ يُعذِّب أمته وهو فيهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٤٥) : « قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي « آية » بالتوحيد ، وجمع الباقون ، وهو اختيار أبي عبيد ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

فهذا هو السبب المانع من أنْ تـأتى الآية المقترحة ، ثم إن الآيات المقترحة آيات كونية تأتى وتذهب ، كما تشعل عود الثقاب مرة واحدة ، ثم ينطفئ ، رآه مَنْ رآه ، وأصبح خبراً لمن لم يَرَه .

وكلمة ﴿لَوْلا .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] تستخدم فى لغة العرب استخدامين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية مثل : لولا زيد عندك لَزرتُك ، وهى هنا حرف امتناع لوجود ، فقد امتنعتْ الزيارة لوجود زيد . وإنْ دخلتْ على الجملة الفعلية مثل : لولا تذاكر دروسك ، فهى للحضّ وللحثّ على الفعل .

فقولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] كأن الآية التى جاءتهم من عند الله لا يعترفون بها ، ثم يناقضون أنفسهم حينما يقولون :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : أنتم معترفون بالقرآن ، مقتنعون به ، لكن ما يقف فى حلوقكم أن ينزل على محمد من بين الناس جميعاً ، ثم نراهم يناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسول الله حينما قالوا :

﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧)﴾ [المنافقون]

فما دُمْتم تعرفون أنه رسول الله ، فلماذا تُعادونه ؟ إذن : فالبديهة الفطرية تكذّبهم ، ينطق الحق على ألسنتهم على حين غفلة منهم .

ويرد الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] فهى عند الله ، ليست عندى ، وليست بالطلب حسب أهوائكم ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [العنكبوت] أى : هذه مهمتى ، واختار

الإنذار مع أنه ﷺ بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ؛ لأنهم أهل لِجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعني : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العِبر والعجائب ؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحَّكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

وقوله تعالى : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزِل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة روايةٍ وأمة حفظ .

ثم يأتي وقت الصلاة فيصلي بهم رسول الله بما نزل عليه من

---

(١) سبب نزول الآية : « قيل أن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة .. قال : أتي النبي ﷺ بكتف فيه كتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، أو كتاب غير كتابهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] . ذكره القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٤٩) .

الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه هبة ربانية منحها لرسوله ﷺ ، وخاطبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

وإلا ، فلَك أن تتحدى أكثر الناس حفظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها في المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] لكن لمن ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت] ؛ لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه ؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى في الذين يُحسنون استقبال كلام الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. ۝ ﴾ [فصلت]

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ۝ ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ في يده ليُدفئها في البرد ، ومَنْ ينفخ في الشاي ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ في الشمعة لتطفئها ، وتنفخ في النار لتشعلها .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝ ﴾ [الإسراء] ، ففرّق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعني : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاّ تعاودك

العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعتَ في شيء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن ، فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع في غفلة من سلوك النفس.

ولو طبقنا قضايا القرآن في نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعان وأخلاق ، هذه المعاني في الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكون سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس ؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسي ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسي ، وحين تسأل الطبيب النفسي تجد أن كل ما عنده عقاقير تهدئ المريض أو تهدّه فينام حتى لا يفكر في شيء ، وهل هذا هو العلاج ؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوى والنفسى ؛ فسلامة الجسم في أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنتَ من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حدّ التُّخمة ، فاقرأ في القرآن : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم تجد في السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : « بحسب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صلْبه ، فإنْ كان ولا بُدَّ : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه »[1] .

---

(١) عن المقدام بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجه في سننه (٣٣٤٩) .

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى « ثلث لنفَسه » ، وهل النفَس في المعدة ؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق في التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسي ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء في النفس البشرية ؛ لأن ملكات النفس ينبغي أنْ تظل في حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن في منهج ربك - عز وجل - حيث يقول سبحانه : ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا[1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد]

فمعنى ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] الانقباض ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] الانبساط ، وكلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذي لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية ؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم[2] :

إنَّ البليد قويُّ النفس عَاتيها ... وَفي البَلادة مَا في العَزْم منْ جَلَد
عَن البَلادة هَلْ مَادتْ رَوَاسيهَا ... فَاسْأل أُولي العَزْم إنْ خَارتْ عزائمهمْ ؟

فالذي تظنه بلادة هو عزم قويٌّ في استقبال الأحداث والصمود لها .

---

(١) أسيت عليه أسىً : حزنت . والأسى : الحزن . وأسيت لفلان : حزنت له . [لسان العرب - مادة : أسى] .

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

إذن : الرحمة فى منهج الله إن التزمنا به نأمن من الأدواء ، مادية كانت أم معنوية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(قُلْ) أى : للمنكرين لك ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : حسبى أن يشهد الله لى بأنّى بلّغتُ ، فشهادتكم عندى لا تنفع ، كما أنه لا ينفعنى إيمانكم ، ولا يضرنى كفركم ، فأجرى آخذه من ربى على مجرد البلاغ وقد بلّغتُ ، وشهد الله لى بذلك .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد] أى : أنكم لم تكتفوا بالآيات ، ولم تؤمنوا بها ، لكننى أكتفى برب هذه الآيات شهيداً بينى وبينكم ، إذن : هناك خصومة فى البلاغ بين محمد ﷺ وقومه الذين يُكذِّبونه فى البلاغ عن ربه .

فلا بُدَّ إذن من فَصْلٍ فى هذه الخصومة ، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق فى الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم ، وإما أن يشهد شاهد حَقٌّ لا شاهد زور ، ثم يعرض الأمر على القاضى ليحكم بالشهادة أو البينة .

ولا بُدَّ فى القاضى ألاّ يكون صاحب هوى ، ثم يأتى دور تنفيذ الحكم ، وهى السلطة التنفيذية ، وهذه أيضاً ينبغى ألاّ يكون لها

هوى ، فتنفذ الحكم على حقيقته ، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة ، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف ، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضى أو المنفِّذ للحكم ودلَّس فى التنفيذ لانقلبت المسائل .

أما فى حكومة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا ؟ لأنه سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت]

فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأخْفى ، فأىُّ شهادة إذن أعدل من شهادته ؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق ؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل فى تنفيذ الأحكام ؛ لأنه يُنفِّذ حكمه هو سبحانه .

إذن : مَنِ الفائز فى حكومة قاضيها الحق ـ تبارك وتعالى ـ وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه ؟ فاز رسول الله فى أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرون حين كفروا به ، ولم تكْفِهم البينة التى جاءتهم فى القرآن الكريم .

وعلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتى الأمور بتوقيتٍ منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أى : يقول للشىء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخَلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السموات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٧ ﴾ [طه] فهل هناك أخفى من السر ؟ قالوا : السر ما تُسِرُّه في نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون في نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝ ٢٩ ﴾ [النور] وقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝ ١١٠ ﴾ [الأنبياء]

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبعلْم ما نُبدي ، فهذا شيء غير مستور يعرفه الجميع ؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدي أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه ؛ لذلك نرى في المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً ؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة في الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً في الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن : فهو فى حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شيء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطوا علْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾[البقرة] أى : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقى : هو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذى قال الله عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن] فالرسول ـ إذن ـ لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ .. (٥٢)﴾ [العنكبوت] أى : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ .. (٥٢)﴾ [العنكبوت] الخالق واجب الوجود ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾ [العنكبوت] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر فى ذاته سبحانه ، ولا فى صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ، وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتى بلا أسباب ؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة واقعة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا

يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها ؛ لذلك يقال في الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .

وليقين الإنسان في الموت نراه يحب البقاء في ولده ، وفي ولد ولده ليبقى ذكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فَيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهي حياة الآخرة . إذن : فمَنِ الخاسرون ؟ الخاسرون هم الكافرون الذي قصروا حياتهم على عمرهم في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إنْ أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو وَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه .

﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت] لأن كل شيء عند الله بميقات وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهي آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] أي : بآجالهم المتفرقة . أمّا أجل القيامة فأجل واحد مُسمًّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بين الأجلين أن الآجال المتفرقة في الدنيا تنهي حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة .

والمعنى ﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] ويقول : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك لما عقد النبي ﷺ صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضى أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلي وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبي ﷺ دخل على أم سلمة رضي الله عنها وقال : « هلك المسلمون »[1] قالت : ولم يا رسول الله ؟ قال : « أمرتهم فلم يمتثلوا » فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلَّل من عمرته ، ففعل القوم مثله ، ونجحت مشورة السيدة أم سلمة ، وأنقذت الموقف .

ثم بيَّن الله لهم الحكمة في العودة هذا العام دون قتال ، ففي مكة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/٤) ضمن حديث صلح الحديبية الطويل من حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها فما قام رجل فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » .

إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر - رضى الله عنه - كعادته شديداً فى الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ « بلى » قال : أليسوا على الباطل ؟ قال ﷺ « بلى » قال : فلِمَ نُعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر[1] .. يعنى قِف عند حدِّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية - لا فتح مكة .

لماذا ؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأى ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمر الدعوة ونشرها فى ربوع الجزيرة العربية ، لكن فى وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله - عز وجل - لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] يعنى : فجأة ، وليس حسب رغبتهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى ؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا

---

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

بها . إذن : فليس المراد أنهم لا يشعرون بالبغتة : لأن شعورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشيء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أي : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العذاب فهو آتٍ لا محالة ، وإنْ كنتم في شوق إليه فجهنم في انتظاركم ، بل ستمتلئ منكم وتقول : هل من مزيد ؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعذِّب هو الله - عز وجل - فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى ﴿ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت] الإحاطة أن تشمل الشيء من جميع جهاته ، فالجهات أربع : شمال وجنوب وشرق وغرب ، وبين الجهات الأصلية جهات فرعية ، وبين الجهات الفرعية أيضاً جهات فرعية ، والإحاطة هي التي تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] يعني : من كل جهاتهم .

ومن عجيب أمر النار في الآخرة أن النار في الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخصاً بنار تحوطه لا يستطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبيعتها تعلو ؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفيء مثلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه

---

(١) سبب نزول الآية . قال القرطبي في تفسيره (٥٢٤٧/٧) : « قيل : نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء] .

تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفىء النار فيه ، أما في نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم :

﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر]

وهاتان الجهتان لا تأتي منهما النار في الدنيا : لأن النار بطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفىء . إذن : هذا ترقٍّ في العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التي تحرقهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذِّبين أراد أنْ يُحدث توازناً في السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكَى للكافرين ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِيَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً في كل شيء حتى في الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسى أنه عبد لله مقهور في أشياء لا يستطيع أنْ يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمردْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه في (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت ؟ إذن : فأنت في قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء في العبودية لله ، لكن الفرْق في العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجره في سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هي العبودية والعبادية معاً .

ومعنى ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] يخاطبهم ربهم هذا

الخطاب وهم في الأرض وفي سعتها ، ليلفت أنظارهم إلى أنهم سيُضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصْرِفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضي واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فأقِمْ حيث يكون »[1] .

فالذي تعانى منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التي وضعناها في جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة في الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادىء القرآن فلن يوجد شر في الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن]

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإنْ ضاق رزقك في مكان فاطلبه في مكان آخر ، وإلا فالذي يُتعب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هي السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضي لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا ؟ القيود التي وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

---

(١) عن الزبير بن العوام قال قال ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فاقم » أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/١) ، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٢٤٢/١) بلفظ « فأى موضع رأيت فيه رفقاً فاقم » وقال : « رواه الطبراني عن الزبير بسند ضعيف ، وعزاه النجم أيضاً لأحمد والطبراني عن الزبير بسند ضعيف » .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهْلِها ولكنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ثم يقول سبحانه ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن في المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك ؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرجني من دائرة الإيمان ، أو يحول بيني وبين أداء أوامر ديني .

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال في بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفي يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرِض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التي أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهي ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أمْن .

وقد علَّل رسول الله ﷺ أمره بالهجرة إليها بقوله : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد »[1] وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صدْق رسول الله ،

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » . حديث طويل أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) وأورده ابن هشام في السيرة بنحوه (١/ ٣٢١) .

وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة إلى أطراف الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمى مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشى مَنْ[1] يكلمه فى شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذى راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله[2] .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكَّن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار فى مدينة رسول الله أروع مثل فى التاريخ فى المواساة ، فالأنصارى كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله فى مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

---

(١) هو : عمرو بن العاص ، أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأى والحزم والمكيدة فيهم ، كان فى الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، أسلم فى هدنة الحديبية ، ولد ٥٠ ق. هـ ، وتوفى ٤٣ هـ بالقاهرة عن ٩٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٥/٧٩) . وذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٦٠) « أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة للنجاشى ليوقعوا بين المهاجرين والنجاشى ليسلمهم إليه ، وقال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

(٢) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلّوا عليه ، قال : فقمنا فصففنا عليه كما يصف على الميت ، وصلينا عليه كما يصلى على الميت » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠) .

وفى قوله سبحانه ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت] أسلوب يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة]

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك ، و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله - عز وجل - ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى - إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبى ﷺ فى الحديث الشريف : « فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧)﴾

يعنى : إنْ كنتم ستقولون - وقد قالوا بالفعل - ليس لنا فى المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق[2] ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التى نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت ؛ لأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) كتاب الإمارة (١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٠) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون : « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا ، فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] .

ومَنْ يدريكم لعلكم تعودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كما قال الله لرسوله : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص]

وعلى فَرْض أنكم لن تعودوا إليها فلن يُضيركم شيء ؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقوها بالموت . وكأن الحق - تبارك وتعالى - يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .

كما أننا نلحظ في قوله سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت] بعد ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ .. (٥٦)﴾ [العنكبوت] أن الخواطر التي يمكن أن تطرأ على النفس البشرية حين يُشرِّع الله أمراً يهيج هذه الخواطر مثل ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ .. (٥٦)﴾ [العنكبوت] وما تثيره في النفس من حب الجمع والتملك يجعل لك مع الأمر ما يهبِّط هذه الخواطر .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت] حتى لا نطمعَ في حطام الدنيا ، ويُلهينا إغراء المال والهجرة لجمعه ، فالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .

وهذه القضية واضحة في قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا .. (٢٨)﴾ [التوبة]

فلما أراد الله تعالى أن يُنهي وجود المشركين في البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم ، وأنها ستؤثر على تجارتهم وأرزاقهم في مواسم التجارة والحج .

لذلك قال بعدها مباشرة : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن

---

(١) العيلة : الفقر . والعَيِّل : الفقير . يقال : عال يعيل عيلة إذا افتقر . [لسان العرب - مادة : عيل] .

فَضْلِه .. (٢٨)﴾ [التوبة] فساعةَ يقرأونها في التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما في نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به . وهذا يعني أن التشريع يأتي ليعالج كل خواطر النفس ، فلا يتزعك من شيء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهب هذه المخاوف .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾

هذه في مقابل : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. (٥٥)﴾ [العنكبوت] وذكر المقابل لزيادة النكاية بالكافرين ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا .. (٥٨)﴾ [العنكبوت] أي : نُنزلهم ونُمكِّنهم منها ، كما جاء في قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١)﴾ [آل عمران] يعني : تُنزلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار في الدنيا ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦)﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧)﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢)﴾ [الكهف]

فإذا كانت جنة الدنيا على هذه الصورة من الخصْب والنماء والجمال ، وفيها أسباب القُوت والترف ، إذا كانَ ذلك في دنيا الأسباب التي نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه في الآخرة ؟

ومن عجائب الجنة أنها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجرى خلالها عبر الشُّطآن التى تحجز الماء ، أمّا في الجنة فتجرى أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لما كنا نسافر إلى بلاد المدنية والتقدُّم ، ونرى زخارف الحياة وترفها كنتُ أقول لمن معي : خذوا من هذا النعيم عظَة ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

فإذا رأيتَ نعيماً عند أحد فلا تحقد عليه ، بل ازْدَدْ به يقيناً في الله تعالى ، وأن ما عنده أعظم من هذا ، ألاَ ترى أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يخبرنا عن الجنة يقول : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد] فيجعلها مثلاً ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تؤدى المعاني التي في الجنة ولا تَصفها .

لذلك يقول النبي ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[(١)] فكل ما جاء فيها ليس وصفاً لها إنما مجرد مثَل لها ، ومع ذلك لما أعطانا المثل للجنة صفَّى المثل من شوائبه ، فقال : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[(٢)] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ

---

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة] . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٤٤ ، ٧٤٩٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) كتاب الإيمان .

(٢) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته ، فهو آسن . [القاموس القويم ١/٢٠] قال في التهذيب : هو الذي لا يشربه أحد من نتنه . [ذكره ابن منظور في لسان العرب - مادة : أسن] .

طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] ويكفى أن تعلم أن نعيم الجنة يأتى مناسباً لقدرة وإمكانيات المنعم سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أنْ يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) ﴾ [الواقعة] لا يُكدِّرها شيء .

إذن : فالرابع مَنْ آثر الآخرة على الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك ؟

ثم إنك تتمتع فى الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شيء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة فى الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .

أما فى الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهِى بكُنْ من الله تعالى .

لذلك سُئِل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ فقال : ولم التعجب ، ألاَ ترونَ الجنين فى بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط ؛ لأن الله تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط فى مشيمته لمات فى بطن أمه .

وقوله تعالى : ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت] نعم ، نعْم هذا الأجر ؛ لأنك مكثْتَ إلى سن التكليف تربَع في نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشيء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأيُّ أجر أسْخى من هذا ؟ ويكفي أن الذي يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

فهذه من صفات العاملين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت] فلا تظن أن العمل ما كان في بحبوحة العيش وترَف الحياة ، فالعامل الحق هو الذي يصبر ، وكلمة ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت]

فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر ؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة ؛ لذلك قال سبحانه ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران] ومعنى : صابره . يعني : تنافس معه في الصبر .

والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

وكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكانَهُ ... ليَمْضَغَ لاَ يَعْنيه حُلْو ولاَ مُرّ

فالمعنى ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا.. (٥٩)﴾ [العنكبوت] على الإيذاء ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾ [العنكبوت] أي : في الرزق ، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمون لأمر الرزق يقولون : ليس لنا هناك دار ولا عقار ولا.. إلخ . فأراد سبحانه أنْ يُطمئِن قلوبهم على مسألة الرزق ، فقال ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾ [العنكبوت]

فالذي خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك ، ومن عجيب أمر الرزق أن رزقك ليس هو ما تملك إنما ما تنتفع به حقيقة ، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك ، وقد يُطهى لك الطعام ، ولا تأكله ، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك ، وربما يصل إلى المعدة وَتقيئه ، وأكثر من ذلك قد يتمثل الغذاء إلى دم ثم ينزف منك في جُرْح أو لدغة بعوضة أو غير ذلك ؛ لأن هذا ليس من رزقك أنت ، بل رزق لمخلوق آخر .

إنك تعجب حينما ترى التمساح مثلاً على ضخامته وخوف الناس منه ، ومع ذلك تراه بعد أنْ يأكل يخرج إلى اليابسة ، حيث يفتح فمه لصغار الطيور ، فتتولى تنظيف ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، وترى بينهما انسجاماً تاماً وتعاوناً إيجابياً ، فحين يتعرض التمساح مثلاً لهجمة الصياد يُحدث الطير صوتاً معيناً يفهمه التمساح فيسرع بالهرب .

فانظر من أين ينال هذا الطير قوته ؟ وأين خبأ الله له رزقه ؟ لذلك يقولون (اللي شقُّه خلق لقُّه) .

وسبق أن ضربنا مثلاً على خصوصية الرزق بالجنين في بطن أمه ، فحينما تحمل الأم بالجنين يتحول الدم إلى غذاء للطفل ، فإنْ لم تحمل نزل هذا الدم ليرمى به دون أنْ تستفيد منه الأم ، لماذا ؟ لأنه رزْق الجنين ، وليس رزقها هي .

لذلك تجد الآية بعدما تقول[1] :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

يريد سبحانه أنْ يُطمئن خَلْقه على أرزاقهم ، فيقول ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كأيٍّ لها معَانٍ متعددة ، مثل كم الخبرية حين تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك ؟ يعني : كثيراً جداً ، كذلك في ﴿ وَكَأَيِّن .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : كثير كما في ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران]

والدابة : هي التي تدبّ على الأرض ، والمراد كل حيٍّ ذي حركة ، وقد تقول : فالنمل - مثلاً - لا نسمع له دبَّة على الأرض أيُعَدُّ من الدابة ؟ نعم فله دبَّة على الأرض ، لكنك لا تسمعها ، فالذي خلقها يسمع دبيبها ؛ لأن الذي يقبل الصغر يقبل الكبر ، لكن ليس عندك أنت آلة السماع .

بدليل أن الذي يعاني من ضعف السمع مثلاً ينصحه الطبيب

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلقط من التمر ويأكل ، فقال : يا بن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله . فقال : لكني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل مُلْك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين ؟ قال : فو الله ما برحنا حتى نزلت ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] . أخرجه الواحدي النيسابوري في أسباب النزول (ص ١٩٦) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٢٥٠) : « هذا ضعيف ، يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم ، اتفق البخاري عليه ومسلم ، وكان الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة من بعدهم من المتقين المتوكلين » .

بتركيب سماعة للأذن فيسمع ، وكذلك فى النظارة للبصر ، إذن : فكل شيء له أثر مرئى أو مسموع ، لكن المهم فى الآلة التى تسمع أو ترى ؛ لذلك يقولون إنْ أرادوا المبالغة : فلان يسمع دَبّة النملة .

ومعنى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت] ليست كلّ الدواب تحمل رزقها ، فكثير منها لا تحمل رزقاً ، ومع ذلك تأكل وتعيش ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأنها لا تقدر على حمله ، أو تقدر على حمله ولكنها لا تفعل ، فمثلاً القمل والبراغيث التى تكثر مع الإهمال فى النظافة الشخصية أتحمل رزقاً ؟ والناموسة التى تتغذى مع ضَعْفها على دم الإنسان الفتوة المتجبر ، الميكروب الذى يفتك بالإنسان .. إلخ هذه أشياء لا تحمل رزقها .

أما الحمار مثلاً فهو مع قدرته على الحمل لا يحمل رزقه ؛ لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ، وربما يدوس الأكل الباقى ، أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

وقد جعل الله الادخار فى هؤلاء لحكمة ولبيان طلاقة قدرته تعالى ، وأن الادخار عند هذه المخلوقات ليس قُصوراً من الخالق سبحانه فى أن يجعل بعض الدوابّ لا تحمل رزقها ، بل يخلق لها وسائل تعجز أنت عنها .

ولك أن تتأمل قرى النمل وما فيها من عجائب ، فقد لاحظ الباحثون فى هذا المجال أنك لو تركتَ بقايا طعام مثلاً تأتى نملة وتحوم حوله ثم تنصرف وترسل إليه عدداً من النمل يستطيع حمل هذه القطعة ، ولو ضاعفت وزن هذه القطعة لتضاعف عدد النمل .

إذن : فهى مملكة فى غاية التنظيم والدقة والتخصص ، والأعجب من ذلك أنهم لاحظوا على النمل أنها تُخرج فُتاتاً أبيض صغيراً أمام الأعشاش ، فلما فحصوه وجدوه الزريعة التى تُسبِّب الإنبات فى الحبة حتى لا تنبت ، فتهدم عليهم العُشّ ، فسبحان الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

وأعجب من ذلك ، وجدوا النمل يفلق حبة الكسبرة إلى أربعة أقسام ، لأن نصف حبة الكسبرة يمكنه أنْ يَنبت منفرداً ، فقسموا النصف .

إذن : فكثير من الدواب لا تحمل رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ⦗٦٠⦘﴾ [العنكبوت] فذكر الدواب أولاً فى مجال الرزق ثم عطف عليها ﴿وَإِيَّاكُمْ .. ⦗٦٠⦘﴾ [العنكبوت] فنحن معطوفون فى الرزق على الدواب ، مع أن الإنسان هو الأصل ، وهو المكرّم ، والعالم كله خُلِق من أجله ولخدمته ، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه : نحن نرزقكم وإياهم ، لماذا ؟ قالوا : لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها ، ولا تتصرف فيه ، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك .

وقد وقف المستشرقون الذين يأخذون القرآن بغير الملكة العربية يعترضون على قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. ⦗٣١⦘﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ .. ⦗١٥١⦘﴾ [الأنعام]

يقولون : أيّهما أبلغ من الأخرى ، وإن كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة .

وهذا الاعتراض ناتج عن ظنهم أن الآيتين بمعنى واحد ، وهما مختلفتان ، فالأولى ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] فالفقر هنا غير موجود وهم يخافونه . أما في : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فالفقر موجود فعلاً . فهما مختلفتان في الصَّدْر ، وكذلك مختلفتان في العَجُز .

ففي الأولى قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء] لأن الفقر غير موجود ، وأنت غير مشغول برزقك ، فبدأ بالأولاد ، أمَّا في الثانية فقال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] وقدم الآباء ؛ لأن الفقر موجود ، والإنسان مشغول أولاً برزق نفسه قبل رزق أولاده .

إذن : فلكل آية معنى وانسجام بين صَدْرها وعَجُزها ، المهم أن تتدبر لغة القرآن ، وتفهم عن الله مراده .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾ [العنكبوت] واختار هنا السميع العليم ؛ لأن الحق سبحانه له قيُّومية على خَلْقه ، فلم يخلقهم ثم يتركهم للنواميس ، إنما خلق الخَلْق وهو سبحانه قائم عليه بقيوميته تعالى ؛ لذلك يقول في بيان عنايته بصنعته ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] يعني : يا عبادي ناموا ملْءَ جفونكم ؛ لأن ربكم لا ينام .

ومناسبة السميع هنا ؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة ، أو يُحدث شيئاً يدل على أنه جائع ، فكأنه يقول : لم أجعلكم كذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى للذين لا تكفيهم آية القرآن التى نزلت على رسول الله ، ويطلبون منه آيات أخرى ، يقول لهم : لقد جعل الله لكم الآيات فى الكون قبل أنْ يرسل الرسل ، آيات دالة على الإعجاز فى السماوات وفى الأرض ، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر ؟

إن خلق السماوات والأرض معجزة كونية لا تنتهى ، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات ، وما جعلها الله إلا لبيان صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ليؤمن الناس بهم .

لذلك يقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] فخلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجاز للدنيا كلها ، وخصوصاً الكفرة فيها .

ومسألة الخلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها ـ كما سبق أنْ أوضحنا ـ لذلك يقولون هنا فى إجابة السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت] وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه ، فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذى أنطقهم بكلمة الحق ، وأظهر الحجة التى تبطل كفرهم .

وقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله ، وينصرفون عن الحق ؟

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت] : يُوسِّعه . ﴿ وَيَقْدِرُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى يضيق ، وآفة الناس فى هذه المسألة أنهم لا يفسرون الرزق إلا بالمال ، والرزق فى الواقع كل ما ينتفع به الإنسان ، فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والجبروت رزق ، والاستكانة رزق ، وإتقان الصَّنْعة رزق .. إلخ .

والله سبحانه يُوسِّع الرزق لمَنْ يشاء ، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء ، فالذى ضُيِّق عليه يحتاج لمن بسط له ، وكذلك يبسط الرزق فى شىء ويُضيِّقه فى شىء آخر ، فهذا بسط له فى العقل مثلاً ، وضيق عليه فى المال .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - نثر مواهب الملكات بين خَلْقه ، لم يجمعها كلها فى واحد ، وسبق أن أوضحنا أن مجموع الملكات عند الجميع متساوية فى النهاية ، فَمَنْ بُسط له فى شىء ضُيِّق عليه فى آخر ؛ ليظل المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج ، ولا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، وحتى تتكامل المواهب بين الناس ، فتتساند لا تتعاند .

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - حين يبسط الرزق لعبد ، ويَقْدره على آخر ، لا يعنى هذا أنه يحب الأول ويكره الآخر ، ولو نظرتَ إلى كل جوانب الرزق وزوايا العطاء لوجدتها متساوية .

وحين نتأمل قوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا

بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات .. (٣٢)﴾ [الزخرف] فأى بعض مرفوع ؟ وأى بعض مرفوع عليه ؟ الكل مرفوع فى جهة اختصاصه ، ومرفوع عليه فى غير جهة اختصاصه ، إذن : فالجميع سواء .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لهذه القضية . وقلنا : إن العظيم الذى يسكن القصر يحتاج إلى العامل البسيط الذى يُصلح له دورة المياه ، وينقذه من الرائحة الكريهة التى يتأفف منها ، فيسعى هو إليه ويبحث عنه ، وربما ذهب إليه فى محل عمله وأحضره بسيارته الفارهة ، بل ويرجوه إنْ كان مشغولاً .

ففى هذه الحالة ، ترى العامل مرفوعاً على الباشا العظيم ، فلا يظهر الرفع إلا فى وقت الحاجة للمرفوع .

وأيضاً لو لم يكُنْ بين الناس غنى وفقير ، مَنْ سيقضى لنا المصالح فى الحقل ، وفى المصنع ، وفى السوق .. إلخ لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج ، لا على التفضُّل . إذن : إنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقرنَّ أحداً ؛ لأنه قد يفضل عليك فى موهبة ما ، فتحتاج أنت إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾

وهنا أيضاً قالوا ﴿الله﴾ لأن إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونية واضحة لم يدَّعِها أحد ، فهى ثابتة لله

تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦٣)﴾ [العنكبوت] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٦٣)﴾ [العنكبوت] الذى أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [العنكبوت] لأنهم أقرُّوا بآيات الله فى خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به .

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون فى الإنسان الأعلى فى الوجود من حسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحياة موصوفة هنا بأوصاف ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف « الحياة الدنيا » فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها فى أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هى التى قال عنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ « الدار الآخرة » .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحسُّ والحركة فى الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شىء فى الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهى هذه الحياة : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فما يُقال له شىء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ [الأنفال]

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ،

وكذلك الحياة فى كل شىء بحسبه ، حتى فى الجماد حياة نلحظها فى أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقى مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

إذن : فكل شىء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتى فينا نحن ، وأذكر ونحن فى مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شىء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها المغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفى اتجاه معين ، إذن : فى الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التى تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن ؛ لأن حياتها ليست كحياتنا ، إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك لوجدته تغيُّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق - تبارك وتعالى - يصف الدار الآخرة بأنها ﴿ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هى هذه التى نحياها فى الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمَّا الحيوان فيعنى الحياة الأرقى فى الآخرة ؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق - سبحانه وتعالى - أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية فى قوله تعالى عن آدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر] فمن الطين خلق آدم ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء ؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذى يأتى به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾[الشورى] وسمَّى الملك الذى نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

إذن : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : الحياة الحقيقية التى لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شىء ، كما أن التنعُّم فى الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمَّا فى الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتى وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ولَعِب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقْصدَ لها إلا الحركة فى ذاتها دون هدف منها ؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدةَ منه « عبث » .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطى فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شىء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمَّا البالغ المكلف فاللعب فى حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به

إلى ما لم يكلف به ، ولهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث[1] .

فقوله تعالى ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التى تأتى باتباع المنهج .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعنى : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعني : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر . فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شىء فى موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق فى فهمه وتأمله ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦) ﴾ [لقمان] . أخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ .. (٦) ﴾ [لقمان] قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦) ﴾ [لقمان] قال : قراءة القرآن وذكر الله . نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٠٤] . وفى خبر آخر عنه أنه النضر بن الحارث .

وننظر في معطياته الحقيقية : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هي الحياة الحقيقية وهي الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله في الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هي وسيلة ، وأنت أيها الذي أعرضتَ عن منهج ربك جعلتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هي الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان ، وكذلك الحال في الفُلْك ، فهي وسيلة تُوصِّلك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هي غاية في حَدِّ ذاتها .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥) ﴾ [العنكبوت] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. (٣٨) ﴾ [هود] وقوله ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢) ﴾ [يونس] واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف] بل هي دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فهذه تعطينا أنهم ركبوا في السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين[١] .

---

(١) ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجي هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره ، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره ، اللهم لك عليَّ عهد ، لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رءوفاً رحيماً ، فكان كذلك . [أورده ابن كثير في تفسيره ٣/٤٢١] .

وفى لقطة أخرى يقول القرآن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

فمعنى ﴿ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢) ﴾ [يونس] أى : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاء خالص ويقين إيمان فى أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا فى أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله فى بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ فى كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥) ﴾ [العنكبوت] دعوة خالصة بيقين ثابت فى الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ولا خفى ، فلا ينفع فى هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَل من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم بدور الطبيب فى القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب فى وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا فى القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحمه فى رزقه ، ويصرف الناس عنه ؛ لذلك كان يذم فى الطبيب ويُشكِّك فى خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته: انتظرى إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب ـ يعنى : فى غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها في الذات البشرية لا تجد في النهاية إلا قوة واحدة هي قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذي أنكروا به وجود الله . وهذا يعني أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] شهدوا لأنهم ما يزالون في عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

والله خلق الإنسان خليفة له في الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل في الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذي خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتي في أرضي ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنكَ لست وحدك فيها ، ولكي تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجي ، وفي دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ

الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨)﴾ [العلق] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إليَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة في فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك ؟ لا شيء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدرى .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرّ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدى مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا في حقٍّ الله تبارك وتعالى ؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستَطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .. (١٠٧)﴾ [يونس] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك : لأنه ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. (١٠٧)﴾ [يونس]

هذه نصيحتي لك ؛ لأنك صنعتي ، وأنا أحب أن تكون صنعتي

على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك في دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذي يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة . ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب في السفينة خِفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا . فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله في (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ .. ⦗١٢⦘﴾ [يونس] الإنسان يعني مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .. ⦗١٢⦘﴾ [يونس] يعني : في كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أيِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تضطجع على جنبك .

فأنت في وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمّا في حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفي الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفي ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

وفي لقطة أخرى يقول تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] أيُّ ضر ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] ويا ليته نسي وسكت إنما ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام في هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً في موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية في الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكي عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو في بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكي في هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنَّا الضر إنما يعطينا المصل الواقي بصورة تحدث في الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون

بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث في حياتكم ، فكل منكم ينبغي أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

واللام في ﴿لِيَكْفُرُوا .. ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم[1] ، فاللام هنا لام الأمر[2] كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهي هنا مكسورة لأنها في بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها في قوله تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج]

وقوله سبحانه : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾﴾ [الطلاق]

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها في قراءة من

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٢١) : « هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل » .

(٢) قال جمال الدين بن هشام الأنصاري في مغني اللبيب (١/١٨٦) طبعة عيسى البابي الحلبي : « وأما ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت] فيُحتمل اللامان ، منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ، ويتعين الثاني في اللام الثانية في قراءة من سكَّنها ، فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ، ويؤيده أن بعدهما ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت] » .

سكنها ، وفى ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ..(٦٦) ﴾ [العنكبوت] وقوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فرْق في الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد فى المستقبل القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب فى الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد فى الدنيا وفى الآخرة فهى تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين في بادىء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ فى تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك تجد الدقة فى أَخْذ العهد من الأنصار للرسول ﷺ ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحموننى مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنتشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوى فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة »[1] .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون فى الدنيا أيضاً ،

---

(١) عن أبى مسعود البدرى قال : « انطلق النبى ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئتَ ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال . لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٠) .

فهي صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شيء أعظم مما في دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابي الذي أخبره النبي ﷺ بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة في فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أُقتل في سبيل الله ؟ قال : بلى ، فالقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء[1] .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن في مسائل الدنيا ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ في ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله في كونه لا تنتهي أبداً إلا بالسر الأعظم في الآخرة ، ففي زمن رسول الله قال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال في رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعني أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محص له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقي[2] رضي الله عنه وجزاه الله عنّا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر رضي الله عنه « أن رجلاً قال للنبي ﷺ يوم أحد » الحديث . قال ابن حجر العسقلاني في الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسمه » .

(٢) هو : محمد فؤاد عبد الباقي ، ولد في قرية بالقليوبية بمصر عام ١٨٨٢م ، ونشأ في القاهرة ، ودرّس في بعض مدارسها ، ثم عمل مترجماً عن الفرنسية في البنك الزراعي (١٩٠٥ – ١٩٣٢) وانقطع إلى التأليف ، توفي بالقاهرة عام ١٩٦٨م عن ٨٦ عاماً . [الأعلام للزركلي ٦/٣٣٣] .

قدَّم للإسلام خير الجزاء - أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصى ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذى من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسى لفظ الجلالة فى البسملة ، وبدأ من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً[1] . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾

(رأى) قلنا : تأتى بصرية ، وتأتى بمعنى علم ، ومنه قولنا فى الجدال مثلاً أرى فى الموضوع الفلانى كذا وكذا ، ويقولون : (وَلرأىَ الرؤيا انْمِ مـا لعِلْمَـا) ، وتجد فى أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما فى قوله سبحانه مخاطباً النبى ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]

ومعلوم أن النبى لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد فى هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه ﷺ : إذا أخبرتُك بشىء ، فإن إخبارى لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ۝٦٧﴾ [العنكبوت] فالحرم آمن رغم ما حدث له من ترويع

(١) أورد محمد فؤاد عبد الباقى (١١٢٥) موضعاً فى القرآن ذكر فيه لفظ الجلالة مجروراً مبتدئاً بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة]

قبل الإسلام حين فزَّعه أبرهة ، وفي العصر الحديث لما فزَّعه (جهيمان) ، وعلى مَرِّ العصور حدثتْ تجاوزات في الحرم تتناقض في ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة ﴿ حَرَمًا آمِنًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] في القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاثة إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - .

فحين دعا ربه : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] كان مكاناً خالياً ، لا حياةَ فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوِّمات الحياة ، فالإنسان لا يبنى ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوِّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعني يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

وبلد هنا نكرة تعني : أيّ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأيِّ بلد تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم] أي : هذه التي صارت بلداً أريد لها مَيْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أيّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذي تشترك فيه كل البلاد ، لماذا ؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجاني مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترىء الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا

الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَدَ شجره ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذي جعل لكم بلداً آمناً ، في حين يُتخطَّف الناس من حولكم ؟ لماذا لا تحترمون وجودكم في هذا الأمن الذي وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] كيف وقد حَمَيْتاكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها في حادثة الفيل ، لما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف[1] مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العلّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

فالعلة في أن جعلهم الله كعصف مأكول ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش] لأن اللام في (لإيلاف) للتعليل ، وهي في بداية كلام . فالعلة في أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلَّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذي يقصده الناس من كل مكان .

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذي أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش في رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترىء أحد عليهم أو يتعرَّض لتجارتهم وهم حُماة البيت ؟

فمعنى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكِّنهم من البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليهما أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذي وهبهم هذه النعم ، فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] حجة لله عليهم ، ففي الوقت الذي يُتخطَّف الناس فيه من حولهم كانوا هم في أمان ، فهي حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] غير مناسب للجواب ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] فما دمتم قلتم عن الدين الذي جاءكم به محمد أنه هدى - يعني هدى لله - فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون في هذا القول ، ولِمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر . والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ .. (٦٧) ﴾ [العنكبوت] أى : بالأصنام ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ [العنكبوت] قال ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ .. (٦٧) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون ؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نعَم الله عليهم أنْ يُطعمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهى ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهى ، فما الداعى للمعركة بين حَقٍّ وباطل ؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذى يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعنى ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر ؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلٌ وجودِ الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهى لمصلحته ولحكمة خلقها الله ، ومثَّلْنا لذلك بالألم الذى يتوجَّع منه الإنسان ، وهو فى الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذا الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألم يُنَبِّه إليه ، فيظل كامناً فى الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته ؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث ؛ لأنه يتلصَّص فى الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الألم لحكمة ؛ ليُنبِّهك أن فى موضع الألم عطباً ، وأن الجارحة التى تألم غير صالحة لأداء مهمتها ؛ لذلك يقولون فى تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر بأعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدرى بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون له صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام فى البلاد التى فيها أغلبية إسلامية ، لا بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففى بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً فى نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيمانى ليدخل الناس فى الإسلام ، إنما لجذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ

﴿ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذى يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً . فالزبَد مثَلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن علُوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذى خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسْلمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾

هذا استفهام يريد منه الحق - سبحانه وتعالى - قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر فى ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطنى شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى فى تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتى من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقى بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتى على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. (٦٨) ﴾ [العنكبوت] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وقد يكون الظلم بسيطاً هيّناً ، فالذى افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفترى على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدّك ، فمَنْ اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمى ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .. (٦٨) ﴾ [العنكبوت] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه . ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب

الاستفهام أيضاً ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهى تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفترى هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذِّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام فى ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت] استفهام إنكارى يُنكر أنْ يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم فى جهنم .

فالحق سبحانه فى إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين فى الجنة أماكن الكافرين فيها فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين فى النار بالرد ، فمَنْ كان له فى النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت] يجعل السامع يشارك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين استُهزِئ بهم في الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازى هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم ـ وفي هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين ـ فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضتْ عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا في الظلم .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

نقول : جَهِدَ فلان يجهد أي أتعب نفسه واجتهد : ألح في الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهي لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفي هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية في أحدهما ، والمفعولية في الآخر ، مع أنهما شركاء في الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل في مرة ، ومفعول في أخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذي له ضِلْع أقوى في الشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين في جهنم وحرْش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] إنما التأديب أن نجهر

بدعوتنا ، وأن نعلي كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[1] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا.. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

معنى (جاهدوا فينا) أي : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التي نجاهدها في الله كثيرة : خصومة في مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله في الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا في أتفه الأشياء التي تستخدمونها في حياتكم : هذا الكوب الزجاجي وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجِد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنا هذه الأكواب ؟

إذن : هي صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذي منحه الله إياه ، وأعمله في المواد التي جعلها الله في الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذي اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج في صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفيء ، وقد أخذ

---

(١) قال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر . [نقله القرطبي في تفسيره ٧/٥٢٥٥] .

(أديسون) كثيراً من الشهرة وخلَّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون في الشمس التي تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبَتْ الشمس عن الطلوع في يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم في أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّختُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أوْلَى بكم التفكُّر في عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لي أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضيء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففي الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس في ضوء شمعة ، وهذا في ضوء لمبة جاز ، وهذا في ضوء لمبة كهرباء ، وآخر في ضوء لمبة نيون ، فالأضواء في الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الرباني أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس في هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغي أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضيء بحكم الله ؟ أليس في صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدَّعي أن لله شريكاً في مُلْكه : مَن الذي قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لي لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوي ولا يؤمنون بالرسول ﷺ فنقول لهم : يكفي من جوانب العظمة في شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبحتم أنْ يأتي عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتي بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خصومة في دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة نقوم به في ضوء : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذي تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

فساعةَ ترى كلاً منهما في طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شيء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافي الذي لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغي على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه في المنهج مُحكماً يأتي محكماً في قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف في تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدي لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التي تُثار بين المسلمين ينبغي أن يكون لها جدل خاص في هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأي التزم به الجميع ، وما تُرِك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء في لغتنا مثلاً تأتي للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإنِ استمر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون

هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات]

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذى لا يمنع أن نختلف هو الذى يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدورْ الإصلاح وبدورْ الردع للباغى المعتدى حتى يفيء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيِّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما فى النفوس من غلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوى عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وقوى الضعيف بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكفتان ، فليعدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقى لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ لأن النبى ﷺ لما عاد من إحدى الغزوات قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[1] فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك فى ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها فى أهوائها ونزواتها ، وهى فى هذا كله تُلح عليك وتتسرَّب من خلالك .

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (١٢/ ٤٩٣) .

فعليك أنْ تقف فى جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك فى جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك فى هذه المقابلة وتبصَّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدَّها لك قبل أن توجد ، فالذى أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته . وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت فى قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، واذكر قصة الطفل (أيمن) الذى جاء أمه يبكى ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذى يتساقط من السجادة فى كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلى خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهى أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟ وهى فى الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التى أغضبتها منه .

وكذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه . فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلح عليك أنْ تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان

الذى يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن للنفس مدخلاً فى المعصية بدليل قول النبى ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقتْ أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب فى رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب فى رمضان ، وهذا يعنى أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) والبخارى فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال ابن حجر فى الفتح(٤/١١٤): « قال القاضى عياض : يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين » .

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، فى حين أن الشمس التى تخدمك تعمر ملايين السنين : إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن فى حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعنى أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهى حياتك فى الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت]

الجهاد فى سبيل الله أى فى الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنتَ بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك فى إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص فى عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شيء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً ﷺ ليقول : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى فى الدنيا

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما في السعي سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففي نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذي فتح الله عليه ، فباع كثيراً في أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَلٍ ، ولم ينظر إلى ربة البيت التي تنتظر عودة زوجها لتشتري ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسي حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أي : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون في إطار ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكي نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنَ إلا نفسك ؛ لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثِقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما أعطى للإنسان الاختيار في أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً في إنسان ،

ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتي جزاء الجهاد في ذات الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] أي : ندلّهم على الطرق الموصِّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش[1] ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة[2] ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره في خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل في شيء فأنت مفضول في أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] أي : السبل الموصِّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء في اليقين الإيماني الذي قال الله عنه : ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم .. (١٢)﴾ [الحديد]

---

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩) .

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر في الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا في علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا في العمل بما علمناه[1] فالذي جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا في العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج الله ، فلا يحرمك المزيد . كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقي الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه في القرآن يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدي به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذي وهبه الله للإمام علي - رضي الله عنه - حينما دخل على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا علي ؟

قال علي : قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة] يعني : أربعة وعشرون شهراً .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] وبطرح العددين يكون الباقي ستة أشهر ، وهي أقل مدة للحمل .

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥٢٥٥/٧) ، وتمامه : « ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا » .

هذا هو الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما علموا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذى كان ينزل الوحى على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً ـ رضى الله عنه ـ تربَّى فى حِجْر رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله فى الحق حجة ومنطق ، فمثلاً فى موقعة صِفِّين التى دارتْ بين على ومعاوية كان عمار بن ياسر فى صفوف على ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية »[1] فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف على ، فأسرع عمرو بن العاص وكان فى جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ فى الجيش ، إنْ هى استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هى ؟ قال : تَذكُّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال ـ أى على ـ فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق فى حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير فى حدود مائة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٩١/٢) ، والبخارى فى صحيحه (٥٤١/١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٦/٢) من حديث أبى سعيد الخدرى . وويح كلمة ترحُّم وتوجُّع ، تُقال لمن تنزل به بلية . [لسان العرب ـ مادة : ويح] .

جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد الولد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان في الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس ما فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح في نفسك المعاصي .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إني أخاف ألاَّ تثيبني على طاعتي ؛ لأنني أصبحتُ أشتهيها ، يعني : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لي شهوةَ نفس ، وقد أمرتنا يا ربِّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبني عليها ، ولمثل هذا نقول :

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت]

كلمة (مع) تفيد المعية ، والمعية في أعراف البشر أنْ يلتقي شيء بشيء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن في مسجد أبي بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل

وهو غَيْب ، مثل للذين قالوا لنبيهم(١) ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾[النساء]

لكن كيف يرونه والعظمة في الإله ألاّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل في أنفسنا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فتأمل في أقرب شيء إليك في نفسك ، لا في الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهي بين جنبيك ؟ أأدركتها بأيِّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هي معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهي خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله في الآخرة ؟ ففي الآخرة يخلقني الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب في الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط في الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون في الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب في ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل في بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط في مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهي ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شيء ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾ [النساء] . فهم اليهود سألوا نبيهم موسى عليه السلام ، فكان جزاءهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. (١٥٣)﴾ [النساء] .

فسأله : فأين تذهب الأرواح التى كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق في إطار : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] وهى فَيْض مما قال الله فيه : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال]

سُورَةُ الرُّومِ

سورة الروم[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ① ﴾

﴿ الٓمٓ ① ﴾ [الروم] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات السور، ولا أريد إعادة ما قُلْته، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً، وتكشف لنا الحكمة والأسرار في هذه الحروف.

وقلنا: إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف، كل حرف منها على حِدَة، مع أن القرآن في مجمله مبني على الوصل في آياته وفي سوره، فآخر حرف في السورة موصول بأول حرف في التي تليها - فهنا نقول: (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحْسِنينَ بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحيمِ ...).

(١) سورة الروم، هي السورة رقم (٣٠) في ترتيب المصحف الشريف، عدد آياتها (٦٠) آية. قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٥٧): « سورة الروم مكية كلها من غير خلاف ». نزلت قبل سورة العنكبوت وبعد سورة الانشقاق، فهي السورة رقم (٨٣) في ترتيب نزول القرآن. (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٢٧).

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (.... مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيمِ الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة في أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] . فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ، ويدلُّنا على ما في هذه الحروف من سِرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .

قال الحق سبحانه[2] :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ ﴾

كلمة ﴿ غُلِبَتِ .. ۝٢ ﴾ [الروم] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » . وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧٦/١٨) من حديث عوف بن مالك الأشجعي . قال الهيثمي في المجمع (١٦٢/٧) : « فيه موسى بن عبيد الربذي وهو ضعيف » .

(٢) **سبب نزول الآيات** : بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب ، فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ ...... ﴾ [الروم] إلى آخر الآيات .

وغُلب فريق ، فالذي غَلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق[1] بن إبراهيم .

﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ[2] وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ ﴾

قوله ﴿ أَدْنَى .. ③ ﴾ [الروم] يعني : أقرب لأرض العرب ، كما في ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ④② ﴾ [الأنفال] فالعُدْوة الدنيا أي : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى ﴿ فِي أَدْنَى الأَرْضِ .. ③ ﴾ [الروم] أقرب أرض للجزيرة العربية .

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ ﴾ [الروم]

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٢٤) : « الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم وهم أبناء عم بني إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالي وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة » .

(٢) الأرض هنا هي أرض الشام . وأدنى الأرض فيها ثلاثة أقوال :
- أذرعات : وهي ما بين بلاد العرب والشام . قاله عكرمة .
- الجزيرة : وهي موضع بين العراق والشام . قاله مجاهد .
- الأردن وفلسطين : قاله مقاتل .

قال ابن عطية :
- إن كانت الوقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة .
- وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى .
- وإن كانت بالأردن فهي أدنى أرض الروم . [تفسير القرطبي ٧/٥٢٦٠] .

بشرى للمسلمين ، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كتاب ، إذن : فالخلاف بيننا وبين الفرس في القمة الإلهية ، أمَّا الخلاف بيننا وبين الروم ففي القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا ؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .

وهذا من عظمة الإسلام ، فالذي يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذي لا يؤمن بالإله ؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء ؛ لذلك لما غُلبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون ، وفرح كفار قريش لأن في هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم .

وكلمة ﴿ غَلَبِهِمْ .. ③ ﴾ [الروم] مصدر يُضاف للفاعل مرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقول : أعجبني ضَرْبُ الأمير مذنبا ، فأضفت المصدر للفاعل ، وتقول : أعجبني ضَرْب المذنبِ فأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا ﴿ غَلَبِهِمْ .. ③ ﴾ [الروم] مصدر أضيف إلى المفعول .

لكن لماذا قال سبحانه : ﴿ سَيَغْلِبُونَ ③ ﴾ [الروم] وجاء بالسين الدالة على الاستقبال ، ثم قال بعدها ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ④ ﴾ [الروم] وهي أيضاً دالة على الاستقبال ؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتي فجأة ، إنما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النصر ، وتجهيز القوة اللازمة له ، فكأنهم في مدة البضع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النصر ، فالنصر إذن لا يأتي في بضع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضع سنين .

فهتلر مثلاً لما انهزم في الحرب العالمية ، وتألَّبتْ عليه كل الدول ، جاء في عام ١٩٣٩ وهدد العالم كله بالحرب ، فهل سقطت

عليه القوة التي يهدد بها فجأة ؟ لا ، بل ظل عدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّز الجيش والأسلحة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القوة التي يهدد بها .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الروم] ففرح المؤمنون حتى قال أبو بكر : والله لا يسرُّ الله هؤلاء ، وسينصر الرومَ على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تعني من الثلاثة إلى العشرة ، فأخذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا ؟ لأنه الصِّدِّيق ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُحمِّل المؤمنين مشقة الصبر مدة التسع سنين ، وهذه من الصديقية التي تميز بها أبو بكر رضى الله عنه .

لذلك قال أبو بكر لأُبيِّ بن خلف : والله لا يقرّ الله عيونكم ـ يعني : بما فرحتم به من انتصار الكفار ـ وقد أخبرنا الله بذلك في مدة بضع سنين ، فقال أُبيٌّ : أتراهنني ؟ قال : أراهنك على كذا من القلائص ـ والقلوص هي الناقة التي تركب ـ في ثلاث سنين عشر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلما ذهب أبو بكر إلى رسول الله ، وأخبره بما كان قال : « يا أبا بكر زِدْه في الخطر وماده » ، يعني زِدْ في عدد النوق من

عشرة إلى مائة وزده في مدة من ثلاث سنين إلى تسع . وفعلاً ذهب الصِّديق لأبيٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق في الرهان على مائة ناقة[1] .

فلما اشتدَّ الأذى من المشركين ، وخرج الصِّدِّيق مهاجراً[2] رآه أُبيٌّ بن خلف فقال : إلى أين يا أبا فصيل ؟ وكانوا يغمزون الصِّدِّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبَكْر هو الجمل القوى يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير ـ فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذى بيننا ؟ فقال : إن كان لك يكفلنى فيه ولدى عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين ؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ ؟ فقال : يعطيك ولدى .

وفى بدر[3] أصيب أُبيٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبي حاتم والبيهقى عن قتادة ، ولفظه . ان رسول الله ﷺ قال لأصحابه وعلى رأسهم ابو بكر : « ألم تكونوا أحقاء ان تؤجلوا أجلاً دون العشر ؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر » فزايدوهم ومادّوهم فى الأجل ، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٨٢] .

(٢) كان ابو بكر الصديق كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه . قاله ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٨٠) كان هذا فى الهجرة إلى المدينة . ولكن ثبت فى السيرة النبوية (١/٢٧٢) أن أبا بكر الصديق لما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له ، فخرج ابو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدُّغُنة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال ابن الدغنة : اين يا ابا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىَّ . ثم أدخله فى جواره ورجع ابو بكر إلى مكة .

(٣) أبىّ بن خلف قُتل فى غزوة أحد ، وليس فى غزوة بدر ، وقُتل بيد رسول الله ﷺ [ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢١٢)] . أما الذى قُتل فى غزوة بدر فهو امية بن خلف قتله بلال (السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٢٢) .

ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدقوا به »[١] .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التى يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذى اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية .. إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشىء الذى يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث فى أسرار الكون ليرتقى فى الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك ، وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

إذن : سَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ؛ لأنه سبحانه

---

(١) التصدُّق بالرهان بعدما جاء رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٨٠) وعزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أن أبا بكر هو الذى حمله إلى رسول الله فقال : « هذا السحت تصدق به » ، ولم يرد فيه ذكر لعبد الرحمن بن أبى بكر . فالله تعالى أعلم .

رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ فى إنسان سيئة واحدة تزهدك فى كل حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضى ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضى قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتى مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث فى الماضى ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث فى المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد فى مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشىء فى مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧﴾ [المجادلة]

فمَن الذى أخبر رسول الله بما فى نفوسهم ؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور فى نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذى أخرج مكنون صدورهم ؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله فى غزوة مؤتة[1] التى دارتْ على أرض الأردن ورسول الله ﷺ بالمدينة ـ ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التى حضرها رسول الله ، وكل حدث

---

(١) كانت فى جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعث واستعمل عليه زيد بن حارثة « زاد المعاد لابن القيم (٢/ ١٥٥) .

حربي لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هي التي انفردتْ بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها ؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور في الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلان فقُتل ، فأخذها فلان فقُتل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله[1] .

كما خَرق له حجاب الماضي ، فأخبره بحوادث في الأمم السابقة كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] ، ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥) ﴾ [القصص]

كما خرق له ﷺ حجاب المستقبل ، كما في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ .. (٤) ﴾ [الروم] فأروني أيّ قوة (كمبيوتر) في الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد ﷺ ، وهو النبي الأمي المقيم في جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس - يخبرنا بهذه النتيجة ؛ لأن الذي يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الذي أخبره ، وكون محمد ﷺ يعلنها ويتحدّى بها في قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦٢) .

ولهذه الثقة سُمِّي الصِّدِّيق صدِّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

ورسول الله ﷺ يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته في صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الروم] يعني : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر ؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبِّههم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم .

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله ؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذي يحزن لذلك ، والعاقل هو الذي يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرني دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرني بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد عدوي مني فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه ؛ لذلك يقول الشاعر :

عِدَايَ لَهُمْ فَضْـلٌ عليَّ ومِنَّـةٌ   فَعنْدي لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا
فَهُمْ كَـدَوَاءٍ والشِّفَاء بمُسْرِه   فَلا أبْعَد الرحمنُ عنِّي الأعَاديَا

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٦١) ، وكذا الحاكم في مستدركه (٣/٦٢، ٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وهُم بحثُوا عَنْ زَلَّتى فَاجْتَنبتُها وهُمْ نَافسُونى فَاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحكمة في أنْ ينتصر الباطل ، ألاَ ترى غزوة أحد ، وكيف هُزِم المسلمون لما خالفوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمعاً في مغنم ، انهزموا في أول الأمر ، مع أن رسول الله معهم ؛ لأن سنة الله في كونه تقضي بالهزيمة حين تخالف أمر رسول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم ؟ لو انتصروا لفقد أمر الرسول مصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفي يوم حنين : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥)﴾ [التوبة] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قلّة[1] ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا في بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم في النهاية .

إذن : فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصباً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] أيّ نصر الذي يفرح به المؤمنون ؟ أيفرحون لانتصار الروم على الفرس ؟ قالوا : بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفار وملاحدة ، ويفرحون أن بشرى رسول الله تحققتْ ، ويفرحون لأنهم آمنوا

(١) أخرج البيهقي في الدلائل (٥/١٢٣) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، وكانوا اثني عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥)﴾ [التوبة] وأورده السيوطي في أسباب النزول (ص ١٢٨) .

برسول الله ، وصدَّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه ؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذى يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله ﷺ . إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شيء واحد ، إنما عَدِّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذى انتصر فيه الروم صادف اليوم الذى انتصر فيه المسلمون في بدر[1] .

وقوله تعالى ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ .. ⑤﴾ [الروم] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤﴾ [الروم] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذى يغلب ولا يُغْلب ، فقاهريته سبحانه عالية فى هذه الصفة - ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحدث فى نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتى القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شيء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يُبقى الباطل ولا يُعلى الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يَعَضُّ الناس بالباطل ، ويشْقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

---

(١) عن أبي سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الم ① غُلِبَتِ الرُّومُ ②﴾ [الروم] إلى قوله ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ.. ⑤﴾ [الروم] قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الترمذى فى سننه (٢١٦٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾ [التوبة] ولم يقل : وجعل كلمة الله هي العليا : لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شيء إلى شيء ، أما كلمة الله فهي العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون ﴿لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ .. ﴿٦﴾﴾ [الروم] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذي كنتَ ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف] والمعنى : اجعل لنفسك مَخْرجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به . بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدركْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب

بينك وبين ما أردتَ قلت : شئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول في نادي قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعني البشارة بالخير القادم في المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد في حقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ [الرحمن]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فأيُّ نعمة في النار وفي الشواظ[1] ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه . ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهي عنه كالوالد الذي يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] نفى عنهم العلم أي : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾

إذا رأيت فعلاً نُفِى مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شيء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التي وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعي الذي نعمل به منذ عام ١٩٥٢ ، وكنا

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/ ٣٦١]

مُتحمِّسين له نُمجِّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق في هذا العصر ، روسيا التي تبنتْ النظام الشيوعي ودافعتْ عنه بكل قوة هي التي نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدي أصحابها ، ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلِصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التي ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت في المقاومة اليدوية ؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث في البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات في الماضي ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفي أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذي اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن علْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن في غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة[1] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (في تفاسيرهم) عن الحسن قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلي . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٨٤] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] فنفى الرمي ، وأثبته في آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشيء ، والنفي لشيء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما اختبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ؛ لأنه فعل فعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو في الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله ﷺ رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] هذه الحفنة ؛ لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر النظم الدنيوية والقوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضعت هذه القوانين وشُرعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذي يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطي لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسى عاقبة ذلك في الآخرة ؛ لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه)

واقرأ قوله تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات فى الآخرة ، والعاقل هو الذى يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هى مدة بقائك فيها ، هى عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهى بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهى ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئل الإمام على : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجوابَ لى ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب بالتالى مَنْ يعمرها لك ، وإنْ كنتَ تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ فى وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير فى ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الروم] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهِم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقظهم ، إنما ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم] يعني : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا في أنفسهم ، فيأتي لهم بالدليل مرة في أنفسهم ، ومرة في السموات والأرض .

الدليل في الأنفس يقول لك : فكِّر في نفسك . أي : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال في الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل في مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون في جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما في جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْي إليه . أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذي لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامتْ الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل في نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهي مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة في القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرّق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التي لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك.

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هي التي تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل في إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل في عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأة تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك في شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل في الأمعاء وفي المثانة ، ففي لحظة يزيد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا في أنفسنا ، ويكفي أن نقرأ : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فدعانا ربنا إلى البحث في أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما في السموات والأرض من آيات ، أما نفسي فهي أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. (٨) ﴾ [الروم] أي : فكّروا في أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومرائهم ، فحين تجادل

الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع فى مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر فى نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبى ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : يا مَنْ تفكِّرون فى صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر .. الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ]

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك فى النفس الرغبة فى العُلُو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعنى : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر فى أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السموات والأرض ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٨﴾ ﴾ [الروم]

وهناك آية أخرى تقدم التفكّر فى السماء والأرض على التفكّر فى النفس ، هى قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السموات والأرض بما فيهما

من أرض وسماء وشمس وقمر .. إلخ فهى كما هى منذ خلقها الله لم تتغير ، وهى تؤدى مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهى بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآيات والأدلة فى أنفسكم وفى السموات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهى الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر فى نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله - عز وجل - فحينما يضرب لى مثلاً يضرب لى بالأقوى ، فإنْ لم أُطِقْه يأتى لى بالأقل ، والمستفيد هو الذى ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٨) ﴾ [الروم] أى : من الكواكب والأفلاك والنجوم التى نشاهدها فى جوِّ السماء ، وكانوا فى الماضى لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هى السموات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢) ﴾ [فصلت]

فأين السماء من الكواكب التى تشاهدها ؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة ، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هى السموات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفلاحسة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذى مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون فى قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعى .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات - مع أنهم كفرة - يعلمون الغيب لأنهم توصلُوا بحسابات دقيقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة - كما سبق أنْ قُلْنا - ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذى أعطانا الله المقدمات التى توصل إليه ، وقد نوصل

العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا في ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه أيضاً من الآيات التي تُقدِّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الروم] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً . وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهي مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشيء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك . وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أي : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..

(٥)﴾ [يونس] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باق ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم] فبعد أن ينقضى هذا الأجل الذى أجَّله الله تُكوَّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشيء الثابت ، إنما يزول وينتهى .

ثم يقول سبحانه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم في تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم فى عقابهم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا فى المجتمع . فقلنا لهم : فما بال الذين ظلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم فى الدنيا عاقبه الله تعالى فى الآخرة ، ثم أنتم ترونَ مبدأ الثواب والعقاب فى كل شيء ، فالذى أطلق لنفسه العَنان فى الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعاثَ فى الأرض فساداً ، ولم تنله يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾ [الروم]

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمى من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقَب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم - خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهى كافية لمن اعتبر بها - فهؤلاء لم يسيروا فى الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع فى الدنيا فضلاً عما سيقع فى الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين فى الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغى أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا فى الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. (٩) ﴾ [الروم] لكن أنسير فى الأرض أم على الأرض ؟ هذا

من دقة الأداء القرآني ، ومظهر من مظاهر إعجازه ، فالظاهر أننا نسير على الأرض ، لكن التحقيق أننا نسير في الأرض ؛ لأن الذى خلقنا وخلق الأرض قال : ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ]

ذلك لأن الأرض ليست هي مجرد اليابسة التي تحمل الماء ، والتي نعيش عليها ، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوى ؛ لأنها بدونه لا تصلح للعيش عليها ، إذن : فغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما في الأرض .

والسير في الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار ، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات في الأرض التي تمر بها ، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفي كل منهما خيرات ؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتي كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض ، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذي لا يُسْتغنى عنه يوماً واحداً في هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم في عام ١٩٧٣ ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

حين تسير في الأرض وتنظر بعين الاعتبار تجد أنها مثل (البطيخة) ، لو أخذتَ منها قطاعاً طولياً فإنه يتساوى مع باقي القطاعات ، كذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اختلاف ألوانها ، فمجموع الخير في كل قطاع من الأرض يساوى مجموع الخيرات في القطاعات الأخرى .

الجبال التى هجرناها فى الماضى وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هى الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية فى سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغى لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده ؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الروم] أى : الأمم التى كذَّبَتْ الرسل ، وفى آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

ويخاطب سبحانه كفار قريش : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

أى : فى أسفاركم ورحلات تجارتكم ترونَ مدائن صالح وغيرها من القرى التى أصابها العذاب ما زالت شاخصة لكل ذى عينين .

ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر] وكانوا فى رمال

الاحقاف ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾ [الفجر] وهى الأهرامات ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾ [الفجر]

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمى نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حلَّ بها ، إذن : لكم فى هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٩ ﴾ [الروم] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركى قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنفال]

لذلك يقول بعدها : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ۝٩ ﴾ [الروم] فالأمم المكذِّبة التى أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض ، أى : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد غير ذى زرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. ۝٢٠٥ ﴾ [البقرة]

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدى مهمتها كما ينبغى ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات

ولا تعطى فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد فى التربة ، خاصة فى بداية الإنبات .

وفى موضع آخر يقول - سبحانه وتعالى - عن النبات : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

وفى قصة البقرة مع بنى إسرائيل لما تلكئوا فى ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ .. (٧١) ﴾ [البقرة]

يعنى : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا فى حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا فى سَقْيها بعد أنْ تُحرَث ؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعى لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففى هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى ﴿ عَمَرُوهَا .. (٩) ﴾ [الروم] أى : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التى جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقى والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرِّق هنا بين الزرع والغَرْس :

فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسه ويظل فترة طويلة يُدر عليك ، فمحصوله مُتجدِّد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذر الحبِّ ، أمّا الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. ⑨ ﴾ [الروم] فبعد أنْ أعطاهم مُقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. ⑨ ﴾ [الروم] أي : الآيات الواضحات الدالة على صدْق الرسول في البلاغ عن ربه وهذه التي نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلق على معان ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صدْقهم في البلاغ عن الله وهي المعجزات ، وآيات القرآن التي تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بيِّنة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑨ ﴾ [الروم] نعم ، ما ظلمهم الله ؛ لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأتَّى الظلم من الله تعالى ؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان ؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما في يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذي لا قدرةَ له على حماية حقه . فكيف إذنْ نتصور الظلم من الله - عز وجل - وهو سبحانه مالك كل شيء ، وغني عن كل شيء ؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فواحد يأتى إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبنى حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتى الفساد إلا من تدخُّل الإنسان : لذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة]

وينبغى على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة ١٩٥٠ كنا ننتظر السَّقاء الذى يأتى لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها فى (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد فى وضوئه عن هذا الكوز : لأننا نشترى الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكى يتوضأ من حنفية الماء ، وفى ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحى وللمياه الجوفية التى تضر بالمبانى وبالتربة الزراعية .

لذلك يحذرنا النبى ﷺ من الإسراف فى استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جارٍ[1] .

فمعنى الذين أساءوا : أى الذى جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعى أن تكون عاقبته من جنس فعله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ .. ﴿١٠﴾﴾ [الروم] والسُّوأى : مؤنث سيء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنَى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهى أفعل تفضيل من السُّوء .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدَّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين ؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزيء بالمجتهد ، والمنحرف يستهزيء بالمستقيم ، لماذا ؟

لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد فى اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين]

لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم فى الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مرَّ بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال : أفى الوضوء إسراف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جارٍ . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٢١) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) .

آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء في الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم ؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزِّ الطاعة ، وهو في جحيمة المعصية ؛ لذلك يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم ما زال يبدأ الخلق ؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذي خلق بَدْءاً ، فهو الذي يعيد ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وفي أعراف البشر أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه ؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أمّا الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] أي : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكنْ في الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون في حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما بكُنْ فيكون ، لكنْ يخاطبنا سبحانه على قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً

إلى الزرع تحصيده وتأخذ منه التقاوى للعام القادم ، وهكذا فى دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضّة الطرية بما فيها من جمال فى المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطِفتْ جفَّتْ ، لأن المائية التى بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر في الأثير ، ثم يتفتت الباقي ويصير ترابا ، فإذا ما زرعتَ وردة جديدة أخذت من المائية التي تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التي في الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهي أخرى ؛ لأن مُقوِّمات الحياة التي خلقها الله هي هي في الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء في الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طنا من الماء ، هل تحمل مثلها هذا الماء الآن ؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن .. الخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [الروم] نلحظ أن الكلام هنا عن الخَلْق ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [الروم] ولم يقل يرجع أي : الخَلْق ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون فى بَدْء الخلق ولا فى إعادته ، لكن يختلفون فى الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بيْنَ بين ، ففي حال الرجوع إلى الله ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد في البَدْء وفي الإعادة ، وانتقل إلي

الجمع في الرجوع إلى الله لاختلافهم في الرجوع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أي : يسكتون سكوت اليائس الذي لا يجد حجة ، فينقطع لا يدري ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب ، فلم يعُدْ لهم أمل في النجاة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] ، ومن ذلك سُمِّي (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

أي : لما نسوا منهج الله أراد سبحانه أن يعاقبهم في الدنيا ، وحين يعاقبهم الله في الدنيا لا يأخذهم على حالهم إنما يُرخي لهم العنان ، ويُزيد لهم في الخيرات ، ويُوسِّع عليهم مُتَع الدنيا وزخارفها ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .

كما أنك مثلاً لا تُوقِع عدوك من على الحصيرة ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون الانتقام أبلغ ، أمّا إنْ أخذهم على حال الضِّيق والفقر ، فالمسألة إذن هيِّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب !

ولنا ملحظ في قوله تعالى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً (١)﴾ [الفتح] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] والفرق بيْن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك ﴿فَتَحْنَا لَكَ .. (١)﴾ [الفتح] إنما على ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] فتعني ضدهم وفي غير صالحهم ، كما نقول في المحاسبة : له وعليه ، له في المكسب وعليه في الخسارة .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ (١٣)﴾

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم ؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

وكذلك يقول التابعون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغل كل منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع في الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقي عليه بالمسئولية .

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التي تربط أهل الباطل في الدنيا ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣)﴾ [الروم] ولِمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أي : الذين اجتمعوا في الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون في ناحية والكافرون في ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم في صفوفهم .

والتنوين في ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] بدل من جملة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] أي : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويفترقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وهنا هي الآيات تُرينا هذا التفصيل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] فما جزاؤهم ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] الروضة : هي المكان المليء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه غاية نادرة عند العرب ؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ في بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شيء عظيم ونعمة كبيرة . ومعنى ﴿ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] من الحبور[1] ، وهو الفرحة حينما

---

(١) قال الضحاك وابن عباس : يُكْرمون ، وقيل : يُنعمون . قاله مجاهد وقتادة . والحبرة عند العرب : السرور والفرح . ذكره الماوردي . وقال الأوزاعي : إذا أخذ أهل الجنة في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا وردّت الغناء بالتسبيح والتقديس . [تفسير القرطبي ٧/٥٢٦٨] .

يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(١) ﴿١٦﴾ ﴾

المحضر بالفتح : الذي يحضره غيره ، ولا تُقال إلا في الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجبرُهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه في كل أوقات اليوم والليلة ، في الصباح وفي المساء ، في العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنيٌّ عنهم . فإيمان المؤمنين لا يزيد

---

(١) محضرون : مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : مُعذّبون . وقيل : نازلون . والمعنى متقارب . [تفسير القرطبي ٧/٥٢٦٩] .

فى مُلْكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلْكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أنْ تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً فى اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التى ستقولها ، ثم هو الذى يُنهى اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفى أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذا لَبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا الله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسى عزّاً بأنّى عَبْدٌ يَحْتَفى بى بلاَ مَوَاعيدَ رَبّ
هُوَ فى قُدْسِه الأعزّ ولكن أنا ألقى كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ

ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهى قمة العزّ كله ، وفيها يأخذ العبد خير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه العبودية فى قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ .. ۝١٧ ﴾ [الروم] هى فى ذاتها عبادة وتسبيح لله تعنى : أنزّه الله عن أنْ يكون مثله شىء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ۝١١ ﴾ [الشورى]

فالله سبحانه مُنزّه فى ذاته ، مُنزّه فى صفاته ، مُنزّه فى أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ۝١١ ﴾ [الشورى]

وقلنا : إنك لو استقرأتَ مادة سبح ومشتقاتها فى كتاب الله تجد فى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] وفى أول سورة الحديد : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝١ ﴾ [الحديد] ثم ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ۝١ ﴾ [الجمعة]

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاَّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاَّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء فى القرآن : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى]

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التي لا يسمع لها صوتاً ولا حساً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كان تسبيح دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

إذن : ففهمك له غير حقيقي ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهي تُسبِّح على الحقيقة بلغة لا تعرفها نحن ، ولمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال في عموم الكائنات : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾﴾ [النور]

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثل في ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهي لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التي تتكلم أنت بها .

لذلك تأتي كلمة (سبحان الله) في الأشياء التي يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئتْ قوله تعالى في الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾﴾ [الإسراء] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر في هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود في ليلة واحدة .

---

(١) أوِّبي : ردِّدي الذكر والتسبيح مع داود . [القاموس القويم ١/٤٢] .

فبقانون البشر يصعُب عليك فهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ، وتدَّعي أنك أتيتها في ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ①﴾ [الإسراء] وهم أهل اللغة لعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال « أسرى بي » ، فلا دخلَ له في هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغي ، إنما أسرى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزِّه الله عن قوانينك في الزمان وفي المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرِّب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التي ستقطع بها المسافة ، فالذي يسير غير الذي يركب دابة ، غير الذي يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان في قوانين البشر : إذا زادت القوة قلَّ الزمن ، فكيف لو نسبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن انتفيا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقدَّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبي ﷺ لمرائي كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هي التي استغرقتْ الزمن ، أمّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

---

(١) أورد ابن هشام في السيرة النبوية (٣٩٨/١) « أن أكثر الناس في قريش قالوا : هذا والله الأمر البيِّن ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهرا مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التي يقف عندها العقل ، وينبغي أنْ نُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية في النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها في الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها في الحيوان ، هذه حدود العقل في مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لأن المستقبل سيكشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية في الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفي الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) .. الخ .

إذن : ساعة تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾

نلحظ أن قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [الروم] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] في ناحية ، و ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾ [الروم] في ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة في اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ

تحمده على أنه مُنزَّه عن المثيل ؛ لأنها في مصلحتك أنت ، وأنت الجاني لثمار هذا التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذي يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسجد ، لا تسجد لغيره ، فسجودك لوجه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذي تَجْتَويه[1] فيه   مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ نَجَاةْ

إذن : من مصلحتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذي لا مثيلَ له ، والقوى الذي لا يوجد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كبرياءه يحمي الضعيف أنْ يتكبّر عليه القوى ، يجب أنْ تحمد الله الذي تعبَّدنا بالسجود له وحده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجاك بالسجود له أنْ تسجد لكل قوى عنك ، وهذا من عظمته تعالى ورحمته بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقول في العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا في عبوديتك لله .

والخَلْق جميعاً بالنسبة لله تعالى سواء ، فليس له سبحانه من عباده ولد ولا قريب ، فلا مؤثرات تؤثر عليه ، فيحابى أحداً على أحد . فنحن جميعاً شركة في الله ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن] أي : لا شيء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعد التسبيح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ .. ۝١٨﴾ [الروم] لأن التسبيح

---

(١) الاجتواء : عدم موافقة الشيء للإنسان فتحدث كراهية له ، ومنها اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت في نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

ينبغي أنْ يُتبَع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أي : الحمد لله على أنني سبَّحت مسبِّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التي أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهي المساء والصباح والعشي ، وهي من العصر إلى المغرب ، ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية في كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأيّ صباح وأيّ مساء ؟ صباحي أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل في دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعني أن الله تعالى مُسبَّح معبود في كل لحظة من لحظات الزمن .

وفي ضوء هذا نفهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل »[1] فالكون لا يخلو في لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعني أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبَض : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. (٦٤) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحيِّ من الميت ، وإخراج الميت من الحيِّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا :

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففي المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخَلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذي هو صورة من صور الموت ؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفي الصباح وقت الحركة والعمل والسعي على المعاش ، فهو إذن حياة ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

ويُمثَّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء في بعض المواعظ : « لتموتُن كما تنامون ، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون » .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالتين ، وعاينّا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدِّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى هنا (الحي والميت) أي : في نظرنا نحن وعلى حَدِّ عِلْمنا وفَهْمنا للأمور ، وإلا فَكُلُّ شيء في الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقي إلا في الآخرة التي قال الله فيها : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فضِدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

وما دام كُلُّ شيء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شيء بالتالي حَيٌّ ، لكنه حي بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلِّموننا كيفية عمل

المغناطيس وانتقال المغناطيسية من قطعة مُمغنطة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك في اتجاه واحد ، وفعلاً شاهدنا أن قطعة الحديد تكتسب المغناطيسية .

وتستطيع أنْ تجذب إليها قطعة أخرى ، أليس هذا مظهراً من مظاهر الحياة ؟ أليست هذه حركة في الجماد الذي نراه نحن جماداً لا حياةَ فيه ، وهو يؤثر ويتأثر بغيره ، وفيه ذرات تتحرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقول لكل شيء موجود حياته الخاصة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها ؛ لأننا نفهم أن الحياة في الأحياء فحسب ، إنما هي في كل شيء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .

لذلك سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ لما سمع كلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتها ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف في طريقه ، فتحذر جماعتها ادخلوا مساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة في قولها .

﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝١٨ ﴾ [النمل] فهي تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فهذا عن غير مقصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمه غيره من الناس ، فقال ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ۝١٩ ﴾ [النمل]

فمعنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. ۝١٩ ﴾ [الروم] أي : في عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعني يُخرج

---

(١) معنى أوزعني : ألهمني وأولعني به . وتأويله في اللغة : كُفَّني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ، وكُفَّني عما يباعدني عنك . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

البيضة من الدجاجة ، ويُخرج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرج دجاجة ؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرج الحي من الميت من كل شيء موجود .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩) ﴾ [الروم] وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .. (٩٥) ﴾ [الأنعام] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .

لذلك وقف عندها المشككون في أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغةً ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم الملَكة العربية التي تستقبل كلام الله .

وهنا نقول : إن الذي يتكلم ربٌّ يعطي لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة في موضعها الذي لا تُؤدِّيه كلمة أخرى .

فقوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. (١٩) ﴾ [الروم] هذه في مصلحة مَنْ ؟ في مصلحتنا نحن ؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أخرج الحيَّ من الميت أخرج الميت من الحيِّ فانتبه ، وإياك أنْ تتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك في أيِّ لحظة .

وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على

الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخْرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .

لذلك تأمل قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. ② ﴾ [الملك] وفي نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل في الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ② ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر في الحياة تذكَّر الموت حتى لا تغترَّ بها ولا تطغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً في سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ٥٨ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦٠ ﴾ [الواقعة]

يعني : خذوا بالكم ، وافهموا أنني واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يَدُكَّ في الإنسان صفة الكبرياء والتعالي ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذكْر الموت وذكْر الحياة في آيات القرآن الكريم .

ثم ألاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب المرض والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا أقدار الله وأجله الذي أجَّله سبحانه ، وفي هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسْلَب منك الحياة التي يتفقها عدوها غرورك في أيِّ لحظة ، ودون أنْ تدري ودون سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجترئ على

المعصية ؛ لأنك قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غاية البيان ، كيف ؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدُّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (١٩) ﴾ [الروم] وفي موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثر فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهي نموذج حيٌّ مُشَاهد للخَلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. (٦٣) ﴾ [الحج] فهل اخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر ؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدي مهمتها .

والذي عاش في الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها في عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسي باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاك على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّرك وجعلك صالحة تقية قوَّامة ... الخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء ؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تلدَ بغير ذكورة .

والشاهد الذى نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هى مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يردْ على ذهنه المعنى الثانى ، ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة ؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتنُّ علينا بالشىء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس فى مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما فى الزرع وفى الماء وفى النار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

ونلحظ في الأداء القرآني في هذه الآيات الدقة في استخدام لام التوكيد في ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا.. (٦٥)﴾ [الواقعة] في الحديث عن الزرع؛ لأن للإنسان دوراً فيه، حيث يحرث ويغرس ويسقي، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه.

لكنْ لما تحدَّث عن الماء ذكر في نقضه ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد، لماذا؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه، ولا يدعيه أحد، فلا أنت يخرتَ الماء، ولا أنت أنزلتَ المطر، لذلك قال ﴿جَعَلْنَاهُ.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد.

أما عند ذكْر النار كنعمة من نعَم الله لم يذكر ما ينقضها، فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة] ولم يقُلْ مثلاً: لو نشاء لأطفأناها، تُرى لماذا؟ قالوا: لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُلوِّح بها لكل عاصٍ علّه يعود إلى الجادّة.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾ [الروم] كذلك: إشارة إلى ما سبق ذكْره من إحياء الأرض بعد موتها، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾

الكلام هنا عن بَدْء الخلق، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم.. (٢٠)﴾ [الروم] بصيغة الجمع، والمراد آدم ثم حواء، ثم بثَّ الله منهما

رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذي يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضي لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيَّة هي الحيوانات المنوية ؟

لو أن الحيوان المنويَّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب ، إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا في الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام ، وبالتالي فكُلٌّ منّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَم الذرِّ الذي شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التي شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : في كل منَّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيَّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هي التي شهدتْ هذا العهد ، وهي التي تمثل الفطرة الإيمانية في كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصي .. الخ .

والحق - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له في الأرض ، وتجلَّى عليه بصفات من صفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن علْمه علْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غنَاه غنىً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخلق يريد منّا أنْ نستعمل هذه الصفات التي وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تفعل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء .. وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة غيرها تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثر قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق - تبارك وتعالى - فلا يُعدِّي أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّي له القدرة ذاتها ، فيقْوَى الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذنْ : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إنني خلقتُه بيدي في قوله سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص]

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٦) ﴾ [التين] فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ .. (٢٠) ﴾ [الروم] أي : الأصل الذي خُلق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرتْ رائحته فهو حمأ

مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هي العناصر التي وردت ومراحل خَلْق الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول في مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدِّقه ؛ لأن الذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم في نظر الدين مُضلِّلون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول في شأنهم :

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

وبالله لو لم يَخُضْ العلماء في مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض ... الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صِدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبي ﷺ ويُشككون في صحتها ، هذه في الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة ـ التلاثي الذي نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول ﷺ : « يوشك رجل من أمتي يتكيء على أريكته يُحدِّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة في سننه (١٢) والدارقطني في سننه (٢٨٦/٤) من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه .

لماذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً في أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهي يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن ـ عندما يصلي المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة صليتَ المغرب ؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذي يتعصَّب له ، أم من السنة التي يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟!

إذن : فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حما مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكي لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا في الكون المشاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذي لم نشاهده .

ففي أعرافنا أن هَدْم الشيء أو نَقْض البناء يأتي على عكس البناء ، فما بُنِي أولاً يُهدَم آخراً ، وما بُنِي آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شيء في بنائه ، ثم يتصلَّب الجسد ويتجمد ، كما كان في مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى في المشهد حين بيَّن لنا الموت . فصدَّقنا ما قاله في الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر

الخصب والنماء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا ؛ لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا .. ۝ ﴾ [فصلت] يعنى : فى الجبال لأنها أقرب مذكور أو فى الأرض عموماً ؛ لأن الرواسى فى الأرض ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ۝ ﴾ [فصلت]

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذى يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمى أو الغِرْيَن الذى يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هى أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هى نفسها التى وجدوها فى جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صدْق آياته ولو من الكفار .

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ۝ ﴾ [فصلت] . وفى القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أنْ نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صدق .

تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف نتكلم ونتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها ، وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهى ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حين يعيش فى جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ

منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقي للإنسان المتكلم دلالات الإشارة في النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفي فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضروري ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبي ومن المحيط بي ، وتعلمها أبي من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر في الإنسان ، وسوف نعود بالتالي إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يردُّ علينا القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] هذا كلام منطقي استقرائي يدلُّ دلالة قاطعة على صدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] ثم : أي بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة ؛ لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجاءة ، والتي يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فاجأني ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون في الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

قلنا : إن الآية هي الشيء العجيب الذي يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورث إعجاباً ، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العجيبة الباهرة ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا.. (٢١)﴾ [الروم] يعني : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين إنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط في النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف في النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقّة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهي تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذي أراده الله وقصده للتكاثر في بني الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذي لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل تُجري مقارنة بين الليل والنهار .. أيهما أفضل ؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآني حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] أي : مختلف ، فلكلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعي والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعي إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتي لا معنى لها بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

وعجيب أن نسمع من يقول - من الرجال - ينبغي للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدي ما يؤديه . ونقول : لا تستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أي : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول ملَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو عليه . أو ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعني : من العرب ومن قريش .

والبعض[(1)] يرى أن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعني : خَلْق حواء من ضلع آدم ، فهي من أنفسنا يعني : قطعة منا ، لكن الكلام هنا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعني اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣)﴾ [الرعد]

وفي الماضي كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة] فماء المرأة لا دخلَ له في نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .

---

(١) قاله قتادة . المراد حواء خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم . ذكره القرطبي في تفسيره (٥٢٧٢/٧) . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٩٠/٦) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخذ به ابن كثير في تفسيره (٤٢٩/٣) .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم] يعني : من ذكور الأزواج[1] ، خلق منك ميكروبا هو (الإكس أو الإكس واي) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعني الذكورة والأنوثة .

وسبق أنْ ذكرنا في هذه المسألة قصة أبي حمزة الرجل العربي الذي تزوج على امرأته ؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقولُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التي أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :

ما لأبي حَمْزةَ لا يأتينا ... غضبانَ ألاَّ نلدَ البنينا
تالله ما ذلكَ في أيدينا ... ونحن كالأرضِ لزارعينا
نُعطي لهُمْ مثْلَ الذي أُعْطينا

والحق سبحانه بهذا يريد أن يقول : إنني أريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخلْق الله على أرض الله .

لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التي لا تجد مَنْ يزرعها ، ولو زُرعتْ لكفَتْ العالم العربي كله ، في حين نعيش نحن في الوادي والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرت في الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التي قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) أخذ بهذا الرأي القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٧٢) ، فقال : « ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٢١) ﴾ [الروم] . أي : من نطف الرجال ومن جنسكم » وذكر قول قتادة بصيغة التمريض (بالمبني) « قيل » . قال الشيخ أحمد شاكر في كتابه « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » لابن كثير - ص ٣٤ - طبعة صبيح : « صيغة الجزم : قال ، وروى ، وجاء ، وعن ، وصيغة التمريض (بالمبني) نحو : « قيل ، ورُوي عن ، ويُروى ، ويُذكر ، ونحوها .

لذلك لما أتيح لنا الحديث في الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة في كتاب الله لو عملتم بها لَحلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية في العالم كله ، يقول تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .

واقرأ قوله تعالى في هذه المسألة : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ۝٩٧﴾ [النساء] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره في أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذي وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير في كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه ؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك في ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهي من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذي يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى في مستوى دخل الفرد .

فالمسألة - إذن - ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج لله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، وصدق الله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه]

لذلك لو عشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.. (٢١)﴾ [الروم] هذه هى العلة الأصيلة فى الزواج ، أى : يسكن الزوجان أحدهما للآخر . والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه فى حركة العمل والسعى على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفى هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل فى غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدُر عليه صَفْوه . إذن : ينبغى للمرأة أنْ تعلم معنى السَّكَن هنا ، وأن تؤدى مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السَّكَن إنما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم] المودة هى الحب المتبادل فى (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهى تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد ؛ لأن الله يقول ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] هذا فى إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتى فى مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوى قد يصير إلى الضعف ، والغنى قد يصير إلى فقر ، والمرأة الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض ... الخ .

لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التى ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر .. الخ .

وكثير من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعون هذه التعاليم يعيشون حياتهم الزوجية على هذا المبدأ مبدأ الرحمة ، لذلك حينما يُلمِّحون للمرأة التي أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم ؟) .

هذه هي المرأة ذات الدين التي تعيدنا إلى حديث رسول الله في اختيار الزوجة : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها - وهذه كلها أغيار - ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] . فأنت وهي أبناء أغيار ، لا يثبت أحد منكما على حاله ، فيجب أنْ تردا إلى شيء ثابت ومنهج محايد لا هوى له ، يميل به إلى أحدكما ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا في دين الله .

لذلك يحذرنا النبي ﷺ : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخُلقه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكُنْ فتنة في الأرض وفساد كبير »[2] .

وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظري ، أو كذا وكذا ، لأن الزوجة ما جعلها الله إلا سكناً لك وأنثى ووعاءً ، فإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجد مصرفاً ، كما قال النبي ﷺ : « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته - أي : تعجبه وتحرك في نفسه نوازع - فليأتِ أهله ، فإنْ البُضْع واحد »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٢٨) ، وأبو داود في سننه (٢٠٤٧) ، وابن ماجة في سننه (١٨٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٠٨٤) ، وابن ماجة في سننه (١٩٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال البوصيري في الزوائد : « الحديث قد أخرجه الترمذي ورجح إرساله . ثم أخرجه من حديث أبي حاتم المزنيْ ، وقال فيه : إنه حسن » .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأته زينب ، تقضي حاجته ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : « إن المرأة تقبل في صورة شيطان ، وتدبر في صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه » .

وكلما طبَّق الزوجان المقاييس الدينية ، وتحلَّيا بآداب الدين وجد كل منهما فى الآخر ما يعجبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهرى مع الزمن فسيبقى جمال الروح ووقارها ، سيبقى فى المرأة جمال الطبع والسلوك . وكلما تذكرتَ إخلاصها لك وتفانيها فى خدمتك وحرْصها على معاشك ورعايتها لحرمة بيتك كلّما تمسكْت بها ، وازددتَ حباً لها .

وكذلك الحال بالنسبة للزوجة ، فلكل مرحلة من العمر جاذبيتها وجمالها الذى يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبيعة المرأة أنْ يظهر عليها علامات الكِبَر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعي هذه المسألة ، فلماَ سأل أحدهم الحسن : لقد تقدم رجل يخطب ابنتي وصفَته كيت وكيت ، قال : لا تنكحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم] يتفكرون فى هذه المسائل وفى هذه المراحل التى تمرُّ بالحياة الزوجية ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم فى مرحلة الكِبَر على الرحمة التى يجب أنْ يتعايش بها الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فى خَلْق السموات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال فى موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان]

فالسماء التى ترونها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة[1] ، ولكم أنْ تسيروا فى الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] يعنى : هى موجودة لكن لا ترونها[2] .

والمنطق يقتضى أن الشىء العالى لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تُمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغى أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا .. ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها - عز وجل - من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشاهداً فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ .. ﴿٧٩﴾﴾ [النحل]

فإنْ قُلْت : يمسكها فى جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التى تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها فى الجو ، نقول :

---

(١) قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . [تفسير ابن كثير ٣/٤٤٢] وقال (٢/٤٩٩) : « قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعنى : بلا عمد . وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾﴾ [الحج] » .

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عمد لا ترونها . (نقله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٤٢) وقال (٢/٤٩٩) : « روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا تُرى » .

وتُمسك أيضاً في جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ .. (١٩) ﴾[الملك]

فترى الطير في السماء ماداً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه في جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر] مع أنها خُلقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر .. الخ .

ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله في الإنسان : ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ [الشعراء] وقال : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلق اللسان على اللغة ؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً في عملية النطق ، حيث يشترك معه في النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية .. الخ ، لكن اللسان هو العمدة في هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعني اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذي علَّمه اللغة حين علَّمه

الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك ترى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال : لأن الاسم أظهر ، ألاَ ترى أن الفِعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فعْل) هي ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدة ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصري ، وهذا سوداني ، وهذا سوري ، مغربي ، عراقي ... الخ نشترك جميعاً في لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم في البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدي إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و ... الخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] يعني : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن في آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش في مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة

منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغاء الشاة ، ورُغاء الإبل .. الخ لكن بالله أسألك : لو سمعتَ صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان ؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما في الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز في نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو في رقته أو في تضخيمه .. الخ . فلماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقي الأصوات ؟

قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق اللهُ فيه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسه ... الخ .

وفي ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

لذلك نرى رجال البحث الجنائي ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجاني .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. ﴿١٣﴾ [الحجرات]

فالتميُّز والتعارف أمر ضرورى لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط .. الخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لتستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] أى : فى الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة ﴿لَآيَاتٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] لنعتبر بها ، فالخالق سبحانه إنْ وحَّد الصفات فدليل على الحكمة ، وإن اختلفت فدليل على طلاقة القدرة ، وانظر مثلاً إلى الصانع الذى يصنع أكواب الزجاج ، تراه يأخذ عجينة الزجاج ويصبُّها فى قالب فتخرج جميعها على شكل واحد ، أما الخباز مثلاً فيأخذ العجينة ويجعلها رغيفاً فلا ترى رغيفاً مثل الآخر .

أمَّا الخالق - عز وجل - فيخلق بحكمة وبطلاقة قدرة ، ويخلق سبحانه ما يشاء ، غير محكوم بقالب معين .

وقوله ﴿لِّلْعَالِمِينَ.. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] أى : الذين يبحثون فى الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون فى بطونها ، ويَسْبِرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم فى مستقبل حياتهم ، كما ترى فى المخترعات والاكتشافات الحديثة التى خدمتْ البشرية ، كالذى اخترع عصر

البخار ، والذى اخترع العجلة ، والذى اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين .. الخ . إذن : تمر على آيات الله فى الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

والعالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق فى الماضى على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هى أوسع من ذلك . فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] على إطلاقها فلم يُحدِّد أى علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالِم كل مَنْ يعلم حقيقة فى الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالِم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التى عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم فى الإسلام ألاَّ يُدخل علماء الشرع أنفسهم فى الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم فى علوم الشرع .

والذى أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين - هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحِم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون

الأرض كرة تدور أو لا تدور ؟ ما الحرام الذى زاد بدوران الأرض وما الحلال الذى انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك تسمع مَنْ لا عِلْم له بالشرع يعترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفة العلم أن يقحم العالم نفسه فيما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يستشهد رجال الدين على عدم كروية الأرض بقوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩) ﴾ [الحجر] ولو تأملوا معنى ﴿ مَدَدْنَاهَا .. (١٩) ﴾ [الحجر] لما اعترضوا ؛ لأن معنى مددناها يعنى : كلما سِرْتَ فى الأرض وجدتها ممتدة لا تنتهى حتى تعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهذا يعنى أنها كرة لا نهاية لها ، ولو كانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول للعلماء عموماً : لا تُدخلوا أنوفكم فيما لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحابه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٦٠) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾

كذلك من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله ﴿ مَنَامُكُم .. (٢٣) ﴾ [الروم] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سرِّ

النوم ، ولم يعرفوا - رغم ما قاموا به من تجارب - ما هو النوم ، لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومها أحد مهما أُوتى من القوة ، ومهما حاول السهر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبه النوم فينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسفة النوم ، لا أن نعرف كيف ننام ، إنما أن نعرف لماذا ننام ؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعين للرؤية ، والأذن للسمع .. الخ ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل ، فتحتاج أنت - بدون شعورك وبأمر غريزى - إلى أن ترتاح كأنها تقول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتى بالاستدعاء ؛ لأنك قد تستدعى النوم بشتى الطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جاءك هو غلبك على أيِّ حال كنتَ ، ورغم الضوضاء والأصوات المزعجة تنام . لذلك يقول الرجل العربى : النوم طيف إنْ طلبتَه أعْنَتك ، وإنْ طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كونى جميل فى النوم ، يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] فكل ما فى الوجود يُسبِّح حتى أبعاض الكافر وأعضاؤه مُسبِّحة ، إنما إرادته هى الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكَّ عن هذه الإرادة يوم القيامة ، فتشهد عليه بما كان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

وسبق أنْ مثَّلْنَا لذلك بقائد الكتيبة حين يطيعه جنوده ولو فى

الخطأ ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

مع أن هذه الجوارح هي التي نطقتْ بكلمة الكفر ، وهي التي سرقتْ .. الخ ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده ؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحُجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفيني أقلّ وقت لأرتاح ، لماذا ؟ لأن فكرك في الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك في راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية ؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفي ضوء هذا الفهم نفهم قول النبي ﷺ : « تنام عيني ولا ينام

قلبى »[1] لأنه ﷺ حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفى العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا ؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأىّ عبادة أعظم من هذه ؟

ونلحظ فى هذه الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفى آية أخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾ [القصص] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار .

وهذا أسلوب يُعرف فى اللغة باللفّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملةً ، وتتركه لذكاء السامع ليُرجِع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبى وجَفْنى واللسَانُ وخَالِقى ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور

فجمع المحكوم عليه فى ناحية ، ثم الحكم فى ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

---

(١) حديث متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) أن عائشة سئلت : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عينى ، ولا ينام قلبى » .

وهاتان الآيتان من الآيات التى وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا فى الآية التى معنا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الروم] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعى .

وفى الآية الأخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿٧٣﴾﴾[القصص] ثم قال ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ تتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين فى المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات فى الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الروم] يعنى : طلب الرزق والسَّعْى إليه يكون فى النهار ويكون فى الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التى يستمر ليلها مثلاً ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر ؟ أم يجعلون من أشهر الليل ليلاً ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً ؟ لا مانع من ذلك : لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص] وذيَّل

الآية بأفلا تسمعون ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] وذيَّل هذه بأفلا تبصرون ، لماذا ؟

قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا يصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هي الوسيلة التي تؤدي مهمتها في الليل عندما لا تتوفر الرؤية .

وفي موضع آخر : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا في الزمن العادي الذي نعيشه ، أما في بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر ؟

فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خِلْفة له ، لكن الليل في هذه الحالة لا يكون خلفة لشيء ، والنص السابق يوضح أن كلاًّ منهما خِلْفة للآخر ، إذن : فما حَلُّ هذا اللغز ؟

مفتاح هذه المسألة يكمن في كروية الأرض ، ولو أن رسول الله ﷺ أخبر في بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .

والحق - سبحانه وتعالى - لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلق الله تعالى الشمس في مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتي الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل في هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .

وما دام أن الخالق - عز وجل - أخبر أن الليل والنهار كل منهما

خلْفة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد اللّيل ويوجد النهار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلف كل منهما الآخر ، ولا يتأتَّى ذلك إلا إذا كانتْ الأرض مُكوَّرة ، فما واجه الشمسَ منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فالحق سبحانه ينفي هنا أنْ يسبقَ اللَيلُ النهارَ ، فلماذا ؟

قالوا : يعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، ألاَ تراهم يلتمسون أول رمضان بليله لا بنهاره ؟ وما داموا يعتقدون أن الليل سابق النهار ، فالمقابل عندهم أن النهار لا يسبق الليل ، هذه قضية أقرَّها الحق سبحانه ؛ لذلك لم يعدل فيها شيئاً إنما نفى الأولى ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..(٤٠)﴾ [يس]

إذن : نفى ما كانوا يعتقدونه ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. (٤٠)﴾ [يس] وصدَّق على ما كانوا يعتقدونه من أن النهار لا يسبق الليل . فنشأ عن هذه المسألة : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا وُجدا في وقت واحد ، فما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾

نلحظ فى تذييل الآيات مرة يقول سبحانه ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم] ومرة ﴿ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم] ومرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ [الروم] أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾ [الروم] فتختلف الأدوات الباحثة فى الآيات .

والبعض يظن أن العقل آلة يُعملها فى كل شىء ، فالعقل هو الذى يُصدِّق أو لا يُصدِّق ، والحقيقة أنك تستعمل العقل فى مسألة الدين مرة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك ، فأنت تستعمل العقل فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فإنْ هداك العقل إلى أن الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلا هو ووثقتَ بهذه القضية ، فإنها لا تطرأ على تفكيرك مرة أخرى ، ولا يبحثها العقل بعد ذلك ، ثم إنك فى القضايا الفرعية تسير فيها على وَفْق قضية الإيمان الأولى فلا تحتاج فيها للعقل .

لذلك العقلاء يقولون : العقل كالمطية توصلك إلى حضرة السلطان ، لكن لا تدخل معك عليه ، وهكذا العقل أوصلك إلى الإيمان ثم انتهى دوره ، فإذا ما سمعتَ قال الله فأنت واثق من صدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقلَ .

وحين يقول سبحانه : يعقلون يتفكرون يعلمون ، حين يدعوك للتدبُّر والعظة إنما ينبه فيك أدوات المعارضة لتتأكد ، والعقل هنا مهمته النظرُ فى البدائل وفى المقدمات والنتائج .

كما لو ذهبتَ مثلاً لتاجر القماش فيعرض عليك بضاعته : فهذا صوف أصلى ، وهذا قطن خالص ، ولا يكتفى بذلك إنما يُريك جودة بضاعته ، فيأخذ (فتلة) من الصوف ، و (فتلة) من القطن ، ويشعل النار فى كل منهما لترى بنفسك ، فالصوف لا ترعى فيه النار على خلاف القطن .

إذن : هو الذى يُنبِّه فيك وسائل النقد ، ولا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته ، أما الآخر الذى لا يثق فى جودة بضاعته

فإنه يلجأ إلى ألاعيب وحيل يغرى بها المشترى ليغُرّه .

كذلك الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا إلى البحث والتأمل فى آياته فيقول : تفكَّروا تدبَّروا ، تعقَّلوا ، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم ، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه ، وهو الإيمان .

والبرق : ظاهرة من ظواهر فصل الشتاء ، حيث نسمع صوتاً مُدوِّياً نسميه الرعد ، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع فى الجو نسميه (برق) ، وهو عامل من عوامل كهربة الجو التى توصَّل إليها العلم الحديث ، لكن قبل ذلك كان الناس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلا أحد أمرين : إما أنْ يأتى بصاعقة تحرقهم ، أو ينزل عليهم المطر ، فيخافون من الصاعقة ويرجون المطر .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤) ﴾ [الروم] ليظل العبد دائماً مع ربه بين الخوف والرجاء .

لكن أكُلّ الناس يرجون المطر ؟ هَبْ أنك مسافر أو مقيم فى بادية ليس لك كِنٌّ تكنُّ فيه ، ولا مأوى يأويك من المطر ، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره ، لذلك من رحمته تعالى أن يغلب انفعال الطمع فى الماء الذى به تحيا الأرض بالنبات .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٢٤) ﴾ [الروم]

وكلمة السماء لها مدلولان : مدلولٌ غالب ، وهى السموات السبع ، ومدلول لُغوى ، وهي كل ما علاك فأظلّك ، وهذا هو المعنى المراد هنا ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤) ﴾ [الروم] لأن المطر إنما ينزل من السحاب ، فالسماء هنا تعنى : كل ما علاك فأظلّك .

ولو تأملتَ الماء الذى ينزل من السماء لوجدتَه من سحاب متراكم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. ﴿٤٣﴾﴾ [النور]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفية تكوُّن السُّحُب ، وأنها نتيجة لبخر الماء ، لذلك من حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والربع يابسة ، ذلك لتتسع رقعة بَخْر الماء ، فكأن الثلاثة الأرباع جعلت لخدمة الرُّبْع ، وليكفى ماء المطر سكان اليابسة .

وبيَّنا أهمية اتساع مسطح الماء فى عملية البخر ، بأنك حين تترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدة طويلة يظل كما هو ، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً ، أمّا لو سكبتَ ماء الكوب على أرض الغرفة مثلاً فإنه يجفُّ فى عدة دقائق لماذا ؟ لأن مسطح الماء اتسع فكَثُر الماء المتبخِّر .

ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعملية التقطير التى نُجريها فى الصيدليات لتحصل منها على الماء النقى المعقم ، وهذه تقوم على نظرية استقبال بخار الماء من الماء المغلى ، ثم تمريره على سطح بارد فيتكثف البخار مُكوِّناً الماء الصافى ، إذن : فأنت حينما تستقبل ماء المطر إنما تستقبل ماءً مقطراً فى غاية الصفاء والنقاء ، دون أن تشعر أنت بهذه العملية ، ودون أن نُكلِّفك فيها شيئاً .

وتأمل هذه الهندسة الكونية العجيبة التى ينشأ عنها المطر ، فحرارة الشمس على سطح الأرض تُبخِّر الماء بالحرارة ، وفى طبقات الجو العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السحاب ، ومن العجيب أننا كلما ارتفعنا ٣٠ متراً عن الأرض تقل الحرارة درجة ، مع أننا نقترب من الشمس ؛ ذلك لأن الشمس لا تُسخِّن

الجو ، إنما تُسخِّن سطح الأرض ، وهو بدوره يعطى الحرارة للجو ؛ لذلك كلما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة .

ومن حكمة الله أنْ جعل ماء الأرض الذى يتبخر منه الماء العَذْب جعله مالحاً ؛ لأن ملوحته تحفظه أنْ يأسن ، أو يعطن ، أو تتغير رائحته ، تحفظه أن تنمو به الطفيليات الضارة ، وليظلّ على صلاحه ؛ لأنه مخزن للماء العذب الذى يروى بعذوبته الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

السماء هنا بمعنى السموات السبع التى تقوم بلا عَمَد ، وقلنا : إن الشىء الذى يعلوك إما أنْ يُحمل على أعمدة ، وإما أنْ يُشدَّ إلى أعلى ، مثل الكبارى المعلقة مثلاً ، وكذلك السماء سقف مرفوع لا ترى له أعمدة . إذن : لا تبقى إلا الوسيلة الأخرى ، وهى أن الله تعالى ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج] فهى قائمة بأمره .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] لا يهتز لها نظام أبداً ، ولا تجد فيها فروجاً ، لأنها محكَمة البناء ، وانظر إليها حين صفاء السماء وخُلُوها من السحب تجدها ملساء ذات لون واحد على اتساعها ، أيستطيع أحد من رجال الدهانات أن يطلى لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف ؟

وإذا أخذنا السماء على أنها كُلُّ ما علاك فأظلّك ، فانظر إلى

الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكيف أنها تقوم بأمر الله خالقها على نظام دقيق لا اختلالَ فيه ، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر ، ولا شيئا منها خرج عن مساره .

وصدق الله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء] فلكل منها سرعة ، ولكل منها مداره الخاص ونظام بحسبان ؛ ذلك لأنها تقوم بأمر الله وقدرته تعالى فهى منضبطة تؤدى مهمتها دون خلل ، ودون تخلّف .

فمعنى ﴿تَقُومَ.. (٢٥)﴾ [الروم] يعني : تظل قائمة على حالها دون فساد ، وهو فعل مضارع دالٌ على استمرار . وحين تتأمل : قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشمسية غير الشمس ، فلما اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى التى تدور حولها .

والعجيب أنها لا تدور فى دوائر متساوية ، إنما فى شكل إهليلى ، يتسع من ناحية ، ويضيق من ناحية ، وهذه الكواكب لها دورة حول الشمس ، ودورة أخرى حول نفسها . فالأرض مثلاً لها مدار حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة ، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار ، وكل هذه الحركة المركبة تتم بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط .

وهذه الكواكب تتفاوت فى قُرْبها أو بُعْدها عن الشمس ، فأقربها من الشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المشترى ، ثم المريخ ، ثم زحل ، ثم أورانوس ، ثم نبتون ، ثم أبعدها عن الشمس بلوتو . ولكل منها مداره الخاص حول الشمس وتسمى (عام) ، ودورة حول نفسه تسمى (يوم) .

وعجيب أن يوم الزهرة ، وهو ثانى كوكب من الشمس يُقدَّر بـ ٢٤٤ يوماً من أيام الأرض ، فى حين أن العام بالنسبة لها يُقدَّر بـ ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، فالعام أقل من اليوم ، كيف ؟ قالوا : لأن هذه دورة مستقلة ، وهذه دورة مستقلة ، فهى سريعة فى دورانها حول الشمس ، وبطيئة فى دورانها حول نفسها .

ولو علمتَ أن فى الفضاء وفى كون الله الواسع مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية فى (سكة التبَّانة) ، وهذا كله فى المجرة التى نعرفها - لو علمت ذلك لتبيَّن لك عظَم هذا الكون الذى لا نعرف عنه إلا القليل ؛ لذلك حين تقرأ : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات] فاعلم أنها مسألة لا نهايةَ لها ولا حدودَ فى علمنا وفى عقولنا ، لكن لها نهاية عند الله .

ولا أدلَّ على انضباط حركة هذه الكونيات من انضباط موعد الكسوف أو الخسوف الذى يحسبه العلماء فيأتى منضبطاً تماماً ، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب ودورانها ؛ لذلك نقول لمن يكابر حتى الآن ويقول بعدم دوران الأرض : عليك أن تعترف إذن أن هؤلاء الذين يتنبأون بالكسوف والخسوف يعلمون الغيب . فالأقرب - إذن - أن نقول : إنها لله الذى خلقها على هذه الهيئة من الانضباط والدقة ، فاجعلها لله بدل أنْ تجعلها للعلماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الروم] معنى ﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الروم] المراد النفخة الثانية ، فالأولى التى يقول الله عنها : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس] والثانية يقول فيها : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس]

فـالأولى للموت الكلى ، والثـانيـة للبعث الـكلى ، ولو نظرتَ إلى هاتين النفختـين وما جعل الله فيهما من أسرار تلتقى بمـا فى الحياة الدنيا من أسرار لوجدتَ عجباً .

فكل لحظة من لحظات الزمن يحـدث فيهـا ميـلاد ، ويحدث فيـها مـوت ، فنحن مخـتلفـون فى مواليدنا وفى آجـالنا ، أما فى الآخـرة فالأمر على الاتفاق ، فـالذين اختلفوا في المواليد سيتـفقون فى البعث ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس]

والذين اختلفوا في الموت سيتفقـون فى الخمود : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس] فالمـيلاد يقابـله البعث ، والموت يقابله الخمود . إذن : اخـتلاف هذه يعالج اتفاق هذه ، واتفاق هذه يعالج اختـلاف هذه ؛ لذلك يقول : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ .. ﴿٩﴾﴾ [التغابن]

والنفخـة الثانية يؤديها إسـرافيل بأمر الله ؛ لأن الحق - سبـحانه وتعالى - يزاول أشيـاء بذاته ، ولا نعلم منها إلا أنه سبـحانه وتعالى خلق الإنسان وسوّاه بيده ، كمـا قال سبحانه : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. ﴿٧٥﴾﴾ [ص] أما غير ذلك فهو سبحانه يزاول الأشياء بواسطة خَلْقه فى كل مسائل الكونيات .

تأمل مـثلاً : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر] فالمـتوفِّى هنـا الله عز وجل ، وفى مـوضع آخر : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾﴾ [السجدة] فنقلها إلى ملَك الموت ، وفى موضع آخر : ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام] فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة ، وهم جنود لملَك الموت .

وبيان ذلك أنه سبحانه نسب الموت لنفسه أولاً ؛ لأنه صاحب الأمر الأعلى فيه ، فيأمر به ملَك الموت ، وملك الموت بدوره يأمر جنوده ، إذن : فمردُّها إلى الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ [الروم] أي : حين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجاءة ، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، ميلاد الدنيا لم يكُنْ فجاءة ، بل على مهل ، فالمرأة قبل أنْ تلد تشاهد حملها عدة أشهر ، وتعاني هي آلام الحمل عدة أشهر ، فلا فجاءة إذن .

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦)﴾

نعرف أن (مَنْ) للعاقل ، ولنا أن نسأل : لماذا خصَّ العاقل مع أن كل ما في الكون خاضع لله طائع مُسبِّح يدخل في دائرة القنوت لله ؟ قالوا : لأن التمرد لا يأتي إلا من ناحية العقل ؛ لذلك بدأ الله به ، أما الجماد الذي لا عقلَ له ، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شيء على الله ، لا الجماد ولا الحيوان ولا النبات .

تأمل مثلاً الحمار تُحمِّله القاذورات فيحمل ، فإذا رقَّيْته وجعلته مطية للركوب لا يعترض ، لا عصى في الأولى ، ولا عصى في الأخرى ؛ لأنه مُذلَّل لك بتذليل الله ، ما ذلَّلته لك بعقلك ولا بقوتك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وضربنا لذلك مثلاً بالجمل لما ذلَّله الله لك استطاع الغلام الصغير أنْ يقوده ويُنيخه ويركبه ويحمله ، أما الثعبان الصغير فيُخيفك رغم صِغَره ؛ لأن الله لم يُذلِّله لك .

ونقف هنا عند قوله تعالى ﴿مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ..(٢٦)﴾ [الروم] فمن في السموات نعم هم قانتون لله أي : خاضعون له سبحانه ، مطيعون لإرادته لأنهم ملائكة مكرّمون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

فما بال أهل الأرض ، وفيهم ملاحدة وكفار ليسوا قانتين ، فكيف إذن نفهم ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم]

قالوا : لأنهم لما تمرَّدوا على الله وكفروا به ، أو تمرَّدوا على حكمه فعصَوْه لم يتمردوا بذواتهم ، إنما بما خلق الله فيهم من اختيار ، ولو أرادهم سبحانه مقهورين ما شذَّ واحد منهم عن مراد ربه ، والله عز وجل لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة ، إنما يريد لعبده أنْ يأتيه طواعية مختاراً ، بإمكانه أن يكفر ومع ذلك آمن ، وبإمكانه أن يعصى ومع ذلك أطاع .

فلو أرادهم الله مؤمنين ما وجدوا إلى الكفر سبيلاً ، ولعصمهم كما عصم الأنبياء ، ربك يريدك مؤمناً عن محبة وإخلاص لا عن قهر وغلبة ؛ لذلك قال إبليس في جداله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فلا قدرة له على عباد الله المخلصين ، الذين اختارهم الله لنفسه ، ولا سلطانَ له عليهم ، فإبليس إذن ليس في معركة مع ربه ، إنما في معركة مع الإنسان . وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

ولما عشق هؤلاء المتمرِّدون على الله التمرد ، وأحبوه زادهم الله

منه وأعانهم عليه ؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، وهو سبحانه الغنى عن خَلْقه ؛ لذلك لما خلق الجنة خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ آمنوا ، ولما خلق النار خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ، وترك لنا سبحانه الاختيار : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنتم أحرار ، فأنا مستعد للجزاء على أيِّ حال تسعكم جنتى ، إنْ آمنتم جميعاً ، ولا تضيق بكم النار إنْ كفرتم جميعاً .

ونقول لمن تمرَّد على الله : ينبغى أن تكون منطقياً مع نفسك ، وأن تظل متمرداً على الله فى كل شىء ما دمت قد ألفتَ التمرد ، فإنْ جاءك المرض تتأبى عليه ، وإنْ جاءك الموت ترفضه ، فإذا لم تستطع فأنت مقهور لله خاضع له ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) ﴾ [الروم] خاضعون ، إما عن اختيار ، وإما عن قهر فى كل أمر لا اختيار لك فيه ، إذن : فأنت قانت رغماً عنك ، وقنوتك مع تمرُّدك أبلغ فى الشهادة لله .

إذن : فالمؤمن خاضع لله فى منطقة الاختيار ، وهى الإيمان والتكاليف ، وخاضع لله فيما لا اختيارَ له فيه كالقضاء والأمور الاضطرارية ، فهو يستقبلها عن رضا ، أما الكافر فهو خاضع لله لا يستطيع الفكاك عن قضائه ولا عن قدره رغماً عنه فى الأمور التى لا اختيارَ له فيها ، لكنه يستقبلها بالسُّخْط وعدم الرضا ، فهو كافر بالله كاره لقضائه .

فنقول لمن تمرد على الله فكفر به ، أو تمرَّد على أحكامه فعصاها : ما لكم لا تتمردون على الله فيما يقضيه عليكم من أمور

اضطرارية ؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيار في غير محلِّه ؛ لأن الذي يختار ينبغي أنْ يأخذ الاختيار في كل شيء ، لكن أنْ تختار في شيء ولا تختار في شيء آخر ، فهذا لا يجوز .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا ؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس في دعوته ؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه ؛ لذلك يؤكد لهم في مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] استُهلّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفي آية أخرى ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة . والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسَّاً ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف تطمع في إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته ؟

فالمعاني التي خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذي يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذي يحكم موازين الحياة ؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعاني لا تُدرَك بالحواس ، فهل رأيتم العدل ؟ هل سمعتم العدل ؟ هل شممتم العدل ؟ ... الخ .

إذن : فالمعانى العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك ؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك ؟

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذى من عظمته أنه لا يُدرك ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]

لذلك نقرأ فى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] فنرى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو علَم على واجب الوجود يأتى بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شىء إلا الله : لأنه لا شىء فى الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. ﴿٢٧﴾﴾ [الروم] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإنْ ذكرت الاستمرارية فى الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفى كل وقت ترى فى خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضى (بَدَأَ) ومرة بالمضارع (يَبْدأ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً تشاهده فى الإنسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات .. الخ .

وبالخَلْق المتجدِّد للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذين يقولون بتناسخ الأرواح ـ يعني : أن الروح تخــرج من جسد فتحلُّ في جسد آخر ـ وهذا يعني أن تكون المواليد على قدر الوَفَيَات ، ويعني أن يظل العالم على تعداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكثافة السكانية التي يشكو العالم منها الآن ، وهذه تكفي لهدم هذه النظرية .

والحق سبحانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غير الخالق سبحانه ، فمن الناس مضلون سيضلونكم في هذه المسألة ، فلا تُصْغُون إليهم ؛ لأن الله يقول : ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وقد رأينا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول بأن الإنسان أصله قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسان ، فلماذا لم تتطور باقي القرود ؟ ولماذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلِق آدم وحتى الآن إلى شيء آخر ؟ وكيف نصدق هذه الضلالات ، وربنا سبحانه يقول : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات]

ويقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] فإياك أنْ تقول : إن شيئاً تطور عن شيء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة ﴿يُعِيدُهُ.. (٢٧)﴾ [الروم] أي : إلى الخَلْق فهي بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعني

يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول : ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [الروم] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أى : فى القيامة .

وقوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] أى : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال فى حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون ؛ لأنه سبحانه لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتيا وامرأته عاقر : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٩)﴾ [مريم] ذلك لأن طلاقة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم]

فالأمر عجيب فى نظر مريم ، أن تأتى بولد بدون زوج ؛ لكنه ليس عجيباً فى قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتى الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .

وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله فى قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه فى النار كان بالإمكان أنْ يُنزل الله على النار مطراً فتنطفىء .

لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحِجَاج ، ويبطل كفرهم ، فهاهم قد ظفروا به وألقَوْه فى قَعْر النار ، وهى على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شىء هام ، هو أن الله تعالى ربٌّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده

القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق . وهنا تكمن العظمة وتظهر الحجة ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

ونلحظ فصاحة الأداء في ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدَّم المتعلق الذي حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ [الفاتحة] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك . كذلك هنا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] الحقيقة ليس في الأمور بالنسبة لله تعالى هيِّن وأهون ، إنما في عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن . وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر ؟

لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٤٥)﴾ [آل عمران] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا أب له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٢٧) ﴾ [الروم] له المثل الأعلى يعنى : أن الله تعالى لا مثيلَ له ، فإنْ شابهه سبحانه شيء من خَلْقه فى صفة من الصفات فخُذْها في إطار التقريب للمعنى ، وفى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَيٌّ والله حَيٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عزّ وجل .. وهكذا .

وقوله ﴿ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ.. (٢٧) ﴾ [الروم] نقول : عَالٍ وأعلى ، فهى أفعل تفضيل بمعنى : الذى لا يُشابه ولا يُضَاهى ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فينفى أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله ؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مثْله شيء .

وطريقة العرب فى الأداء فى مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد فى الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطينى صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شيء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

إذن : فالأسد أقوى من زيد فى هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبَّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] تعنى : إنْ وُجِد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المثْل ، فتفيتَ المثل من باب أوْلَى ؛ لأنّ الأضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى ؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلِّى للخَلْق مثلاً فى دنياهم ، ويجعل من ذاته ـ سبحانه وتعالى ـ المماثلة . يقول تعالى ليُقرِّب لأفهامنا كيفية نوره : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب المثَل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هي المصباح ، لكن الله يقول ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] والمشكاة تجويف في الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا في الماضي يضعون المصباح في هذه الفجوة ليضيء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوِّيه ؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مثَل المشكاة التي فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقي في وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ، وهو فتيل يُوقَد في الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفي لاحتراق الفتيل ، فيأتي الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك في زجاجة ليست عادية ، إنما ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] أي : مثل الدرة التي تضيء بذاتها . هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فتصوَّر هذا المصباح في مكان ضيق لا في الحجرة كلها ، إنما في المشكاة كيف يكون ضوؤه ؟

كذلك تنوير الله ـ سبحانه وتعالى ـ للسماوات وللأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذي وصفنا .

ولهذا المثل قصة شهيرة فى الأدب العربى ، فقد فطن إليها أبو تمام[1] فى مدحه أحد الخلفاء ، وحين أراد أنْ يجمع له ملكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... وفى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدى كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائى بالكرم ، وأحنف بن قيس بالحلم حتى قيل « أحلم العرب » فلا يُغضبه شيء أبداً ، ولا يُخرجه عن حلْمه ، حتى أن جماعة قصدوا أنْ يُخرجوه عن حلْمه ، فتكون سابقة لهم فتبعوه فى الطريق ، وأخذوا يهزءون به وهو يضحك ، حتى قارب من الحى ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال : أيها الفتية ، لقد قربنا من الحىِّ ، فإنْ كان فى جوفكم استهزاء بى فافرغوا منه ؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

أما إياس بن معاوية فكان مَضْرب المثَل فى الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين ؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ فى البَأْسِ والنَّدَى ... بِمَنْ لَوْ رآهُ كَانَ أصْغر خَادِمِ

فَفِى جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنتَرٍ ... وأمْضَى وفى خُدَّامه ألفُ حاتمِ

فلما قيل لأبى تمام : كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

---

(١) هو : حبيب بن أوس بن طيء ، قال أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى (ص ١٧٣٨) : « شاعر لطيف الفطنة ، دقيق المعانى ، سلك فى البديع والمطابقة مسلكاً لم يسبقه من تقدَّمه إليه ، وإن كانوا هم الذين فتحوه له » .

لاَ تُنكروا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ   مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاس

فالله قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنُـوره   مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراسِ[1]

ومع دقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التى مع أبى تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر ؛ لأنه استدرك على ما يمكن أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى في الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى في السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما في السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى في السماوات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم] أى : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) النبراس : المصباح والسراج ، وهو ثلاثى مشتق من البرس الذى هو القطن . قال ابن سيده : وإنما قضينا بزيادة النون لأن بعضهم ذهب إلى أن اشتقاقه من البرس الذى هو القطن ، إذ الفتيلة فى الأغلب إنما تكون من قطن . [لسان العرب - مادة : برس] .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم] أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٩٢) وعزاه للطبرانى وابن مردويه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان وللتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج] فهذا كثير فى كتاب الله ، والمثل يُضرب ليُجلى حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعنى إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرْضِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل]

وقولنا فى مسألة سكِّ العملة : ضُربَ فى كذا ، فكان الضرب يُحدث فى المضروب أثرا باقيا ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بتَرْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثل يوضح الشيء الغامض توضيحا بيِّنًا كما تُسَكّ العملة ، ويجعل الفكرة فى الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى فى مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهى جُعْبة السهام ، والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبيا أخذ يُعِد كنانته وقَوْسه للرمى لكن لم يمهله الظبى وفَرَّ هاربا ، فقال له آخر

وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل في مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب في كل مناسبة مشابهة ، ويقال في أيِّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أنْ تُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدِم على أمر دون أنْ يُعِدَّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّختْ في الذِّهْن حتى صارتْ مثلاً يُضرب .

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعاني للأفهام ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحسبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : مادام الله تعالى لا يستحي أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أوْلى ، فلماذا يقول ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أي : في الغرابة وفي القلة والصِّغر ، لا ما فوقها في الكِبَر[١] .

---

(١) قول ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٤) : « قوله تعالى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] فيه قولان : أحدهما : فما دونها في الصغر والحقارة ، وهذا قول الكسائي وأبي عبيد قاله الرازي وأكثر المحققين .

والثاني : فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير » .

ومن الأمثلة التي ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

فالذي يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذي يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك في عبادة الله وحده لا شريك له . فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ في الأذهان ؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحى أنْ أضرب الأمثال ؛ لأنني أريد أن أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعاني .

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

في هذه الآية وبهذا المثل يؤكد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ في قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شيء والأحدية شيء آخر : الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون في ذاته مُركّبًا من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أي : ليس مُركَّبا من أجزاء . أكّد الله هذه الحقيقة في قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] يعني : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شيء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أي : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد ؟

المثل : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنّى أرزقكم ، ومن رزقى لكم موَالٍ وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذى رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا فى أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم فى أنْ تتصرفوا دونهم فى شىء كخيفتكم أنفسكم ؟ هل فعلتم ذلك ؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم ؟ إذن : لماذا تقبلونه فى حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده فى ملكه ؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم . هذا معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] أى : من البشر ، فهم مثلكم فى الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من قضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم فى مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ فى تقرير الحقيقة : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون في صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معي شيئاً .

أمّا حين تقول مستفهماً : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعني أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ .. (٢٨)﴾ [الروم] لا بدَّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء في أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء ؟

وقوله تعالى : ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم] سبق أنْ تحدثنا في مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم ؛ لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه في هبته لخَلْقه ؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال - كما يظن البعض - إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق ينبغي عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقويُّ رزقه القوة يُعدِّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدِّيه للجاهل ، والحليم رزقه حِلْم يُعدِّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق ؛ لأن الفقير الذي لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له في

هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكنْ ينبغي على الفقير إنْ ألجأتْه الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدَّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه ما سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يُوصفوا بألأم الناس ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضي أيَّده القاضي ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً في موضوعه ، وإياك أن تظن أن السَّعْي هو مصدر الرزق ، فالسعي سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك ؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمَّا هو فيعرف عنوانك وسوف يأتيك يطرق عليك الباب[1] .

والذي يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكِّراً فيه ، ولو علم أن الذي خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق في ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

---

(١) ومن شعر الشيخ رضي الله عنه :

تحرَّ إلى الرزق أسبابَه ... ولا تشغلنَّ بعدها بالكا
فإنك تجهلُ عنوانه ... ورزقك يعرفُ عنوانكا

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة[1] وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده في دمشق علَّه يُفرِّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل في أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفَّقاً في الردِّ على صديقه حيث قال : أتيتَ من المدينة تسألني حاجتك وأنت القائل :

لَقد علمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى ... أنَّ الذِى هُو رِزْقى سوفَ يَأتِينى

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عنى خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبَّهتَ منى غافلاً ، وذكَّرتَ منى ناسياً ، ثم استدار وخرج .

وعندها أدار هشام الأمر في نفسه وتذكّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم ؟ قال : رسل هشام ، وتلك صلةٌ

(١) هو : عروة بن يحيى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثي ، شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه ، توفي نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلي ٤/٢٢٧] . قال الإمام أبو عبيد البكري في « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه » (ص ٢٩) : « روى عنه مالك وغيره من الأئمة » .

هشام لك لم يَرْضَ أنْ تحملها أنت خوفاً عليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .

فقال عروة : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرتَ البيت الأول ، ولو ذكرت الثاني لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :

لَقد عَلمْتُ ومَا الإسْرافُ منْ خُلُقى ... أنَّ الذى هُو رِزْقِى سوفَ يَأْتِينى
أسْعى إليْه فيُعْيِينى تطلُّبُه ... ولَوْ قَعَدْتُ أتانى لا يُعنِّينى[1]

ثم يقول سبحانه بعد هذا المثل : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] أي : نُبيِّنها ونُوضِّحها ، بحيث لو عُرِضتْ على العقل مجرداً عن الهوى لا ينتهى إلا إليها ، ومعنى ﴿ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] من العقل ، وسُمِّي عقلاً ؛ لأنه يعقل صاحبه ويقيده عما لا يليق .

والبعض يظن أن العقل إنما جُعِل لترتع به فى خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغى ، إذن : ما قصَّرنا فى البيان ولا فى التوضيح .

ويتجلَّى دور العقل المجرد وموافقته حتى للوحى فى سيرة الفاروق عمر رضى الله عنه ، وفي وجود رسول الله ، وهو ينزل عليه الوحى يأتى عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحى موافقاً لرأى عمر ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطرى إذا فكَّر فى أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب ،

(١) ذكر هذه الأبيات خير الدين الزركلى فى الأعلام (٤/٢٢٧) وعزاها لعروة بن أذينة . واورد الأصفهاني أخباره في كتاب « الأغاني » ص ١٩١١ وذكر هذا الخبر بين عروة وهشام بن عبد الملك ، واورد هذين البيتين .

وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمَّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] العقل وسيلة من وسائل الإدراك فى الإنسان ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لكن ، كيف تُربَّى الأمور العقلية فى الناس ؟ تُربَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التى توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .

لذلك احتاط العلماء فى تسمية الحواس فقالوا « الحواس الخمس الظاهرة » ليدعوا المجال مفتوحاً لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهى فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح .. الخ .

وحين تستقر هذه القضايا فى القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ فى الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذى لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتفكير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذى يختار فهو الميزان الذى تَزِن به الأشياء ، وتحكم به فى القضايا ؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتى نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان فى الشمس والقمر ، فيقول ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] أى : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الروم] يعنى : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذى لم يبلغ : لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسَّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع فى قول النبى ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء فى هذه السنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهى فى وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفى كما استقبل تكليفك أولاً ، وربك ما افتات عليك فى هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذى تُكلِّف ، وأنت الذى تعاقب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج فى الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثَّلنا لذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتى بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتى بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر ؟ وقد قالوا بألسنتهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

فما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة ؟ وعَمَّ نهتْكُم ؟ ما المنهج الذى وضعتْه لكم ؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم ؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب ؟ لا شىء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة . وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل فى ماذا ؟ الله خلقك فى كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى فى خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً

آخر يشاركك الحسّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل ؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذى لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها للتكاثر وحفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدى هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك ؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حفْظ النوع فى الإنسان بشهوة هى أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

وما قلْناه فى غريزة الجنس نقوله فى الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التى لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذى نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعرف طعامه بالغريزة التى جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم .. الخ ذلك ؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب ؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجاً فى الحيوانات المحبوسة فى الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان

أولهـا الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التمسـاح ، ثم القرود ، ثم الحمير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك مـا شاهده أهل أغـادير بالدار البيضاء قبل الزلزال الذي وقع بهـا ، حيث شـاهدوا الحمير تفك قيـودها ، وتفرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيوانات استشعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مثالاً لهذه الغريزة في قصة الغراب الذي علَّم الإنسان كيف يُوَارِي الميت ، فقال تعـالى في قصة وَلَدَيْ آدم : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

نعود إلى حديثنا عن أجناس الكون لبيان عدم عَقْل هؤلاء الذين جعلوا لله شركـاء ، فأجناس الـوجود : الإنسـان ، ثم الحيـوان ، ثم النبات ، ففيه حياة ونمو ، ثم الجماد أقل الموجـودات درجةً ، وهو خادم للنبات وللحيوان وللإنسان ، فكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

فماذا فعل الكفار حينما عبدوا الأصنام ؟ جعلوا الجماد الذي هو أدنى المخلوقـات أرقاها وأعظمهـا ، جعلوه إلهاً يُعْبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء ؟

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

اتبعوا أهواءهم ؛ لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له ، ولا تكليف ، عبدوا إلهاً لا أمر له ولا نهى ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحي الهوى الذي اتبعوه .

إياك أن تُقدِّم الهوى على العقل ؛ لأنك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته . لكن بالعقل أولاً حدِّد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهي الأهواء المتعددة المتضاربة ؛ لأن الهوى الواحد في القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى الواحد هو المعنىُّ في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] فالنبي ﷺ لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح في حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فلك محبوب ، ولى محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيماني أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمَّا إنْ كان هواى هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق - عز وجل - فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

من خلاله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك]

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة في الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيِّن طريقة صيانتها ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذي خلقك ، وهو الذي يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل في الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح ؛ لأن الذي يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغي أن تتوفر فيه شروط : أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وانت أيها الإنسان علْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس الهوى الواحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا في الشيوعية وفي الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق - سبحانه وتعالى - هو وحده الذي لا يُسْتدرك عليه ؛ لأن علمه محيط بكل شيء لا تخْفى عليه خافية ، والخَلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابي منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل في مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغني عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذى يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا فى مسألة التشريع أنه لا ينبغى أن تنظر إلى ما أُخِذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذى منعك أنْ تعتدى على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن فى صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله ـ عز وجل ـ لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الروم] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحُّوْه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩) ﴾ [الروم] أولاً : ما هو العلم ؟ فى الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه ـ كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإن استطاع أن يدلل عليها فهى علم ، وإنْ لم يستطع فهى تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهى فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع ؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمى : الأمى خالى الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة ، أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلْقى إليه بالقضية الصحيحة .

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فننتظر : إنْ تساوى الإثبات فيها مع النفى فهى الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوى فيها الإثبات والنفي ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفى فهو وهم . فعندنا - إذن - من أنواع القضايا : علم ، وجهل ، وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذى تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ.. (٢٩)﴾ [الروم] فقد ألغوْا عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأننى رب أعين عبدى على ما يريد . وهكذا يُضِل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقوه ، كما قال سبحانه :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة]

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسْلُون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان ؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

فالمعنى ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ .. (٢٩)﴾ [الروم] يعني : مَنْ ينقذه ؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له ؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح صاحبك من الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله ـ أو أكمل له بقية النهار غشاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة في بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما في قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجِّحه أدخله إلى قلبك .

والذي يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفي القلب ميْل للشيوعية مثلاً ، فننتهي إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩)﴾ [الروم] يعني : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

الخطاب هنا للنبي ﷺ : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقال له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لي ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أنْ يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول مني أنهم لن ينتصروا عليك ، بل سننتصر عليهم .

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجَّل عليَّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... (٧) ﴾ [محمد]

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهي على ألسنتنا وفي قلوبنا . فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ

أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك ؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فهنا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أي : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك في الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعني : اجعل وجْهتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعني الذات كلها ؛ لأن الوجه سِمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] يعني : ذاته تعالى .

ومعنى ﴿ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] هذه الكلمة من الكلمات التي أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى في رِجْله انحناء للداخل ، يقال : في قدمه حنف أي ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أيِّ شيء ؟

لا بُدَّ أن نفهم المعنى هنا ، حتى لا نتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول ﷺ جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية . فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التي جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعني : ذهب إلى الحق .

و (أقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب

لامته ، بدليل أنه سبحانه سيقول فى الآية بعدها : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ.. (٣١)﴾ [الروم] ولو كان الأمر له وحده لَقَالَ منيباً إليه ، ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالخطاب للأمة كلها فى شخص رسول الله ؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمبلَّغ هو الذى يتلقى الأمر ، ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

وقال ﴿حَنِيفًا.. (٣٠)﴾ [الروم] لأن الرسل لا تأتى إلا على فساد شمل الناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه كما خلق فى الجسم مناعة مادية خلق فيه مناعة قيمية ، فالإنسان تُحدِّثه نفسه بشهوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهى منها يندم عليها ويُؤنِّبه ضميره ، فيبكى على ما كان منه ، وربما يكره مَنْ أعانه على المعصية .

وهذه هى النفس اللوامة ، وهى علامة وجود الخير فى الإنسان ، وهذه هى المناعة الذاتية التى تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتِّب لها ويسعى إليها ، وهذا بيِّن فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

فَرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العلم ، فتعترض طريقه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقع فى المعصية رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قصدها وسعى إليها ، الأول غالباً ما يُؤنِّب نفسه وتتحرك بداخله النفس اللوامة والمناعة الذاتية ، أما الآخر فقد ألِفَتْ نفسه المعصية

واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة في المجتمع لا تعني أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصي ، لكنها مُفرَّقة على أهواء الناس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا .. الخ .

إذن : ففي الناس مواطن قوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوى في شيء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقوِّمه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾ [العصر]

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. ٧٩ ﴾ [المائدة] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ٣٠ ﴾ [الروم] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه - وله المثل الأعلى - جعل هذا المصل التطعيمي في كل نفس بشرية ، حتى في التكوين المادي .

ألا ترى قوله تعالى في تكوين الإنسان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ٥ ﴾ [الحج]

فالمخلَّقة هي التي تكوِّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هي الرصيد

المختزن فى الجسم ، وبه يعوِّض أىَّ خلل فى الأعضاء المخلَّقة ، فهى التى تمده بما يصلحه ، كذلك فى القيم جاء دين الله فطرت الله التى فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال إلى يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوِّمها ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »(١) .

وقال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »(٢) .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة ﴿فِطْرَتَ.. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصبَتْ ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، والفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، نكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التى فطر الناس عليها .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (٤٧٦/١) .

لذلك يسمى علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثك على فعله ، كذلك الحق سبحانه يغري رسوله ﷺ بأنْ يُقيم وجهه نحو الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

والفطرة : يعني الخلقة[1] كما قال سبحانه : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف] يعني : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعني : الطبيعة التي أودعها الله في تكوينك منذ خلق الله آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن في كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية في كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكرى الحي الذي يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية في كل منا هي التي شهدتْ العهد الأول الذي أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار في الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الزمر]

من أين عرفوا هذه الحقيقة ؟ نُقلت إليهم من هذا العهد الأول ،

---

(١) قال ابن عطية : الذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّة ومُهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن بها . [ذكره القرطبي في تفسيره ٧/٥٢٨٤] .

فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة في الأذهان مع ما حدث من فساد في معتقدات البشر .

وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التى اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب في كذب ، ونصب في نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفي وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.. (٣٠)﴾ [الروم] يعنى : ما استطاع أحد أنْ يقول : أنا خلقتُ السموات والأرض ، ولا أنْ يقول : أنا خلقتكم أو خلقتُ نفسي .

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .. (٣٠)﴾ [الروم] أى : الدين الحق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم] أى : لا يعلمون العلم على حقيقته والتى بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾

أناب : يعني رجع وقطع صلته بغير الحق ﴿إِلَيْهِ .. ﴿٣١﴾﴾ [الروم] إلى الله ، فلا علاقة له بالخَلْق في مسألة العقائد ، فجعل كل علاقته بالله .

ومنه يسمون الناب ؛ لأنه يقطع الأشياء ، ويقولون : ناب إلى الرشد ، وثاب إلى رشده ، كلها بمعنى : رجع ، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه ، وهو أصل الفطرة .

وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوهُ .. ﴿٣١﴾﴾ [الروم] لأنه لا يجوز أنْ تنيب إلى الله ، وأن ترجع إليه ، وأن تجعله في بالك ثم تتصرف عن منهجه الذي شرَّعه لينظم حركة حياتك ، فالإنابة وحدها والإيمان بالله لا يكفيان : بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله ، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء]

لأن فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحق ، وأن منهجه هو الصدق ، وفيه نفعك وسلامتك في حركة حياتك ، وأنه الذي يُوصلك إلى سعادة الدارين ، ولا معنى لهذا كله إلا بالعمل والتطبيق .

﴿وَاتَّقُوهُ .. ﴿٣١﴾﴾ [الروم] أي : اتقوا غضبه ، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية ، وهذه الوقاية تتحقق باتباع المنهج في افعل ولا تفعل . وسبق أن تكلمنا في معنى التقوى وقلنا : إنها تحمل معنيين يظن البعض أنهما متضاربان حين نقول : اتقوا الله . واتقوا النار . لكن المعنى واحد في النهاية ؛ لأن معنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعني : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٣١) ﴾ [الروم] أقيموا الصلاة أدُّوها على الوجه الأكمل ، وأدُّوها على ما أُحبُّ منكم في أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر يجب أن تقبل عليَّ ، وأنت حين تُلبِّي النداء لا تأتي لتعينني على شيء ، ولا أنتفع بك في شيء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد مني العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك .

وقلنا : ما تصورك لآلة تُعرَض على صانعها كل يوم خمس مرات أيبقى بها عَطَب ؟ لذلك يُعلِّمنا نبينا ﷺ أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل ﷺ إذا عزَّ عليه شيء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان بالله إنْ لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيبا ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدري ؛ لذلك أمرنا ربنا بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين والركْن الذي لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، في حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار .

أما الصلاة فهي الركْن الدائم ، ليس مرة واحدة في العمر ، ولا مرة واحدة في العام ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فبها يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إنْ دلَّ فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالقه .

وسبق أن قلنا : إنك إنْ أردتَ مقابلة أحد المسئولين أو أصحاب المنزلة كم تعاني ليُؤذَن لك ، ولا بُدَّ أن يُحدَّد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أنْ يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، أما في لقائك بربك - عزّ وجل - فالأمر على خلاف ذلك ، فربُّك هو الذي يطلبك ويناديك لتُقبل عليه ، لا مرة واحدة بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أنْ تناجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد .

ولك أن تنهي أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإنْ أحببتَ أن تطيل اللقاء ، أو أنْ تعتكف في بيت ربك فإنه سبحانه لا يملُّ حتى تملُّوا ، فهذه - إذن - ليست عبودية ، بل عزٌّ وسيادة .

وما أجملَ ما قاله الشاعر في هذا المعنى[1] :

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأنِّي عَبْدٌ   يحتَفِي بِي بلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ في قُدْسِهِ الأعَزُّ ولكِنْ   أنَا ألْقَى متَى وأيْنَ أُحِبُّ

ولأن للصلاة هذه المنزلة بين أركان الإسلام لم تُفرض بالوحي كباقي الأركان ، إنما فُرِضَتْ مباشرة من الله تعالى لنبيه ﷺ ، حين استدعاه ربه للقائه في السماء في رحلة المعراج .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - برئيس العمل الذي يُلقي أوامره بالتليفون ، أو بتأشيرة على ورقة ، فإنْ تعرَّض لأمر هام استدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، وأعطاه الأمر مباشرة لأهميته ، كذلك كانت الصلاة ، وكذلك فُرِضَتْ على سيدنا رسول الله بالتكليف المباشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] وهنا وقفة : فكيف بعد الإنابة إلى الله والتقوى ، وبعد الأمر بإقامة الصلاة يقول ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] ؟ وأين الشرك ممَّنْ يؤدِّي التعاليم على هذا الوجه ؟ قالوا : الشرك المنهيّ عنه هنا ليس

(١) من شعر الشيخ رضي الله عنه .

الإشراك مع الله إلهاً آخر ، إنما أشركوا مع الله نية أخرى ، فالإشراك هنا بمعنى الرياء ، والنظر إلى الناس لا إلى الله .

لذلك يقولون : العمل من أجل الناس رياء ، وترْك العمل من أجل الناس شرك . فالذى يصلى أو يبنى لله مسجداً للشهرة ، وليحمده الناس فهو مُراء ، وهو خائب خاسر ؛ لأن الناس انتفعوا بعمله ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً .

أما مَنْ يترك العمل خوفاً من الوقوع فى الرياء ، فيمتنع عن الزكاة مثلاً ، خَوْفَ أنْ يُتَّهم بالرياء ، فهو والعياذ بالله مشرك ، لأن الناس ينتفعون بالعمل حتى وإنْ كان رياءً ، لكن إنِ امتنعتَ عن العمل فلا ينتفع الناس منك بشىء .

فالمعنى : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] أى : الشرك الخفى وهو الرياء : لذلك رأينا سيدنا رسول الله وهو الأسوة للأمة الإيمانية يدعو ربه ويقول « اللهم إنّى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالعمل الإيمانى ما كان لله خالصاً ، وعلى قَدْر الإخلاص يكون الجزاء ، فمن الناس مَنْ يفعل الصلاح فيوافق شيئاً فى نفسه ، كأن يساعده على استقامة الحياة أو على التوفير فى النفقات أو غير ذلك ، فيستمر عليه ، لا لله إنما لمصلحته هو .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله بن الشخير أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، واستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، واستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت » . وقد أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٠٧/٢) .

أصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

وكالتاجر الذي يلتزم الصدق في تجارته ، لا حباً في الصدق ذاته ، إنما طمعاً في الشهرة والصِّيت وكَسْب المزيد من الزبائن ، ومثل هؤلاء ينالون من الدنيا على قَدْر سعيهم لها ، ولا يحرمهم الله ثمرة مجهوداتهم ، كما قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

فما أشبه الناس في نياتهم من الأعمال بركْب يقصدون وجهة واحدة ، لكن لكل منهم غاية يسعى إليها ، فهذا يسعى للطعام أو أكلة شهية ، وهذا يسعى لامرأة جميلة ، وهذا يسعى لدرْس علم ينتفع به ، وآخر يسعى لرؤية مَنْ يحب ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

قَصَدْتُ بالركْبِ مَنْ أَهْوى وقُلْتُ لَهُم ... هَيَا كُلوا وخُذُوا ما حَظّكم فيه
لكِنْ دَعْوتي الأَقْى مَنْ أؤمِلُهُ ... عَيْنى تَرَاهُ وَوُجْدَاني يُنَاجيه

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد من عبده أنْ يقصده لذاته ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وفَرْق بين أن تنعم بنعمة الله ، وأن تنعم بالنظر إلى الله ، فأنت في الجنة تأكل ، لا عن جوع ولا عن حاجة ، إنما لمجرد التنعُّم .

لذلك يقول سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران] فتكفيهم هذه العندية ، وأنْ ينظروا إلى الله سبحانه وتعالى .

لذلك تقول رابعة العدوية[1] : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها ، لكنى أعبدك لأنك أحقُّ أنْ تُعبدَ .

ولا شكَّ أن القليل من الناس يخلصون النية لله ، وأن الغالبية يعملون العمل كما اتفق على أية نية ، لا تعنيهم هذه المسألة ، ولا يهتمون بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

فرَّقوا دينهم كالركْب الذين اختلفتْ وجهاتهم ونياتهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا .. (٣٢) ﴾ [الروم] جمع شيعة ، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور ، خيراً كان أو شراً ، خيراً مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات]

أو شراً مثل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. (٤) ﴾ [القصص]

وفى آية أخرى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. (٦٥) ﴾ [الأنعام]

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/١٠) .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ [الروم] لما لهم من سلطة زمنية ، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتز كالسلطة الزمنية التي منعتْ يهود المدينة من الإيمان برسول الله ، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه ، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره ، وكل ذلك عندهم في التوراة ، حتى إنهم كانوا يصطدمون بعبدة الأصنام ، فيقولون لهم . لقد أطلَّ زمن نبي يظهر آخر الزمان سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم[1] .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

لماذا ؟ حفاظاً على سلطتهم الزمنية ، وقد كانوا أهل علم وغنىً ومكانة ، فلما بُعث محمد ﷺ ألغى هذه السلطة ، فلا كلام بعد كلامه ﷺ ، أما مَنْ ثبت منهم على دينه الحق ، وعمل بما في التوراة فقد آمن بمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود .

فالسلطة الزمنية هي التي حالتْ بين الناس وبين الحق الذي يؤمنون به ، وهذه السلطة الزمنية هي التي نراها الآن في هذه الفرَق والأحزاب التي يدَّعي كل منها أنها على الحق وما سواها على الباطل .

يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهرا دهرا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبيا سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . أورده ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) .

فكل منهم يناطح الآخرين ليعلى مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

بعد ذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

الضر : هو الشيء الذي تتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفي بالخلاص منه ﴿ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [الروم] أي : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحي عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذي كان يحلّ محلَّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرِّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعي أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية في ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا ؟ لأنه لن يغشَّ نفسه في هذه اللحظة .

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندبا قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] .

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [الروم]

أي : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا.. (٨)﴾ [الزمر]

وقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢)﴾ [يونس]

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفي لإثبات الظاهرة ؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً ؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣)﴾ [الروم]

وفي آية أخرى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت]

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون في هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلِّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا في ميزات الصلاة أنها تُسوِّي بين الناس ، فيجلس الرجل العادي بجوار مَنْ لم يكُن يُؤمِّل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام .. الخ ففي الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند ﴿مَسَّ .. (٣٣)﴾ [الروم] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة ﴿أَذَاقَهُم .. (٣٣)﴾ [الروم] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة في اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فلذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة في الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس في استقبال المذاق ؛ لذلك يقولون في الأمثال (اللي يفوت من اللسان بقى نتان) .

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقةَ في مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولى على الإنسان كله ، ومع ذلك قال ﴿فَأَذَاقَهَا .. (١١٢)﴾ [النحل] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة ﴿مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : من الله تعالى ، يعنى بلا أسباب ، أو ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : بدَّل الضر برحمة ، وخلَّصهم من الضُّرِّ برحمة . كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما

---

(١) رَغَد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥)﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

تقول : ذُقْتُ الطعـام ، أو تـقـول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعـاماً يعنى : ما أكلتُ عنده من باب أوْلى .

لذلك الحق سـبحانه وتعـالى عبـر عن الرحمة هـنا بالإذاقة ؛ لأن رحـمة الدنيـا لا تستـوعب كل رحـمـة الله ، فالـقليل منها في الدنيـا ، وجُلُّها في الآخرة .

ونلحظ في قـوله تعالى : ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] ، أما في الآية الأخرى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]

فلمـاذا قـال في الأولى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم .. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] وفي الأخرى : ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت] فلم يستثْنِ منهم أحداً ؟

قـالوا : لأن الآية الأولى تتكلم عن الذين دَعَـوا الله في البـرِّ ، والناس في البر عـادة ما يكونون مخـتلفين ، فيـهم الصالح والطالح ، والمطيع والعـاصي ، فهم مـختلفـون في ردِّ الفعل ، فـالمؤمنون لـما عاينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحـمد لله الذي نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخـرى فتـتكلم عن الذين دَعَـوا الله في البحـر ، وعادة ما نـرى الذين يركبـون البحـر على شاكلة واحـدة ، وهـم لا يركبـونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عـوَّامة يجـمع فـيهـا اتبـاعه ومَنْ هم على شـاكلتـه ، ولا بُدَّ أنهم يجتمعـون على شيء يحبـونه ، فهم على مذهب واحـد ، وطريقـة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كـانوا في البحر فـلا بُدَّ أنهم كانوا مجـرمين

عتاة ، وكانوا سواسية فى الشرك وفى التخلّى عن الله ، بمجرد أنْ أمنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا ﴿إِذَا.. (٣٣)﴾ [الروم] الفجائية واستخدمه فى آية أخرى ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففى هذه الآية الحق سبحانه يُبيِّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذى أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده فى نفسه وفى ذاته التى لم تنتفع بآيات الله فى الكون ، فتظل فى حضانة الله ، فيأتى له بالضُّر الذى ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشَر والاستعلاء .

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذى يهلكه ، بل عندها يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً فى الكون إلا هو ؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشىء ؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : فهؤلاء المشركون أشركوا بالله فى وقت الرخاء ، أما فى وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشّها لن يقول : يا هُبَل ، لأنه يعلم أن هُبَلَ لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ،

ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأته الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يتبادر إلى الذهن أن اللام في ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لام التعليل ، أو لام السببية التي يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك في الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فعلّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم ؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به ؟

نقول : ليس الشرط سبباً في مجيء الجواب كما يفهم السطحيون في اللغة ، بل الجواب هو السبب في الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب في الشرط أي : سبب دافع إليه . فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجيء الجواب .

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الإسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للإسكندرية ؛ لأنك أردْتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل . إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيِّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً . لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله ؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أى : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكَّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدى علىَّ ، والمعنى : ربَّيته ليحترمنى ويحبنى ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذى ربَّى ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذى رُبِّى .

فالأسلوب هنا ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] يحمل معنى التقريع ؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بنى إسرائيل ، وكما يقولون فى الأمثال (بيربى خنَّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقط ، وعلى غبائه أيضاً ، فكيف وهو يُقتِّل الأولاد فى هذا الوقت بالذات لا يشكّ فى ولد جاء فى تابوت مُلْقىً فى البحر ؟ أليس فى هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من

القتل ؟ لكن كما قال سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

فأنت تُقتِّل في الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتي مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه في حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه ؟ فلماذا تحتاط إذن ؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر في إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو ليأتي بعدو له ليقضي عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال في القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعني : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً ؛ لأننا أصبحنا في زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك هو الحق ، كالذي قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلاني في الوقت الفلاني فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى - عليه السلام - في بيت فرعون ، ثم كلَّفه

(١) أي : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويُغيِّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذي يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

نعم ربّيتنى وليداً ، لكن الذى ربّانى وربّاك هو الذى بعثنى إليك ، فأنا أبرّ المربى الأعلى قبل أنْ أبرّ بك ، وفى هذا إشارة إلى أن عناية الله هى الأصل فى تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول : ربَّيْتُ ولدى حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأَخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربِّى الأعلى هو الذى يُربِّى على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ فى بَنِيكَ عنَايةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِى وخَابَ المؤمِّلُ
فَمُوسَى الذى ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسَى الذى ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرسَلُ

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لأنه كفر ليتمتع بكفره فى الدنيا ؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشق على النفس ، فيأمرك بالشىء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشىء المحبب إليها ، أما الأصنام التى عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك فى شىء ، الذى يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان فى الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقن ، فربما داهمك الموت فى أىِّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته[1] .

---

(١) رواه الديلمى فى مسنده (١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » وقال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : « رُوى عن أنس : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة ، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ، يرى ماله من خير وشر » .

لذلك أبهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الموت ، ونثر أزمانه فى الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان ؛ لأنه أصبح شاخصاً أمام كل منَّا ينتظره فى أىِّ لحظة ، فيستعد له .

ونلحظ هنا أن الأسلوب القرآنى عطف فعل الأمر ﴿ فَتَمَتَّعُوا .. (٣٤) ﴾ [الروم] على الفعل المضارع ﴿ لِيَكْفُرُوا .. (٣٤) ﴾ [الروم] ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر ، إنما للعلة : ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام . أهى للأمر أم للتعليل ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الروم] جاءت بعد ﴿ فَتَمَتَّعُوا .. (٣٤) ﴾ [الروم] وهذه جاءتْ معطوفة على ﴿ لِيَكْفُرُوا .. .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فكأنه قال : اكفروا وتمتعوا ، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذى جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة ، أما لام الأمر فساكنة ، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل ، أما الذى فهم المعنى منهم فقال : ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام ، فاللام للأمر أيضاً ، لأنه عطف عليها فعل الأمر ، وهو هنا للتهديد .

لكن . لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة ؟ قال أحد النحاة : لام الأمر ساكنة ، ويجوز أنْ تُكْسَر ، واستشهد بهذه الآية ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت]

ونقول لمن يقول : إنها لام التعليل : إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعنى لام العاقبة ؛ لأن الكفر والتمتع لم يكُنْ سبباً فى إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسرت ؟ وفى القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل .

ثم قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر .

وفي آية أخرى جُمعت اللامان : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] فجاءتْ لام الأمر مكسورة ؛ لأنها في أول الجملة ، ولا يُبتدأ في اللغة بساكن ، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] فجاءت لام الأمر ساكنة ؛ لأنها واقعة في وسط الكلام .

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتَّاب المصحف ، وأن يعلموا أن كلام الله غالب ، فقد فات أصحاب رسم المصحف أنه مبنيٌّ من أوله إلى آخره على الوصل ، حتى في آخر آيات سورة الناس وأول الفاتحة تقول ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ... ﴾ .

فآخرُ القرآن موصول بأوله ، حتى لا ينتهي أبداً ، وعليه فلا ترسم ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] بالكسر ، إنما بالسكون ، لأنها موصولة بما قبلها .

وكلمة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] تدلُّ على التراخي واستيعاب كل المستقبل ، سواء أكان قريباً أم بعيداً ، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة ، أو سيموت بعده بوقت طويل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

كلمة (أم) لا تأتى بداية ؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمرين ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو ؟ فلا بُدَّ أنْ تأتى بين متقابلين ، والتقدير : أهُمُ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتابٌ أُنزل إليهم فهو حجة لهم على الشرك ؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

والفعل ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم] الإنزال يقتضى عُلُوَّ المنزِّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أدْنَى ، فالإنزال من عُلُو الربوبية إلى ذُلّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذى تلقَّى القرآن أول مرة وباشر الوحى هو الذى رآه وأخبرنا به .

والأصل فى الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العُلُو . سواء أكان العُلُو معنوياً ؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلُواً حِسّياً كما فى ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

والسلطان : من التسلُّط ، وهى تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقنعك بالحجة والبرهان فهو قوىٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغمك على فعل شىء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا فى

موقف إبليس فى الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم.. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

أى : لم يكُنْ لى عليكم سلطان حجة وإقناع استحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لى عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتُكم جئتم مُسرعين ، وأطعتُم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً فى القرآن خاض الناس فيه طويلاً - عن خُبْث نية أو عن صدق نية - هذا فى قوله تعالى مرة لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ.. (٧٥)﴾ [ص] ومرة أخرى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ.. (١٢)﴾ [الأعراف]

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾ [الروم] أى : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم .

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ١٢٧) طبعة دار الصابونى : « قوله ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ.. (١٢)﴾ [الأعراف] قال ذلك بزيادة « لا » كما فى قوله تعالى : ﴿لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ.. (٢٩)﴾ [الحديد] وقال فى « ص » بحذفها ، وهو الأصل ، فزيادتها هنا لتأكيد معنى النفى فى « منعك » ، أو : لتضمين « منعك » « حملك » ، وهى على الثانى ليست زائدة فى المعنى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجرى الرحمة هو مُجرى السيئة ، لكنهم فرحوا في الأولى لأنها نافعة في نظرهم ، وقنطوا في الأخرى ؛ لأنها غير نافعة في نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمة في الرحمة وحكمة في المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شيء وغفلتم عن شيء ، نظرتُم إلى ما وُجد من الرحمة وما وُجد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمة ، ومَنْ أوجد المصيبة ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم في هذه وفي تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغي ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكي ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شيء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. الخ فإنْ قال لك : عمي ضربني فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ في شيء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع في ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغي أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذى أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ تتأمل الحكمة ، ولن نتحدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فيها للجميع ، لكن تعال نسأل عن المصيبة التى تُحزِن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

ونقول : لو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالك ، واطمأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعني الشيء الذي يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]

فالمصيبة لا تُذَمُّ في ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب في الحسنة وفي السيئة تدلُّ على أن سهمها أطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهى لا بُدَّ صائبتك ، لن تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذى أطلقها إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ، ولا تُزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت مصيبة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسي ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب.

ألم تقرأ : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]

أتذكرون حادث عمارة الموت وقد طردوا منها البواب وأسرته ، وجعلوا منها قضية في المحكمة ، وبعد أن انهارتْ العمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عَيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذى أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تتكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك فى المصيبة التى قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذى أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطاك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذى ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التى تقول لابنها : يا بُنى أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتى أبوه يقول له : يا بنى هوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذى تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى ، إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقرىء الأحداث تجد أناساً فُضِحوا وأُخِذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكم عن هوى .. إلخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح

لك نقطة عندي في حسابك ، فأنت اتُّهمْتَ ظلماً ، فلك عندي إذا ارتكبتَ جريمة أنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقعك في جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة في نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففي الكلام عن الرحمة قال ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

أما في المصيبة فقال ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التي تنزل بالإنسان في دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك في كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمَّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعَم (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة]

كما نلحظ فى أسلوب الآية أنها لم تذكر السبب فى إذاقة الرحمة ، إنما ذكرتْ سبب المصيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] ليدلَّ على عدله تعالى فى إنزال المصيبة ، وتفضُّله فى إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .

لكن فى المصيبة قال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] فذكر العلّة حتى لا يظنّ أحد أن الله تعالى يُجرى المصيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهى .

وبين الفضل والعدل بوْن شاسع ، فلو جاءك خَصْمان لتحكم بينهما تقول : أحكم بينكما بالعدل ، أم بأفضل من العدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُتركك[1] حقك .

فكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أنكم ناجون بأعمالكم ، لا إنما بالتفضل عليكم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

يعنى : مهما جمعتُم من الطاعات فلن تكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نعرف أن رحمة الله وسعتْ كل شيء ، وأنه مع ما أنعم به عليكم من نِعَم لا تُعَدُّ

(١) وَتَرَه حقه وماله : نقصه إياه . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . أى : لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً . [لسان العرب - مادة : وتر] . والمعنى المقصود أن الحكم بالعدل يعطى كلا المتخاصمين حقه ، أما الفضل فمن يحكم قد ينظر إلى فضيلة أحدهما وعلو همته وشرفه فينقص من حقه ، لأنه يعلم رجاحة عقله وقناعته وعفته . والله أعلم

ولا تُحصى لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه رَبٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك في الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دقَّة الأسلوب في قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فالعَدُّ يقتضي الكثرة و ﴿ نِعْمَتَ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] مفرد ، فكيف تعدُّ يا رب ؟ قالوا : نعم هي نعمة واحدة ، لكنْ في طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصَى .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لعَدِّ نعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحصْر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة في حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصي نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لعَدِّ الرمال في الصحراء ؛ لذلك يُشككُكم الله في أنْ تعدُّوها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾

يبسط : يُوسِّع ، ويقدر : يعنى يُضيِّق .

يعنى : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسِّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيِّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافه ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما في ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندى[1] الملحد يقول :

كَمْ عَالِمٍ عَالِمٍ أعْيَتْ مَذَاهِبه ... وجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مرْزُوقا

هَذَا الذى تركَ الأوهامَ حَائِرةً ... وَصيَّر العَالِم النِّحْرير زِنْديقا

فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :

كَمْ عَالِمٍ عالِمٍ قَدْ باتَ فى عُسْرٍ ... وجَاهِلٍ جاهِلٍ قَدْ باتَ فى يُسْرِ

تحيَّر الناسُ في هَذَا فقُلْتُ لهم ... هَذَا الذِى أوجبَ الإيمانَ بالقَدرِ

فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .

إذن : لا بُدَّ أن فى هذه حكمة ، وفى تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

(١) هو : أحمد بن يحيى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندى ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من سكان بغداد ، نسبته إلى « راوند » من قرى أصبهان . قال ابن حجر العسقلانى : كان أولا من متكلمى المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالإلحاد ، وضع كتابا فى قدم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهر والرد على مذهب أهل التوحيد ، وكتابا فى الطعن على محمد ﷺ . توفى عام ٢٩٨ هـ بين الرقة وبغداد . [الأعلام للزركلى ١/٢٦٧] .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده ؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا في حياتهم العملية . وفي المقابل نرى الفقير الذي يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب ؟ إذن : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٧)﴾ [الروم] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وسبق أن ذكرنا أن في ألمانيا مدرستين فلسفيتين في الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى لـ (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور .. الخ فالحكمة في الخَلْق تقتضي المساواة ، فأخذ من الشذوذ في الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة في الإلحاد بأيِّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التي يسعون إلى إثباتها .

ونقول في الرد على الأول الذي اتخذ من الشذوذ في الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذي ذكرتَ شذوذ في الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة في الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر في الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أما النظام الثابت الذى يريده الثانى فعليه أن ينظر إلى الملأ الأعلى ، وفى الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم ..الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتاً لا يتغير ، لأن الشذوذ في هذه المخلوقات يفسد الكون كله ؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : فى النظام العام للكون نجد الثبات ، وفى الأفراد الذين يغني الواحد منهم عن الآخر نجد الشذوذ والاختلاف ، فالثبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمان ، فالثبات موجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليكما إلا أن تتفقا وأن ينفتح كل منكما على الآخر لتصلا إلى الصواب .

ومسألة الرزق لها فلسفة فى الإسلام ، فالحق سبحانه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمرة يرزق بالأسباب ، ومرة يرزق بلا أسباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذى يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغى أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذى استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أسْبابَهُ ولاَ تشغلنْ بعدَهَا بَالكا
فَإنَّك تجهلُ عنوانه ورزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانَكا

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ [الروم] قال (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه في الإعطاء وفي المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى في البسط : ﴿ لِمَن يَشَاءُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] وفي التضييق ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسطَ في نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿ لِمَن يَشَاءُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل في هؤلاء الذين سيُبْسط لهم في الرزق ، أما في التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ منّا عن نفسه .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾

حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ في الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكَّد بعده مباشرة على حَقّ ذي القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هي على الجميع حتى مَنْ كان في خصاصة ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسى هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾ [الروم] والجميع : مَنْ بُسط له ، ومَنْ قُتر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ[1] وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

فلم تذكر ذا القربى الذى ذكر هنا ، وكان الآية تشير لنا إلى أمر ينبغى أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لى ابن عم ، أو لى قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالى ؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة ـ القريب والمسكين وابن السبيل ـ بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذى لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّق عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذى قرره الشرع للقريب تجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات فى هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع فى العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ،

(١) الغارمون : جمع غارم . والغارم : مَنْ لزمه دين بحق وبغير حق . والمغرم : الغرامة والدَّيْن الثقيل . [القاموس القويم ٢/٥٢] .

فلماذا فى حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه فى المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطى العم أو ابن العم وهو الذى سيحمى البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إياك - إذن - أنْ تُدخل الأقارب فى الزكاة أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفى أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ .. (٣٨)﴾ [الروم] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الواسع وتمكَّن منه . كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعنى ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعى حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً فى غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذى تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذى القربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿حَقَّهُ .. (٣٨)﴾ [الروم] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل عليَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه فى ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاَّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقى السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشىء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر ؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه[1] ، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩)﴾ [الكهف] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذى لا شىء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل فى هذه الآية من باب أَوْلَى .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . قالوا . فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣٩) كتاب الزكاة ، واللفظ لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : الإيفاء لهؤلاء ﴿خَيْرٌ .. (٣٨)﴾ [الروم] كلمة خير تُطلَق فى اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أى : أفعل تفضيل ، كما جاء في قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأخْيَرِ

لكن الشائع أن تُستعمل خير فى أفعل التفضيل كقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : فى الوفاء بحقِّ ذى القربى والمسكين وابن السبيل . يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذى يفعل خيراً يأخذ أجره ممَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] أى : فوجىء بوجود إله لم يكُنْ فى باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : يقصدون بعملهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجه الله ، سـواء رآه الناس ، أو أخـفى عمله ، حـتى لا تعلم شمـاله ما صنعتْ يمـينه ؛ لأن الأمر قائم علـى النية ، فقـد تعطى أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم فى حقك .

وحين تعطى علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصِّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر ؛ لأنك سـتكون أُسْوة لغيرك فـيعطى ، ويكون لك من الأجر مـثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عـمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَـالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا مثـلاً توضيحـيا : ﴿ فَمَـثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْـهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

فمـثل المرائى كـهذا الحجر الناعم الأملس حـين يصيبـه المطر ، وعليـه طبـقة مـن التراب يزيـحهـا المطر ، ويبـقى هو صلْداً ناعـمـاً لا يحتفظ بشىء ، ولا ينبت عليه شىء .

وهذا المثل يُجسِّد لنا خـيبة سَعْـى المرائى ، وأنه مغـفل ، سعى واجتـهد فانتفع الناس بسَـعْيه ، وتعـدَّى خيره إلى غـيـره ، وخرج هو خالى الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

---

(١) الصفوان : الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] والصلد : الأملس الذى لا يصلح للزرع . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

مرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخِصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتي نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُنْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتي ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] يعني : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التي تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوَى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هي رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات في الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزى ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكُّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنكر ، وسينقلب ما قدمتَ من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر في أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ،

وكأن ربك - عز وجل - يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله[1] :

أقُولُ لأصْحاب المروءات قَوْلةً ... تُريحهُمْ إنْ احسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحاجات خَلْفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدْرَكُوها خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذى قابلنا فى الطريق ونحن فى الجزائر ، فأشار لنا لنوصله فى طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعنى : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غلَّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أى : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] بعد قوله : ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] يدل فى ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقِلٌّ ، وهذا يدخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجتَ ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت فى يوم من الأيام مسكيناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة فى كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيمانى عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبى ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

الجنة»[1] لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم ؛ لأنهم في مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة في امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذي أرسله الله قضية تأمينية في الكون ، ليست في شركات التأمين ، إنما في يده سبحانه حيث قال :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) ﴾ [النساء] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا في سورة الكهف لقصة الجدار الذي تبرع الخضر - عليه السلام - ببنائه مع أنه في قرية أهلها لئام[2] منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُردُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال في بيان أمر الجدار : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبني لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وتمام الحديث : « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ومعنى السبابة : لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . وفي رواية « السبَّاحة » لأنها يُسبح بها في الصلاة فيشار بها في التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٤٢٦/١٠) .

(٢) اللئام : جمع لئيم ، وهو الدَّنيء الأصل الشحيح النفس . [لسان العرب - مادة : لأم] .

هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيريْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا(١) لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يعرف أن خَلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب قد يضيع إذا راءوا في أعمالهم ، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون في النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتي فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفي نيته أنْ يردَّها الغني بما يناسب غناه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع في الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنيُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] أي : الزيادة

---

(١) قال ابن عباس في هذه الآية : « الربا رباءان ، ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح . فأما الربا الذي لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها أو أضعافها » . [أخرجه ابن أبي حاتم] وفي قول آخر له قال : هو ما يُعطي الناس بعضهم بعضاً ، يعطي الرجلُ الرجلَ العطية يريد أن يعطى أكثر منها . [أخرجه ابن جرير الطبري] أورد السيوطي هذين الأثرين في الدر المنثور ٦/٤٩٥ .

بأىِّ ألوانها عما تعطى ، وهذه الزيادة غير مشروطة فى عقد ، والزيادة تكون فى المال ، أو بأىِّ وسيلة أخرى فيها نفع ؛ لأنهم قالوا فى تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا[1] .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس فى ظل جدار لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس فى ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس فى ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمالِ الذى أخذتَه منى .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسنَ منها ؟ وما ذنبى أنا المعطى فى ذلك ؟ قالوا : لا شىء فيها بشرط ألاَّ تكون فى نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتودداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

وقوله ﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] فى هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] يربو عندك أنت بالزيادة التى تأخذها ممَّنْ حيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

---

(١) قال الشوكانى فى نيل الأوطار (٥/٢٣٢) : « مما يدل على عدم حل القرض الذى يجر إلى المقرض نفعاً ما أخرجه البيهقى فى المعرفة عن فضالة بن عبيد موقوفاً بلفظ « كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا » ورواه فى السنن الكبرى عن ابن مسعود وأبىّ ابن كعب وعبد الله بن سلام وابن عباس موقوفاً عليهم . ورواه الحارث بن أبى أسامة من حديث على عليه السلام بلفظ « إن النبى ﷺ نهى عن قرض جر منفعة » وفى رواية « كل قرض جر منفعة فهو ربا » وفى إسناده سوار بن مصعب وهو متروك . قال عمر بن زيد فى المغنى : لم يصح فيه شىء » .

هكذا قال ابن عباس[1] ، وإن كان بعض العلماء قال : هى مطلق فى الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرَع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا فى زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ .. (٣٩)﴾ [الروم] أى : الذين يُؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف بالفتح كما فى قوله تعالى : ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : فى القرآن آيات تصادم الحديث النبوى ، فالقرآن يقول : ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها ، وقال النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[2] فلو أن القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

---

(١) قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٩٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤٣١) من حديث أنس بن مالك قال قال ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوبا : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضاعف لك إلى عشر . لكن أردُّ إليك دولارك الذي تصدَّقْتَ به ؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض ؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردَّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمي القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله في القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذي فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص على حمايته لك ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطي ومروءته ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمنْ لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير . فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإن اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنيَّ ، وضنَّ عليه أنْ

يردّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولِمَ لا ؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا في الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ.. (٣٩)﴾ [الروم]

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً ، وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذي رَابَى ، فأنت ترابى لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦)﴾ [البقرة] لماذا ؟

قالوا : لأن المعطى غنيٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد فى مال الواجد غير المحتاج ؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج ؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملى ، وأنْ يضيع مجهودى ؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً ؟ هذه ليست من العدالة ؛ لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ،

أول شيء في إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله في قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة] (لا تَظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم ؛ (ولا تُظلمون) أي : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فردَّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعي ؛ لأن ما أخذتَه قد صُرِف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعي مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ ما لا يقدر على ردِّه .

وحين نتأمل هذه المسألة : الدول أقوى أم الأفراد ؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضتْ مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّيْن ؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون في خصومات ومشاكل .

شيء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذي لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة ؟

إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر الفعالة في السلعة ، أو في التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لابد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً في العقد ، إذن : العقد باطل .

وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول . إن الإسلام لا يصلح فى زمان كذا ، أو فى مكان كذا .

والآن تسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] أى : ليس فى وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذى يحدد الوُسْع ؟ أنت أم المشرِّع سبحانه ؟

ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف فى وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أنْ تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به . لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما فى صلاة وصوم المريض والمسافر .. الخ وكما فى التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .

فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقى تكاليفه يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقلْت ظروف العصر تحتم علىَّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .

فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات ؟

النبي ﷺ أوضح لنا هذه القضية في قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه »[١] .

فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات ؟ إذن : مَنْ وقع في الشبهات لم يستبرئ ، لا لدينه ولا لعِرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف ؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة ؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يُقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك ؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن التفعية هي القانون الذي يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به ؟

نعم ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة ؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقص مما عنده سبحانه ، أمَّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل في المحيط الذي تعيش فيه ، ففي كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير ؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة ؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ يمحق

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦) ﴾ [البقرة] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غنّاه كيد فيه ، ومبالغة في إيذائه . كما جاء في الأثر « إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإن اشتد غضبه عليه بارك له فيه » .

واقرأ قول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك نسمع « فلان ماهر في التجارة » . « فلان يضع يده في التراب يصير ذهباً » ... الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين « فتحنا لهم » و « فتحنا عليهم » : « لهم » أي لصالحهم بالخير . أما « عليهم » فيعني كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً . فالله تعالى يعطي الكافر ويُوسِّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه أليماً . كما قلنا : إنك إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عالٍ حتى يكون السقوط مؤلماً .

وقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين في قوله تعالى في سورة الروم : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] وقال سبحانه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ .. (١٧٠) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [يونس]

فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذي يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذي أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهو الفرح الذي يُورثك بَطَراً وأشَراً وكبراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بها ؛ لأنها قضية لم يدَّعِها أحد لنفسه مع كثرة المتبجحين بالكفر والإلحاد ؛ لذلك لما ادَّعاها النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه فقال : أنا أحيي وأميت ، فعلم إبراهيم عليه السلام أنه يريد اللجاج والسفسطة التي لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة ، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء ؟

ثم ما بال الذين خُلقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك ؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحي أحداً ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق بين القتل والموت مع أنهما يشتركان في إنهاء الحياة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطُّم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقيم إلا في بنية سليمة ، ومثَّلنا لذلك بلمبة الكهرباء حين تحترق فينطفيء نورها ، فهل يعني ذلك أن التيار انقطع عنها ؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضيء .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يبين لنا هذا الفرق في قوله سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران] إذن : فالنمروذ لا يحيى ، بل يُبقى على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

كذلك مسألة الرزق فهى مُسلَّمة لله لم يدَّعِها أحد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم]

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذى المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فلْيُحى هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم] ولم يقل : يقتلكم ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] أى : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التى تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة ؟

أفى قدرتها شيء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصورُونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها ؟ فأين عقولكم ؟ وما هذه الخيبة التى أصابتكم ؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة ؟

ونلحظ في الآية تكرار (مِنْ) وهي للتبعيض : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .

لذلك يجب أنْ تُعلِّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم] لا تعليق إلا هذا .

لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ ..﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء] أي : أنتم وما تعبدون من دون الله ؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل في هذه الشركة ؛ لذلك استثناه ربه ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

وتلحظ هنا في قوله ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء] أنه لم يؤكدها بشيء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قلنا لم يدَّعها أحد ، أمّا في الهداية وهي مجال ادعاء ، فقال (فهو) أي : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

وفي هذا إشارة إلى أن القانون الذي يُنظِّم حياتي والمنهج الذي يهديني قانون ربي لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعي الهداية ويقول : إنني وضعتُ قانوناً يُسعد حياة الناس ، ويفعل كذا

وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ومن الشيوعية .. الخ .

إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما تقول في العامية (مفيش إلا هو) .

كذلك في مسألة الإطعام قال : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي .. (٧٩)﴾ [الشعراء] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذى) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذى يطعمه إنما هو الله ؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذى يطعمه ، أو أن أمه هى التى تُطعمه ؛ لأنها تُعد له طعامه ، فهما السببان الظاهران فى هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .

ثم يقول عليه السلام : ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] هكذا دون توكيد ؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : ﴿الَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .

إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التى لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق فى هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾ [الروم] أى : تنزيهاً له عن الشركة . وإذا كان رسول الله ﷺ قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعها أحد لنفسه .

إذن : فهى مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو ؟ ولماذا لم يدافع عن حقه فى الألوهية ؟ إن كان لا يدرى فهو غافل ، وإنْ كان يدرى ولم يعارض فهو جبان ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يَبين شىء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١) ﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ، لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجنُّوه إلى أن فقس وفرخ فى المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذى حدث والذى كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المبانى قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لا بُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف فى وجه الفساد ، أو يمنعه ؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » كما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ

آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] أي: غالبين . وفي سورة التحريم : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤)﴾ [التحريم]

وبمعنى « العلو » في قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف]

فالمعنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أي : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدَّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر في الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً ؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد في الكون ؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر في الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل في الذي يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل في الذي يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتي حين تُدخل يدك في شيء وأنت تطرح قانون الله في افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنَبِّهنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له ؛ لذلك في أعقاب الأحداث تزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشى على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنَائزُ مُقْبِلاتٍ ونلهُو حِين تَذْهَبُ مُدبراتِ
كَروْعَةِ ثُلَّةٍ لمغَارِ ذئْبٍ فلما غَابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أي : غلب على قانون الصلاح الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذي لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة ألاَّ تنالها يد الإنسان ؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ .. (٤١)﴾ [الروم] نتيجة لدعوته ﷺ ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1] فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِى أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٤١)﴾ [الروم]

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. (٤١)﴾ [الروم] فتلحظ هنا أن الحق سبحانه لما يذكر الرحمة لا يذكر علّتها ، لكن يذكر علَّة الفساد ؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فَبعدله تعالى ؛ لذلك يُبيِّن لك أنك فعلتَ كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهي أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته في الجزاء ، فالله يقول : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام]

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك في جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقي يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتي عليها الدور في العمل .

فكأن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق لها العشر يقوم مقام المليون ؛ لذلك قالوا لو أن في أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) ، وكذا البخاري في صحيحه (١٠٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف » .

واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة في دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاي ، وآخر لم يأتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً في العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدي عنهم ، وبه تسير دفَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتي ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ.. (٤١)﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة في الهواء مثلاً ؟ لكن نشتكي تلوث الهواء بما كسبتْ أيدي الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] لكنا نشتكي أزمة طعام ، لماذا ؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف في الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضِنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن في البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفي العالم أُناس يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا في الماضي .

وانظر الآن إلى صحرائنا التي كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها

للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض فى منطقة ما فقد جعل الله لنا سعة فى غيرها ، فالخالق سبحانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولذلك قلت فى هيئة الأمم : إن فى القرآن آية واحدة ، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنها قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق فى إجراءات وتأشيرات .. إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجد فى الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفى موضع آخر أرض بلا رجال ، ولو حدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

إذن : الذين وضعوا الحدود والحواجز فى أرض الله أخذوها لأنفسهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعة التى تستقبل خَلْق الله من أى مكان آخر ، إنما جعلوها أرضهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتأمل حدود الدول على الخريطة ، فهى متداخلة ، فترى جزءاً من هذه الدولة يدخل فى نطاق دولة أخرى ، على شكل مثلث مثلاً ، أو تمتد أرض دولة فى دولة أخرى على شكل لسان أو مناطق متعرجة ، فما دُمْتم قد وضعتم بينكم حدوداً ، فلماذا لا تجعلونها مستقيمة ؟

وكأن واضعى هذه الحدود أرادوها بُؤَراً للخلاف بين الدول ، ولا

يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ ﴾ [الرحمن] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : ﴿ كَسَبَتْ .. ⑪ ﴾ [الروم] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة ؛ لأن الحسنة تأتي من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

ألاَ ترى أنك في بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك ؛ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمَّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنِّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذي يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه ؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. ⑧١ ﴾ [البقرة]

فجعل السيئة كَسْبًا لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالي كالذي يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فـاقد) ، فقد أصبح الشر والفسـاد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخجل منه كالذى يقبل الرِّشْوة ، ويفرح لاستقبـالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها ؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا .. (٤١)﴾ [الروم] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصـلاح كما تعاقب ولدك وتضر به حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغى أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدى ولد على ولدك ، فيجرحه فتذهب به للطبيب ، فيـجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدى ، وهذا جرح المداوى .

وحين يُذيـق الله الإنسانَ بعض ما قـدَّمت يداه يوقظه من غـفلته ، ويُنبِّه فـيه الفطرة الإيمـانية ، فيـحتاط للأمـر ولا يهمل ولا يقـصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمـانية بمقـدار وَعْيه الإيمانى ، فـواحد يظلّ يقظاً شـهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق اللهُ أهلَ مكة عـاقبة كـفرهم حـتى جاعوا ولم يجـدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العِلْهِز .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ [الروم] لأن الكلام هنا فى الدنيا ، وهى ليسـتْ دار جزاء ، فالحـق يُذيقهم بعض أعـمالهم ليلتـفتـوا إليه سبـحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حـظيرة الإيمان ؛ لأنهم عبـيده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

والحق سبـحانه ساعـة يقول ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ.. (٤١)﴾ [الروم] أى : على عهد رسول الله ﷺ ليُبيِّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفسـاد ، لكن ما دام الأمر علِّل فالأمـر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلمـا ظهر الفساد حلَّتْ العقـوبة ، فخذوها فى الكون آية من

آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديما ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

لكن هذا الأخذ كان قبل سيدنا رسول الله في الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال ؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد ﷺ فقد أكرمها الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدْعاً في هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾

السير : الانتقال من حيز مكاني إلى حيز آخر . وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية في ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها ؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها . لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٤٢)﴾ [الروم] أن الأرض ليست هي اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها

الجوى لذلك يدور معها وهو إكسير الحياة فيها ؛ فلا حياة لها إلا به.

إذن : فهواء الأرض من الأرض ، وهو أهم الأقوات للأحياء عليها ، فحين يقول تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⟨١٠⟩﴾ [فصلت] فالهواء داخل فيها ، لذلك قال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ⟨٤٢⟩﴾ [الروم]

وقلنا : لو أنك استقرأتَ أجناس الوجود لوجدت أنك الجنس الأعلى في الكون ، وكل الأجناس تحتك تخدمك ، فأنت تنتفع بالحيوان وبالنبات وبالجماد ، فأدنى الأجناس في الكون وهو الجماد له مهمة يؤديها .

فأنت أيها الإنسان الذى كرَّمك الله على كل أجناس الوجود إذا لم تبحث لك عن مهمة تؤديها في الحياة ، ودور تقوم به ، فأنت أقل منزلةً من أدنى الأجناس وهو الجماد ، إذا لم تبحث بعقلك عن شيء ترتبط به يناسب سيادتك على مَنْ دونك ، فأنت أتفه من الحجر ؛ لأن الحجر له مهمة يؤديها ، وأنت لا مهمةَ لك .

لكن هذا الجنس الأدنى إنْ أراد سبحانه أعطاه عزة فوق السيد المخدوم وهو الإنسان ، ففي فَرْض الحج يُسَنُّ لك أن تُقبِّل هذا الحجر ، وتسعى جاهداً لكي تُقبِّله ، وتأمل الإنسان - وهو سيد هذا الوجود - وهو يحاول أنْ يُقبِّل الحجر ، ويغضب إنْ لم يتمكن من ذلك.

وتأمل الردَّ من دولة الأحجار على مَنْ عبدها من دون الله[1] :

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ للــه ... مِنَ القائمين بالأسْحار
تَخِذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلاً ... فَغدونَا لَهُم وقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارى
للمغَالِى جَزَاؤه والمغَالَى فيه ... تُنجيه رَحْمَةُ الغفَّار

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] فالسير فى الأرض يكون إما للسياحة والتأمل فى آيات الله فى كونه ، لذلك يستخدم فيها الفاء ﴿ فَانظُرُوا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] أو يسير فى الأرض لطلب الرزق .

وفى آية أخرى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] والمعنى : سيروا فى الأرض للاستثمار ، وطلب القوت ، وقضاء المصالح ، لكن لا يفوتكم النظر والتأمل فى آيات الله وفى مخلوقاته لتأخذوا منها العبرة والعظة .

ومعنى : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ.. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] أى : الذين ظهر الفساد بينهم ، فأذاقهم الله الألم بما كسبتْ أيديهم ، فهذه ليست عندك وحدك ، إنما حدثتْ فى الأمم السابقة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات]

فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة .. إلخ انظر ما حلَّ بهم بعد الحضارة والنضارة ، بعد ما توصلوا إليه من علم التحنيط الذى لم يعرف العلم أسراره حتى الآن ، ويضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشعير ، فتظل على حالها ، بحيث إذا زُرعت بعد آلاف السنين تنبت .

إنها قدرة علمية فائقة ، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمى نفسها من الاندثار ، وإذا كان القرآن قد قال عن الحضارة الفرعونية ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر] فقد قال عن إرم ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

فأىُّ حضارة هذه ؟ وأين هى الآن ؟ طمرتها رمال الأحقاف[1] ، ودفنتها تحت أطباق الثرى ، ولا تعجب من ذلك ، ففى هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة ، فإنها تغطى قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض ، فما بالك بالعواصف منذ قرون طوال ؟ لذلك نجد كل الآثار يتم التنقيب عنها حَفْراً .

إذن : فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمى نفسها من الزوال ، وهذا دليل على وجود قوة أعلى منها تزيلها وتقضى عليها .

وقوله تعالى : ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾ [الروم] أى : أن القليل منهم لم يكُنْ مشركاً ، قالوا : هذه القلَّة هم الصبيان والمجانين ، ومن ليس له إرادة حرة ، وإن أخذت هذه القلة مع الكثرة المشركة ، فإن الله إنما أراد بهم خيراً ؛ لأن مثواهم إلى الجنة بغير حساب .

لذلك لما تكلمنا عن موسى والعبد الصالح فى سورة الكهف : لما قتل الخضر الغلام تعجَّب موسى ، ففى المرة الأولى خرق السفينة واعتدى على ملْك ، أما فى هذه المرة فقد أزهق روحاً ؛ لذلك قال فى الأولى ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ [الكهف] أى : عجيباً ، أما فى الثانية فقال : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الخضر الحكمة من قتل الغلام فقال : إن له أبوين صالحين ، وفى علم الله تعالى أنه سيفسد عليهما دينهما ؛ لأن الفتنة تأتى الإنسان غالباً من الزوجة أو من الولد ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤)﴾ [التغابن] لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما ، ولأن الفساد يأتى من ناحيتهما قال سبحانه :

---

(١) قال الأزهرى : الأحقاف رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . [لسان العرب ـ مادة : حقف] .

﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝﴾ [الجن] يعنى : طمئنوا عبادى ، فلا أحد يؤثر على إرادتى .

إذن : فالخضر صنع الجميل بالوالدين ، حيث أنقذهما من هذا الابن ، وصنع أيضاً جميلاً بالغلام حيث قتله قبل سنِّ التكليف ، وجعل مصيره إلى الجنة ، وربما لو تركه لكان كافراً بالله عاقاً لوالديه ، وهذا كله إنما جرى بأمر الله وحكمه : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. ۝﴾ [الكهف]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنبيه فى هذه المسألة بداية من ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. ۝﴾ [الروم] ثم إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك فى دعوتك عليهم .

كل ذلك إنما يعنى أننى أقوِّى مركزك ، ولن أتخلى عنك ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن يُؤثِّر فيك مكرهم أو تركن إلى أحد منهم ممَّنْ قالوا لك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، لكن يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۝﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ .. ۝﴾ [الروم] يعنى : اطمئن يا محمد ، وتفرغ لعبادة الله لأننى وعدتُك بالنصر ، وأجبتُك حين قُلْت : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنىِّ يوسف »[2] .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنىِّ يوسف » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٤٧٠) ، والبخارى فى صحيحه (١٠٠٦) .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] يعني : مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدنيا نالته عقوبة الآخرة .

وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ .. (٤٣) ﴾ [الروم] لأن الوجه محلُّ التكريم ، وسيد الكائن الإنساني ، وموضع العزة فيه ، بدليل أن السجود والضراعة لله تعالى تكون بوضع هذا الوجه على الأرض ؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلِّفه أمراً يقضيه برجْله ، أو بيده ، أو بلسانه ، أو بأيِّ جارحة من جوارحه تقول له : أرجو أنْ تُبيِّض وجهي ؛ لأن الوجه هو السيد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] لأنك لا تعرف سمة الناس إلا بوجوههم ، ومَنْ أراد أنْ يتنكر أو يُخفي شخصيته يستر مجرد عينيه ، فما بالك إنْ ستر كل وجهه ، وأنت لا تعرف الشخص من قفاه ، ولا من كتفه ، ولا من رجله ، إنما تعرفه بوجهه ، ويقولون : فلان وجيه القوم ، أو له وجاهته في القوم ، كلها من ناحية الوجه .

وما دام قد خصَّ الوجه ، وهو أشرف شيء فيك ، فكُلُّ الجوارح مقصودة من باب أوْلَى فهي تابعة للوجه ، فالمعنى : أقم يدك فيما أمرك الله أن تفعل ورجلك فيما أمرك الله أنْ تسعى ، وقلبك فيما أمرك الله أن تشغل به ، وعينك فيما أمرك الله أن تنظر فيه .. الخ .

يعني : انتهز فرصة حياتك ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ .. (٤٣) ﴾ [الروم] هو يوم القيامة ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ .. (٤٣) ﴾ [الروم] المعنى : أن الله حين يأتي به لا يستطيع أحد أنْ يسترده من الله ، أو يأخذه من يده ، أو يمنعه أنْ يأتي به ، أو أنه سبحانه إذا قضى الأمر لا يعود ولا يرجع فيه .

فكلمة ﴿مِنَ اللَّهِ .. (٤٣)﴾ [الروم] تعطينا المعنيين ، كما في قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله ؟ قالوا : كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله أصلاً ، وبناءً على أمره تعالى بالحفظ .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ .. (٤٣)﴾ [الروم] يعني : في اليوم الذي لا مردَّ له من الله ﴿يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم] أي : هؤلاء الذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك ، وتعصَّبوا ضدك ﴿يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم] أي : ينشقُّون بعضهم على بعض ، ويتفرقون ، وقد وردت هذه المسألة في آيات كثيرة .

والتفريق إما إيمان وكفر أي : أشقياء وسعداء ، وإما أن يكون التفريق في القوم الذين عاندوا واتبعوا أتباعهم على الشرك ، فيتبرأ كل منهم من الآخر . كما قال سبحانه : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦)﴾ [البقرة]

ثم قال الحق ليبين لنا ذلك التفريق في الآخرة بعلَّته . وعلَّته ما حدث في الدنيا ، فالله تعالى لا يظلم أحداً ، فقال بعد ذلك :

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾

ما دامت القيامة أمراً لا مردَّ له من الله ، فلنتنبه للعواقب ، ولنحسب لها حساباً ، فمَنْ كفر فعليه كفره ، عليه لا له ، وهذه قضية تقتضي أن نقول في مقابلها : ومَنْ آمن فله إيمانه .

بعد أن بيَّن الدلائل الواضحة على واحديته في الكون ، وأحديته في ذاته سبحانه ، وبيَّن الأدلة الكونية بكُلِّ صورها برهاناً وحجةً ، وضرب أمثالاً وتفصيلاً بعد ذلك قال : سأقول لكم أنكم أصبحتم مختارين أي : خلقتُ فيكم الاختيار في التكليف حتى لا أقهر أحداً على الإيمان بي .

وخَلْق الاختيار في التكليف بعد القهر في غير التكليف يدلُّ على أن الله تعالى لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر ، ولكنه يريد أنْ يجذب الناس بمحبوبيتهم للواحد الأحد .

وإلا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين ، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكَّن من الكفر ، وتسير إلى الطاعة مرغمة ، كما قال سبحانه حكاية عن السماء والأرض : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار في الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن هذه المسألة بوضوح قال : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب] والإباء هنا ليس إباءَ تكبُّر على مراد الله ، إنما وضعوا أنفسهم في الموضع الطبيعي ، فقالوا : لا نحمل الأمانة ؛ لأننا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء .

والإنسان كذلك ابن أغيار ، فقد يحمل الأمانة ، ويضمن أداءها في وقت التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه عند الأداء ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بمَنْ يقبل الأمانة ، ويرحب بها عند التحمل ، ثم تطرأ عليه من أحداث الحياة ما يضطره لأنْ يمدَّ يده إلى هذه الأمانة وإنْ كان في نيته الأداء ، لكن يأتي وقته فلا يستطيع ، وآخر يُقدِّر هذه المسئولية ويرفض تحمل الأمانة . وهذا هو العاقل الذي يُقدِّر الظروف وتغيَّر الأحوال .

ومعلوم أن الأمانة لا تُوثَّق ، فإنْ كتبتَ وشهد عليها فإنها لم تَعُدْ أمانة . فالأمانة إذن مردُّها لاختيار المؤتمن إنْ شاء أقرَّ بها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالحق سبحانه قال حكايةً عن السموات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لأنهم يُقدِّرون مسئوليتها ، أما الإنسان فقد تعرَّض لحملها وقال : عندى عقل أفكر به ، وأختار بين البدائل ، وسوف أؤدى ، فضمن وقت التحمل ، لكنه لا يضمن وقت الأداء ، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور .

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ظلوماً لنفسه ، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فإنه لا يثبت على حال ؛ لذلك قلنا : إذا صعد الإنسان الجبل إلى قمته وهو ابن أغيار فليس أمامه إلا أنْ ينزل ، والعقلاء يخافون أنْ تتم لهم النعمة ؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقصان ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شيء بَدَا نَقْصُه ... ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَمّ

فإذا قلت : لماذا خلق الله الاختيار فى الإنسان ولم يخلقه فى الأجناس التى تخدمه من جماد ونبات وحيوان ؟ نقول : كُنْ دقيقاً ، وافهم أنها أيضاً خُيِّرت بقوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : هذه الأجناس أيضاً خُيِّرت ، لكنها اختارت اختياراً واحداً يكفيها كل الاختيارات ، فقالت : نريد يا رب أنْ نكون مقهورين لكل ما تريد .

ولما كنا مختارين أعطانا الله تعالى هذه القضية : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ.. (٤٤)﴾ [الروم] وكلمة (عَلَيْهِ) تفيد الدَّيْن والوِزْر ، و (له) تفيد النفع ، فإذا جئنا بالمقابل بقول : ومَنْ آمن فله إيمانه ، كما في : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

لكن القرآن لم يأت بهذا المقابل ، إنما عَدَل إلى مسألة أخرى : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] فلماذا ؟ قالوا : لأن فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله فتؤمن به ، فإذا ما أمرك تطيع ، فعِلَّة الإيمان التكليف ؛ لذلك حين تبحث أيَّ تكليف إياك أنْ تنظر إلى علَّته فتقول : كلفني بكذا لكذا ، فعلَّة التكليف وحكمته عنده تعالى .

فإذا قلنا مثلاً : حكمة الصيام أنْ يشعر الغنيُّ ويذوق ألم الجوع فيعطف على الفقير ، فهل يعني هذا أن الفقير المعدَم لا يصوم ؟ إذن : ليست هذه حكمة الصيام ، والأصوب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أراد مني أن أصوم ، وحكمة الصيام عنده هو .

ومثَّلنا لذلك ولله تعالى المثل الأعلى : أنت حين تشكو مرضاً أو ألماً تسأل عن الطبيب الماهر والمتخصص حتى تنتهي إليه ، وعندها تنتهي مهمة عقلك ، فتضع نفسك بين يديه يفحصك ويُشخِّص مرضك ، ويكتب لك الدواء ، فلا تعارضه في شيء ، ولا تسأله لماذا كتب هذا الدواء .

فإذا سألك زائر مثلاً : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ لا تقول : لأن من خصائصه كذا ، ومن تفاعلاته كذا ، إنما تقول : لأن الطبيب وصفه لي ، مع أن الطبيب بشر قد يخطىء ، وقد يكتب لك دواءً ، أو يعطيك حقنة ترديك ، ومع ذلك تُسلِّم له بما يراه مناسباً لك ، فإذا كنت

لا تناقش الطبيب وهو خطأ ، فكيف تناقش الله فيما فرضه عليك وتطلب علَّةً لكل شيء ؟

ولا يناقش في علل الأشياء إلا المساوى ، فلا يناقش الطبيبَ إلا طبيبٌ مثله ، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله تعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُسَاوٍ له سبحانه يمكن أنْ يناقشه .

والحق سبحانه يُبيِّن لنا علَّة الإيمان ـ لا الإيمان في ذاته ـ إنما ما يترتب عليه من طاعة أوامر هذا الإله ، وعلى طاعة هذه الأوامر يترتب صلاح الكون ، بدليل أن الله يطلب من المؤمنين أنْ ينشروا الدعوة ، وأن يُبلِّغوها ، وأن يحاربوا مَنْ يعارضها ويمنعهم من نشرها .

فما شُهِر السيف في الإسلام إلا لحماية بلاغ الدعوة ، فإنْ تركوك وشأنك فدَعْهم ، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام ظل بها أصحاب ديانات أخرى على دياناتهم ، وهذا دليل على أن الإسلام لم يُرغِم أحداً على اعتناقه .

لكن ما دام الإسلام قد فتح البلاد فلا بُدَّ أنْ تكون له الغَلَبة ، وأنْ يسير الجميع معه في ظلِّ منهج الله ، فيكون للكافرِ ولغير ذي الدين ما لصاحب الدين .

فكأن الحق سبحانه يريد لقوانينه أنْ تحكم آمنت به أو لم تؤمن ؛ لأن صلاح الكون لا يكون إلا بهذه القوانين .

إذن : فأنت حُرٌّ ، تؤمن أو لا تؤمن ، لكن مطلوب ممَّنْ آمن أنْ يحمي الدعوة في البلاغ ، ثم يترك الناس أحراراً ، مَنْ آمن فبها ونعمت ، ومَنْ أبى نقول له : لك ما لنا ، وعليك ما علينا .

إذن : فأصل الإيمان لصلاح الخلافة ، ولا يهتم الله سبحانه بأنك تؤمن أو لا تؤمن ، ما دام منهج الخلافة قائماً ، وهذا المنهج يعود نفعه على المؤمن وعلى الكافر ، فإذا كان الإيمان يُربِّي الإنسان على ألاَّ يفعل إلا خيراً وصلاحاً ، فالكافر لا بُدَّ وأن يستفيد من هذا الصلاح . وهل قال الشرع للمؤمن : لا تسرق من المؤمن ؟ لا إنما أيضاً لا تسرق من الكافر .. الخ ، فالكل أمام منهج الله سواء .

وفي القرآن آية ينبغي أنْ نتنبه لها ، وتعرف غير المؤمنين بها ، ليعلموا أن الإيمان إنما يحمي مصلحة الناس جميعاً ، إنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء] يعني : إنْ خطر لك أن تكون لصالح الخائن ، استغفر الله من هذا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النساء] ولو كان مؤمناً به .

ولهذه الآية قصة مشهورة هي قصة اليهودي زيد بن السمين . وقد جاءه طعمة بن أبيرق - وكان مؤمناً - وقال : يا زيد خُذْ هذه الدرع أمانة عندك فقبله زيد ، وإذا بالدرع مسروق قد سرقه ابن أبيرق من قتادة بن النعمان[1] ووضعه في جوال من الدقيق ، فكان على الدرع آثار الدقيق ، فلما بحث ابن النعمان عن دِرْعه دلّه أثر الدقيق على بيت ابن السمين اليهودي فاتهمه بسرقته .

ثم جاءوا به إلى النبي ﷺ ليحكم في أمره ، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيرق ، وأنه وضعه عنده على سبيل الأمانة .

---

(١) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي ، صحابي بدري ، من شجعانهم ، كان من الرماة المشهورين ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكانت معه يوم الفتح راية بني ظفر ، وتوفي بالمدينة عام ٢٣ هـ وهو ابن ٦٥ سنة ، وهو أخو أبي سعيد الخدري ، لأمه . (الأعلام للزركلي ٥/١٨٩) .

وعندما عزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم ، وأن يأخذها اليهود ذلّة في حقّهم ، وأخذ النبي ﷺ يدير الأمر في رأسه ، فإنْ حكم على المسلم أخذها اليهود حجة ، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة في الدين ، فأسعفه ربه بهذه الآية : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] فقال : بين الناس لا بين المؤمنين فحسب .

ومعنى ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] البعض يقولون : لا تخاصم الخائن حتى لا يضطهدك ، إنما المراد : لا تكُنْ خصيماً لصالحه . ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين ؛ لأن الله في مبدأ الإصلاح لا يحب كل خوَّان أثيم .

ولو أن غير المسلمين تنبهوا إلى هذه القضية ، وعلموا أن الله تعالى عدل الحكم للمؤمنين ، وأعلنه لرسول الله ، وقرر أن الحق هو الحق ، والكل أمامه سواء المؤمن وغير المؤمن لعلموا أن الإسلام هو الدين الحق ولأقبلوا عليه ، لذلك يقول النبي ﷺ : « من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة »[1] .

لأنك إنْ عاديتَه واضطهدته أو هددتَه في حياته ، أو في عرْضه ، أو في ماله لصارتْ حجة له في ألاَّ يؤمن ، وله أنْ يقول : إذا كان هذا هو حال المؤمنين ، فما الميزة في الإسلام حتى أعتنقه ؟ بل من مصلحتي أنْ أبتعد عنه ، لكن إنْ عاملتَه بالحق وبالخير والحسنى

(١) أخرج أبو داود في سننه (٣٠٥٢) عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » . قال السخاوي في المقاصد الحسنة : سنده لا بأس به ، ولا يضر جهالة من لم يُسمَّ من أبناء الصحابة ، فإنهم عدد منجبر به جهالتهم .

لعطفته إلى الإسلام ، وجعلته يُؤنِّب نفسه ألاَّ يكون مسلما .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - جاءه رجل فاشتمَّ منه أنه غير مسلم ، فلما سأله قال : أنا مجوسي فردَّ الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، وإذا بإبراهيم - عليه السلام - يتلقى الوحي من الله : يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيِّفه لأنه على غير دينك ، وأنا قبلته طوال عمره في مُلْكي وهو كافر بي .

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به واسترضاه ، فقال الرجل : وماذا جرى لقد طردتني ونهرتني منذ قليل ؟ فقال : إن ربي عاتبني في أمرك ، فقال الرجل : إنَّ ربا يعاتب أنبياءه بشأن أعدائه لحقيق أن يُعبد . لا إله إلا الله ، إبراهيم رسول الله .

إذن : نفهم من هذا أن العمل الصالح هو مطلوب الإيمان ، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئن أنه إله حق ، فلا يهم بعد ذلك أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، المهم قاعدة الصلاح في الكون وفي حركة الحياة ؛ لذلك لم يقل ومَنْ آمن فله إيمانه . كأن المراد بالإيمان العمل ﴿ومَن عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] لأنه لا يعمل صالحا إلا إذا كان مؤمنا .

ونلحظ هنا أن الآية تتحدث عن صيغة المفرد : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا .. (٤٤)﴾ [الروم] ثم يتحول إلى صيغة الجمع ﴿فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] ولم يقُلْ : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الذي يعمل الصالح لا يعمله لذاته ، إنما له ولذريته من بعده ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١)﴾ [الطور] إذن : ساعةَ تكلم عن الإيمان جاء بالمفرد ، وساعةَ تكلم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع .

كما أن العمل الصالح يأتي من ذات الإنسان ، ويستقبله هو من غيره ، وكلمة (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنى وللجمع بنوعيه ، وتحل محلَّ جميع الأسماء الموصولة تقول : من جاءك فأكرمه ، ومَنْ جاءتك فأكرمها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم .. الخ . كذلك في هذه الآية استعمل مَنْ للدلالة على المفرد ، وعلى الجمع .

وتأمَّل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه ؟ قالوا : نعم لأن المؤمنين شيء واحد ، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنك سلَّمت على الجميع . وأيضاً إذا قلْت لصاحبك السلام عليكم يردُّ عليك : وعليكم السلام ، فكأنك سلَّمْتَ على نفسك .

ومعنى ﴿ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] مأخوذة من المهْد ، وهو فراش الطفل . والطفل لا يُمهده ولا يُسوِّيه ويُهيِّئه ، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوِّي له مهده ، ويفرشه ويُعده ، فكأن الذي يعمل الصالح في الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً في الآخرة ، كما يحكي أبو منصور بن حازم عن أبي عبد الله بن الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه ، كما يمهد الخادم لأحدكم فراشه .

لذلك سبق أن قلنا : إن الذين يؤثرون على أنفسهم يؤثرون من الفانية ليُدَّخر لهم في الباقية ، وسيدنا رسول الله ﷺ حينما أُهديت له الشاة ، وعاد ليسأل أم المؤمنين عائشة عنها فقال لها : « ماذا صنعت بالشاة ؟ » . فقالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، يعني : تصدَّقْتُ بها إلا كتفها ، فقال سيدنا رسول الله : « بل ، بقيت كلها إلا كتفها »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٥٠) ، والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذي : حديث صحيح .

وفي حديث آخر : « يا بْن آدم ، تقول : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما لبسْتَ فأبليتَ ، أو أكلتَ فأفنيتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيتَ »(١).

والإمام علي رضي الله عنه يسأله أحدهم : أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام : الجواب عندك أنت . فقال : كيف ؟ قال : هَبْ أنه دخل عليك شخص بهدية ، وآخر يطلب منك صدقة فلأيهما تبش؟ إنْ كنت تبش لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا وإن كنت تبشّ لطالب الصدقة فأنت من أهل الآخرة .

ذلك لأن الإنسان يحب ما يعمر له محبوبه ، فإنْ كان من أهل الدنيا يحب ما يعمرها له ، وإنْ كان من أهل الآخرة يحب مَنْ يعمر له آخرته .

ثم يعلل الحق سبحانه لماذا يمهدون لأنفسهم :

﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وذكر هنا الإيمان فقال ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٤٥) ﴾ [الروم] ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٤٥) ﴾ [الروم] حتى لا يظن أحد أن العمل الصالح ربما يُغني عن الإيمان . وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة ، يقولون : كيف أن الرجل الكافر الذي يعمل الصالحات لا يُجازَى عليها ؟

نقول له : أُجِر ويُجازَى على عمله الصالح لكن في الدنيا ؛ لأنه لم يعمل لله ، بل عمل للشهرة وللصيت ، وقد أخذ منها تكريماً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه .

وشهرة وتخليداً لذكْراه وأقيمت لهم التماثيل .. إلخ . أما جزاء الآخرة فلمَنْ عمل العمل لوجه الله خالصاً .

والقرآن يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يقول : إياكم أنْ تُغشُّوا بمن يعمل الأعمال للدنيا :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وجاء في الحديث : « فعلتَ ليُقال وقد قيل »[1] نعم بنيت مسجداً ، لكن كتبت عليه : بناه فلان ، وشرَّف الافتتاح فلان .. الخ فماذا تنتظر بعد ذلك . إن ربك يريد العمل الخالص لوجهه تعالى ، كما جاء في الحديث « ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه »[2] .

فقوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٤٥) ﴾ [الروم] يدل على أن العمل الصالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يفيد صاحبه في الدنيا ، لكن لا يفيده في الآخرة إلا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ، ثم يربط الإيمان بالعمل الصالح حيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ .. (٤٥) ﴾ [الروم] أي : تفضُّلاً من الله ،

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل أستشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار .. » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٦/٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » الحديث .

حتى لا ينخدع أحد بعمله ، ويظن أنه نجا به ، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء يقولون : مرة يقول القرآن ﴿مِن فَضْلِهِ .. (٤٥)﴾ [الروم] ومرة يقول : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] أى : أنها حق لكم بما قدَّمتم من عمل ، فهل الجنة حق للمؤمنين أم فضل من الله ؟

ونقول : العمل الذى يطلبه الله تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ ؟ يعود على الإنسان ، ولا يستفيد الله منه بشيء ؛ لأن له تعالى صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلْكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة إذا غمسه أحدكم فى بحر ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردتُه أن أقول له : كُنْ فيكون »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

إذن : فالأعمال التكليفية لخير الإنسان نفسه ، وإنْ كانت فى الظاهر تقييداً لحريته . فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله ، فنأخذ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن . فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

على يديه ، وتمنعه ونقول له : تنبَّه أننا منعناك من السرقة وأنت واحد ، ومنعنا الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، فأنت إذن المستفيد من منهج الله ، فلا تنظر إلى ما أخذه منك التكليف ، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التكليف من الغير .

وما دام التكليف كله في مصلحتك ولخيرك أنت ، فإنْ أثابك الله عليه بعد ذلك فهو فضل من الله عليك ، كما تقول لولدك مثلاً : إنْ تفوقتَ سأعطيك كذا وكذا مع أنه المستفيد من التفوق ، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً .

كذلك الحق تبارك وتعالى يحب عبده أنْ يتقن عمله ، وأن يجتهد فيه ؛ لذلك يعطيه مكافأة عليه مع أننا المستفيدون منه .

ويقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥)﴾ [النور] فجعله حقاً عليه سبحانه ، كما قال : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]

ولو بحثنا كلمة «حق» فلسفياً لوجدنا أن كل حق لك يقابله واجب على غيرك ، فلا يكون حقاً لك إلا إذا كان واجباً على غيرك ، فحقُّك هنا واجب إذن على الله تعالى ، لكن الواجب يقتضي مُوجباً فمَنْ أوجب على الله ؟ لا أحد ؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه .

إذن : فالحق الذي جعله لك تفضُّلاً منه سبحانه ، والحق في أنه جعل لك حقاً ، كالذي ليس له حق في الميراث ، فيتفضل عليه واحد في التركة ويجعل له وصية يكتبها له ، فتصير حقاً واجباً ، له أن يطالب الورثة به شرعاً ؛ لأن المورِّث تفضَّل وجعله حقاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾ [الروم] نلحظ في

الآية أنها تتحدث عن جزاء المؤمنين ، فما مناسبة ذكْر الكافرين هنا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يلفت نظر عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه ، كأنه يقول له : تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - رجل عنده ثلاثة أولاد وَعَدهم بهدية لكل مَنْ ينجح في دراسته ، فجاء آخر العام ونجح اثنان ، وأخذ كل منهما هديته ، وتألم الوالد للثالث الذي أخفق وتمنى لو كان مثل أخويْه .

وكذلك الحق سبحانه لا يحب الكافرين ؛ لأنه يحب أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان ؛ لأن الجميع عباده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها ، وهم خَلْقته وصَنْعته ، وهل رأيتم صانعاً حطم صنعته وكسرها ، إذن : فالله تعالى حريص على عباده حتى الكافر منهم .

وجاء في الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك . وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فماذا قال الرب الخالق للجميع ؟ قال : « دعوني ومن خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[1] .

(١) أورده أبو حامد الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي ، وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً ، فأبدله له حسنات » .

لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض ، ويضرب لنا سيدنا رسول الله مثلاً لتوضيح هذه المسألة فيقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضله فى فلاة »[1] .

فالله لا يحب الكافرين لأنهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل ، وما ذاك إلا لأنه سبحانه مُحِبٌ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله على عباده .

فإرسال الرياح وحدها نعمة ، وتبشيرها بالمطر نعمة ، وإجراء الفُلْك نعمة ، والابتغاء من فضل الله نعمة ، ثم الشُّكْر على هذا كله نعمة أخرى .

والآيات : جمع آية . وهى كما قلنا : الشىء العجيب الذى يجب أنْ يلفت الأنظار ، وألاَّ يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن ، ومن ذلك قولنا :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك رضى الله عنه واللفظ للبخارى . و « وقع على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أنْ ضلَّ منه . والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

فلان آية فى الفصاحة ، أو آية فى الجمال .. إلخ .

وتُطلق الآيات ويراد بها معَانٍ ثلاثة : آيات كونية تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتثبت قدرة الخالق .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧)﴾ [فصلت]

وآيات بمعنى المعجزات التى تصاحب الرسل ؛ لتثبت صدْقهم فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات التى تحمل الشرع والأحكام ، وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل إلينا منهج الله .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن الآيات الكونية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ .. (٤٦)﴾ [الروم] كلمة الرياح جمع ريح ، والرياح هنا بالمعنى العام : الهواء ، وهو أنواع : هواء ساكن ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

والهواء الساكن يضايق الإنسان ، حيث يُصعِّب عليه عملية التنفس ، فيجلب الهواء لنفسه إما بيده أو بمروحة . لماذا ؟ ليجدد الأكسوجين فى الهواء المحيط به فيستطيع التنفس ، والهواء يأتى مرة ساخناً يلفح الوجوه ، ومرة نسيماً رطباً مُنعشاً عليلاً ، ويأتى عاصفاً مدمراً .. إلخ .

والحق سبحانه - كما سبق أنْ بيَّنَّا - رتَّب مقومات حياة الخليقة فى الأرض على : الهواء ، ثم الماء ، ثم الطعام على هذا الترتيب ، وحَسْب أهمية هذه المقومات . فالهواء هو أهم مُقوِّم فى حياة الكائن الحى ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلا لحظة بمقدار شهيق وزفير ولو حُبِس عنه لمات . ثم الماء ويصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيام . ثم الطعام ويصبر عليه إلى شهر .

لذلك من حكمة الخالق سبحانه ألاَّ يُملَك الهواء لأحد ، ولو ملكه أحد وغضب عليك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، أما الماء فقليل أنْ يُملكه للناس ، أما الطعام فكثيراً ما يملك ؛ لأن الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكِّنه أن يكتسبه ، ويحتال عليه ، أو لعل مالكَ الطعام يرقُّ قلبه ويعطيك.

لذلك نسمع من عبارات التهديد : والله لأكتم أنفاسه ، كأن هذه العملية هي أقسى ما يمكن فعله ؛ لأنك قد تمنع عنه الماء أو الطعام ولا يموت ، لكن إنْ منعتَ عنه الهواء فهي نهايته ، وهي أسرع وسائل الإبادة للإنسان وأيسرها وأقلّها أثراً ، فلا يترتب عليها دم ولا جروح مجرد منديل مبلل بالماء . إذن : الهواء مُقوِّم هام حياة وإماتة .

وقلنا : إذا حُبس الهواء أو سكن لا يتجدد فيه الأكسوجين فيتضايق الإنسان ؛ لأن أنفاسه تكتم ، أما إذا حدثت في المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضج : افتحوا النوافذ ، لماذا ؟ ليتجدد الهواء .

إذن : إرسال الرياح في ذاتها نعمة ، فإذا كان فيها برودة وشعرتَ بطراوتها فهي تُبشِّرك بالمطر ؛ لذلك كان العربي يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السحابة التي ستمطره ، إذن : فالتبشير بالمطر نعمة أخرى .

وهاتان النعمتان إرسال الرياح وإنزال المطر ، لا دخلَ للإنسان فيهما ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] أي : بالمطر أما في آية الفلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] فنسب الجريان إلى الفُلْك لأن للإنسان يداً فيها وعملاً ، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] أي : تسيرون في البحر للصيد وطلب الرزق ، أو حتى للنزهة والسياحة .

إذن : الآية التي لا دخلَ للإنسان فيها تُنسَب إلى الله وحده ، وإنْ كان

للإنسان فيها عمل نسبها إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [الواقعة]

فأعطانا نعمة الحياة ، ثم ذكر ما ينقضها ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور ، ولما كانت آية الحياة وآية الموت لا دخلَ للإنسان فيها اكتفى بهذا الاستفهام ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] ولا أحدَ يستطيع أنْ يقول أنا خلقتُ .

أما في آية الحَرْث ، فنسب الحرث إلى الإنسان ؛ لأن عمله كثير في هذه الآية ، حيث يحرث ويبذر ويروى .. إلخ لذلك قال في نَقْض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكدَ الفعل باللام حتى لا تغترَّ بعملك في الزرع .

أما في الماء ، فلم يذكر هذا التوكيد ؛ لأن الماء نعمة لا يدَ للإنسان فيها ؛ لذلك قال في نقضها ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

النعمة الخامسة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] وهذه النعمة هي كنز النعم كلها وعقالها ، فإنْ شكرتَ لله نعمه عليك زادك منها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يُسلِّي الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

يعنى : يا محمد ، إنْ كنتَ تعبت فى الدعوة ، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً . فنحن مع ذلك نصرناك ، وخُذْ لك أسوة فى إخوانك من الرسل السابقين ، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرضتَ له ، فهل أسلمنا رسولنا لأعدائه ؟ إذن : اطمئن ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً .

ومعنى ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٤٧)﴾ [الروم] أى : الآيات الواضحات التى تثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. (٤٧)﴾ [الروم] وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السياق ، فلم يقُل القرآن أنهم كذبوا ، إنما جاء بعاقبة التكذيب ﴿فَانتَقَمْنَا .. (٤٧)﴾ [الروم]

وهذا الإيجاز واضح فى قصة هدهد سليمان ، فى قوله تعالى : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل] ثم أتبعها مباشرة : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السياق ، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم .

وتكذيب الأمم السابقة للآيات التى جاءتهم على أيدى الرسل دليل على أنهم أهل فساد ، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد ، فشىء طبيعى أنْ يعاندوا الرسل الذين جاءوا للقضاء على هذا الفساد ، وأنْ يضطهدوهم ، فيغار الله تعالى على رسله ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. (٤٧)﴾ [الروم]

ثم يقرر هذه القضية : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم] وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ، ثم يُسلمه لأعدائه ، أو يتخلى عنه ؛ لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ

كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وسبق أنْ قُلْنا : لا ينبغي أن تبحث في هذه الجندية : أصادق هذا الجندي في الدفاع عن الإسلام أم غير صادق ؟ إنما انظر في النتائج ، إنْ كانت له الغلبة فاعلم أن طاقة الإيمان فيه كانت مخلصة ، وإنْ كانت الأخرى فعليه هو أن يراجع نفسه ويبحث عن معنى الانهزام الذي كان ضد الإسلام في نفسه ، لأنه لو كان من جُنْد الله بحق لتحقق فيه ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] ولا يُغلب جند الله إلا حين تتحلّ عنهم صفة من صفات الجندية .

وتأمل مثلاً ما حدث في غزوة أحد ، حيث انهزم المسلمون - وإنْ كانت كلمة الهزيمة هنا ليست على سبيل التحقيق لأن المعركة كانت سجالاً ، وقد انتصروا في أولها ، لكن النهاية لم تكُنْ في صالحهم ؛ لأن الرماة خالفوا أمر رسول الله[1] ، والهزيمة بعد هذه المخالفة أمر طبيعي .

وهل كان يسرُّك أيها المسلم أنْ ينتصر المسلمون بعد مخالفتهم أمر رسولهم ؟ والله لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر رسولهم لهانَ كل

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢٠٩/٣) عن موسى بن عقبة في حديث طويل ، أن رسول الله ﷺ أمر خمسين رجلاً من الرماة فجعلهم نحو خيل العدو ، وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير ، وقال لهم : أيها الرماة إذا أخذنا منازلنا من القتال فإن رأيتم خيل المشركين تحركت وانهزم أعداء الله فلا تتركوا منازلكم ، إني أتقدم إليكم أن لا يُفارقن رجل منكم مكانه واكفونى الخيل ، فوعظ إليهم فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذي نزل بالنبي ﷺ يومئذ والذي أصابه .. فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم ، قالوا : والله ما نجلس ها هنا لشيء ، قد أهلك الله العدو وإخواننا في عسكر المشركين ، وقال طوائف منهم : علام نُصفُّ وقد هزم الله العدو ، فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي ﷺ ألا يتركوها وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول » . الحديث .

أمر لرسول الله بعدها ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره وانتصرنا . إذاً فمعنى ذلك أن المسلمين لم ينهزموا ، إنما انهزمت الانهزامية فيهم ، وانتصر الإسلام بصدْق مبادئه .

كذلك في يوم حنين الذي يقول الله فيه ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة] حتى أن الصِّديق نفسه يقول : لن نُغلَب اليوم عن قلة ، فبدأت المسألة بالهزيمة ، لكن الأمر كما تقول (صحيوا على ربنا) فأنزل السكينة عليهم ، وشاء سبحانه أن يسامحهم في هذه الزلَّة مراعاة لخاطر أبي بكر .

فقوله تعالى ﴿ وَكَانَ حَقًّا[1] عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم] نعم ، نصر المؤمنين حَقٌّ على الله ، أوجبه سبحانه على نفسه ، فهو تفضُّل منه سبحانه ، كما يتفضل الموصِي بماله على الموصَى له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

الحق سبحانه يعطينا هنا مذكرة تفصيلية لعملية حركة الرياح ، وسَوْق السحاب ، وإنزال المطر ، وكلمة الرياح إذا جُمعَتْ دلَّتْ على الخير كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٠٠) : « كان أبو بكر يقف على « حقا » أي : وكان عقابنا حقاً ، ثم قال : « علينا نصر المؤمنين » ابتداء وخبر ، أي أخبرنا به ولا خُلْف في خبرنا » .

أى : تُلقِّح النباتات فتأخذ من الذكَر ، وتضع فى الأنثى ، فيحدث الإثمار ، ومن عجيب هذه العملية أن ترى الذكر والأنثى فى العود الواحد كما فى نبات الذرة مثلاً ، ففى (الشُّوشة) أعلى العود حبات اللقاح الذكر ، وفى الشعيرات التى تخرج من الكوز متصلة بالحبات توجد أعضاء الأنوثة ، ومع حركة الرياح تتناثر حبات اللقاح من أعلى وتنزل على هذه الشعيرات ، فتجد الشعيرة التى لُقحت تنمو الحبة المتصلة بها ، أما الأخرى التى لا يصلها اللقاح فتموت .

ولذلك نلحظ أن العيدان التى فى مهبّ الريح أو ناحية بحرى أقلّ محصولاً من التى تليها ، لماذا ؟ لأن الرياح تحمل حبّات لقاحها إلى العيدان الأخرى التى تليها ، فيزداد محصولها .

فإذا كانت بعض النباتات نعرف فيها الذكر من الأنثى كالنخيل ، والجميز مثلاً ، فأين الذكر والأنثى فى القمح ، أو فى الجوافة ، أو فى الموز .

ولما درسوا حبوب اللقاح هذه وجدوا أن كل حبة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة مثل القطيفة تتناثر مع الرياح ، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة ؛ لذلك ترى الجبال والصحراء تخضرُّ بعد نزول المطر ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟ إنها الرياح اللواقح بقدرة الخالق عز وجل .

ولنا وَقْفة عند قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى] أى : السفن التى تسير بقوة الرياح تظل راكدة على صفحة الماء لا يحركها شيء ، فإنْ قُلْت : كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدم العلم الذى سيَّر السفن بقوة البخار والديزل أو الكهرباء ، واستغنى عن الرياح ؟

ونقـول : الرياح من مـعـانيهـا الهـواء ، وهي أيضـاً تعني القـوة مطلقاً ، كمـا في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال] أي : قوتكم ، فالريح تعني القوة على أيِّ وضع ، سواء أسارتْ بالرياح أو بالآلة ، فهو سبحانه قادر على أنْ يُسكنها .

لذلك تجد أن الرياح بمـعنى القوة لها قوة آنية ، وقـوة آتية ، آنية يعني الآن ، وآتيـة تأتي فيمـا بعد ، وكذلك كل إنسـان وكل شيء في الكون له نَفَس وريح وكيماوية خاصة به تميزه عن غيره وهذه مهمة كـلاب البوليس التي تشم رائحـة المـتـهـمين والمـجـرمـين في قضـايا المخـدرات مثلاً ، فالشـخـص له رائحة الآن وهو موجـود ، وله رائحة تظلّ في المكان حتى بعد أنْ يفارقه .

لذلك يُعلِّمنا القـرآن أن الريح هو أثبت الآثار في الإنسـان ، واقرأ في ذلك قـوله تعالى عن يوسف ويعـقوب عليـهمـا السلام : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف]

وكـان يوسف في مـصـر ، ويعـقوب فـي أرض فلسطين ، فلمـا فصلت[1] العيـر بقميص يوسف ، وخـرج من نطاق المبـاني التي ربمـا حجزتْ الرياح ، قـال يعقوب ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف] على بُعْد ما بينهما من المسافات[2] .

---

(١) فصل عن المكان : جاوزه . فالعير خرجت وجاوزت المدينة . [القاموس القويم ٢/٨٣] .

(٢) العلماء في تقدير هذه المسافة أقوال :

- عن ابن عباس عدة أقوال : مسيرة ثمانية أيام - عشرة أيام - مسيرة ثمانين فرسخاً - مسيرة ستة أيام .
- عن الحسن البصري أنها مسيرة شهر .
- وعن محمد بن كعب - أنها مسيرة سبعة أيام . [ذكر السيوطي هذه الأقوال في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » (٤/٥٨١)] وعلى قول ابن عباس أنه مسيرة ثمانين فرسخاً ، يكون معنى هذا أن المسافة هي أكثر من ٤٠٠ كيلو متر . على أساس أن الفرسخ ثلاثة أميال على الأقل ، والميل ١٧٦٠ متراً . والله تعالى أعلم .

وإذا أُفردت الرياح دلَّتْ على الشر . ومعنى الرياح أن تأتي ريح من هنا وريح من هنا .. فتأتيك بالأكسوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور في الكون ، فهي إذن تأتيك بالفائدة .

وقلنا : إن الأشياء الثابتة اكتسبتْ الثبات من وجود الهواء في كُلِّ نواحيها وجهاتها ، ولو فرَّغْتَ الهواء من ناحية من نواحي إحدى العمارات لانهارتْ في الحال ، كذلك الريح إنْ جاءت مفردة فهي مدمرة ، وفيها العطب كما في قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات]

وقال : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة]

فقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. ﴿٤٨﴾﴾ [الروم] فإرسال الرياح في ذاته نعمة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [الروم] إثارة السحاب أي : تهيجه وتحركه ، وهذه نعمة أخرى .

والسحاب عبارة عن الماء المتبخِّر من الأرض ، وتجمُّع بعضه على بعض في طبقات الجو ، وماء المطر ماء مُقطر بقدرة الله ، كما نُجري نحن عملية التقطير في المعامل مثلاً ، فيأتينا المطر بالماء العَذْب النقي الزلال الذي قطرته لنا عناية الخالق سبحانه دون أنْ ندري .

وإذا كان تقطير كوب واحد يحتاج إلى كل هذه العمليات ، وكل هذه التكلفة ، فما بالك بماء المطر ؟

وسبق أنْ قُلْنا : إن من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتسع رقعة البَخْر ليكفي الربع الباقي ، وضربنا لتوضيح ذلك مثلاً بكوب الماء حين تتركه على المنضدة مثلاً ، وحين تسكبه

فى أرض الغرفة ، ففى الحالة الأولى يظل الماء فترة طويلة ؛ لأن البَخْر قليل ، أما فى الأخرى فإنه سرعان ما يتبخر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [الروم] وانظر إلى طلاقة المشيئة ، فالمطر يصرفه الله كيف يشاء إلى الأماكن التى تحتاج إلى مطر ، ومن العجيب أن الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربما يرزقه من سحاب لا يمر على بلده ، وانظر مثلاً إلى النيل . من أين يأتى ماؤه ؟ وأين سقط المطر الذى يروى أرض النيل من أوله إلى آخره ؟

ومعنى ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا .. (٤٨) ﴾ [الروم] كسفا : جمع كِسْفة ، وهى القطعة ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. (٤٨) ﴾ [الروم] المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم] أى : من بين هذه السحب .

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ [الروم] والإصابة قد تكون مباشرة ، فيهطل المطر عليهم مباشرة ، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة ، فينزل المطر فى مكان ويسقى مكاناً آخر ، بل ويحمل إليه الخِصْب والنماء ، كما كان النيل فى الماضى يحمل الطمى من الحبشة إلىّ السودان ومصر .

وكان هذا الطمى يستمر مع الماء طوال مجرى النيل وإلى دمياط ، فلماذا لم يترسب طوال هذه المسافات ؟

لم يترسب بسبب قوة دفع الماء وشدة انحداره ، بحيث لا يستقر هذا الطمى ولا يترسب .

وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ [الروم] لأن الرياح حين تمر عليهم تُبشّرهم بالمطر ، وحين ينزل المطر يُبشّرهم بالزرع والنماء والخِصْب والخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عليها الماءَ اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كُلِّ زوجٍ بهيجٍ ﴿٥﴾ [الحج]

وأذكر وأنا صغير وبلدنا على النيل، والنيل من أمامها متسع، وبه عدة جزر يزرعها الناس، فأذكر أننا كنا نزرع الذرة، وجاء الفيضان فأغرقه وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد، وكان الناس يذهبون إليه ويجمعونه بالقوارب، ورأيت النساء تزغرد والفرحة على الوجود، فكنت أسأل أبي رحمه الله: النيل أغرق الزرع، فلماذا تزغرد النساء؟

فكان والدي يضحك ويقول: تزغرد النساء لأن النيل أغرق الزرع، وهذا هو مصدر الخير، وسبب خصوبة الأرض، فلما كبرتُ وقرأت قصيدة أحمد شوقي[1] رحمه الله في النيل:

مِنْ أيِّ عَهْدٍ في القُرَى تتدفَّقُ ... وبأيِّ كَفٍّ في المدائن تُغْدِقُ

الماءُ تُرسِلُه فيصبح عَسْجداً[2] ... والأرضُ تُغرِقُها فيحيا المغرَق

لما قرأتُ هذه القصيدة عرفت لماذا كانت النساء تزغرد حين يُغرق النيلُ الزرعَ.

والاستبشار لنزول المطر يأتي على حسب الأحوال، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر، والاستبشار أبلغ حيث يأتي المطر مفاجئاً ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم] أما إنْ جاء المطر في

---

(١) هو: أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء، ولد ١٨٦٨ م بالقاهرة وتوفي ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً. نشأ في ظل البيت المالك، درس الحقوق وأطلع على الأدب الفرنسي. كانت حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث. اتسعت ثروته وعاش مترفاً في نعمة واسعة. [الأعلام للزركلي ١٢٧/١].

(٢) العسجد: الذهب. وقيل: هو اسم جامع للجوهر كله من الدرّ والياقوت. [لسان العرب - مادة: عسجد].

الأحوال العادية فإن الاستبشار به يكون أقلَّ .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

معنى ﴿ مُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الروم] آيسين من نزول المطر ، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مزدوجة ومضاعفة .

وللعلماء[1] وقفة حول هذه الآية ؛ لأنها كررتْ كلمة من قبل ، وبالتأمل نجد المعنى : من قبل أنْ ينزل عليهم ، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين ، فهنا إذن قبلان .

ولا بُدَّ أن نفهم أن هناك إرسالاً للرياح التي تبشر بالمطر ، وهناك إنزال المطر ، فلما ينزل المطر يكون هناك قبلية له هي الإرسال ، فقبل الإرسال كان عندهم يأس ، وبعد الإرسال قالوا ربما لا تمطر .

إذن : هنا كم قبل ؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال . فالمعنى : فهُمْ من قبله - أي من قبل أن ينزل المطر - من قبل هذا عندهم يأس .

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) هذا أقوال ذكرها القرطبي في تفسيره (٧/٥٣٠١) :

- عند الأخفش : هذا تكرار معناه التأكيد ، وأكثر النحويين على هذا القول . قاله النحاس

- وقال قطرب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر أي : وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر .

- وقيل : المعنى : من قبل السحاب من قبل رؤيته . واختار هذا القول النحاس .

كأن الحق سبحانه أراد أنْ يستدلَّ بالمحَسّ المنظور في الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة ؛ لذلك يعلل بقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم] فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيي ، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذه عملية مُحسَّة لنا .

أما في إحياء الموتى فجاء بالاسم محيي ، والاسم يفيد ثبوت الصفة ؛ ليؤكد إحياء الموتى ، ومعلوم أن الموت لا يشك فيه أحد ؛ لأنه مُشاهد لنا ، أما البعث فهو محلُّ شكٍّ لدى البعض لأنه غيب .

ومع ذلك يقول تعالى عن الموت : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾ [المؤمنون] ، فيؤكد هذه القضية مرة بإنْ ، ومرة باللام ، والموت شيء واقع لا ننكره ، فلماذا كل هذا التأكيد ؟

قالوا : نعم هو واقع لا نشك فيه ، لكنه واقع مغفول عنه ، فكأن الغفلة عنه كالإنكار ، ولو كنتم متأكدين منه ما غفلتم عنه .

فلما ذكر البعث قال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون] فأكدها بمؤكد واحد ، مع أنه محلُّ شكٍّ ، فكأنه لما قامت الأدلة عليه كان ينبغي ألاَّ يشك فيه ؛ لذلك لم يؤكده كما أكَّد الموت ، ولما غفلنا عن الأدلة كان واجباً أنْ يُؤكِّد الموت ، فأكَّد الموت ، ولم يؤكد البعث .

ومعنى ﴿فَانظُرْ .. (٥٠)﴾ [الروم] الأمر بالنظر هنا ليس (فنطزية) ولا (للفرجة) أو التسلية ، لأننا نقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : محلاً للبحث والتقصي لنصل إلى وجه الحق فيه ، بترجيح بعض الأدلة على بعض .

إذن : (فانظر) أى : نظر اعتبار وتأمل ؛ لأننا نريد أن نقيس الغائب عنا والذى نريد أن نخبر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها .

ففى الآية دليل جديد من أدلة قدرة الحق ووحدانيته ، وهو دليل كونى نراه جميعاً ، والحق سبحانه يُلوِّن الأدلة ليلفت المخلوق إلى عظمة الخالق ليؤمن به إلهاً واحداً قاهراً قيوماً مقتدراً ، وهذه الأدلة حجة تضىء العقل ، وآيات فى الكون تبرهن على الصِّدق ، وأمثال يضربها للناس فى الكون وفى أنفسهم ، ووعد لمن آمن ، ووعيد لمن خالف .

وهنا أيضاً دليل كونى مشهود فى الكون ، فالذى أحيا الأرض الميتة كما تشاهدون (لمحى الموتى) فى الآخرة كما يخبركم ، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت صفة الإحياء قبل أنْ يُحيى ، كما نقول : فلان شاعر فلم يكتسب هذه الصفة لأنه قال شعراً ، إنما هو شاعر قبل أن يقول ، كذلك الخالق سبحانه (محى) قبل أن يوجد منه الفعل ، وقادر قبل أنْ يخلق مقدوراً له ، وخالق قبل أنْ يخلق خَلْقاً ، فبالصفة فيه سبحانه خلق .

ولكى نُقرِّب الشبه بين إحياء الأرض بالنبات وإحياء الموتى يوم القيامة نقول : لو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا هذا الهيكل الضخم الذى يزن إلى مائة كيلو أو يزيد ، أصل تكوينه ميكروب لا يُرَى بالعين المجردة ، حتى قالوا : إن أنسال العالم كله من الحيوان المنوى يمكن أنْ توضع فى حجم كستبان الخياطة ، إذا ملىء نصفه من المنى ، ثم يأخذ هذا الحيوان المنوى من الغذاء من الرزق فينمو ويكبر فى الحجم فقط ، لكن تظل الشخصية كما هى .

فإذا مات الإنسان يبْلَى هذا الجسد ، ويتحلل إلا عظمة الذنب ، فتبقى لا تتحلل ولا تأكلها الأرض لتكون هي البذرة التي تنبت الإنسان بقدرة الله يوم القيامة ؛ لذلك جاء في حديث إحياء الموتى يوم القيامة : « فينبتون كما ينبت البقل »[1]

ففي هذه العظمة الصغيرة كل صفات الإنسان وخصائصه ، ومنها يعود كما كان قبل الموت ، كما ترى حبة السمسم مثلاً ، فهي رغم صِغَرها إلا أنها تحمل كل خصائص هذا النبات كلها ، إذن : صِغَر الحجم دليل على القدرة ، فإذا ما وضعت هذه الحبة الصغيرة في البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التربة ومن الهواء وتنمو وتكبر ، وهذا النمو وهذا الكبر لا يعطي شخصية جديدة إنما الشخصية ثابتة ، إنما يعطي تكبيراً لها فحسب .

لذلك لما شرَّحوا الأرنب وجدوه صورة طبق الأصل من تشريح الإنسان ، بمعنى أن فيه كل جوارح الإنسان وكل أجهزته ، حتى البعوضة في حجمها الضئيل فيها كل الأجهزة ، لكن أين جهازها الهضمي وجهازها الدموي وجهازها العصبي والسمبتاوي والبولي .. الخ ، فدقَّة هذه المخلوقات دليل على القدرة .

وفي حضارتنا الحالية تجد أن من علامات التقدم العلمي أنْ نُصغِّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة ، وانظر مثلاً إلى الراديو أول ما

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٤٩٣٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون شهراً ، قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قال : ثم يُنْزِل الله من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عُجْب الذنب ، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة » .

اخترعوه كان فى حجم النورج ، أما الآن فهو فى حجم علبة الكبريت.

إذن : فالعظمة أن تضع كل الأجهزة فى هذا الحجم الصغير ، أو تجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة ، كما فى ساعة « بج بن » مثلاً .

لذلك نرى الخالق سبحانه خلق الشىء الدقيق المتناهى فى الصِّغَر ، بحيث لا يُدرك بالعين المجردة ، ومع ذلك يحتوى على كل خصائص الشىء الكبير ، وخلق من المخلوقات الضخم الذى لا تستطيع أنْ تحدَّه .

إذن : حينما ينمو الشىء لا يزداد خصائص جديدة ، إنما تكبُر عنده نفس الخصائص ونفس المشخِّصات الأصلية فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : لو أن إنساناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض والعياذ بالله أفقده نصف وزنه ، تقول : أين ذهب هذا النقص ؟ ذهب إلى فضلات نزلتْ منه ؛ لأن الإنسان ينمو حينما يكون الداخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فإنْ تساوى يقف عند حدٍّ معين لا يزيد ولا ينقص .

فإذا سخر الله لهذا المريض طبيباً يداويه ، فإنه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطبيعى مائة كيلو كما كان ، فهل عاد إليه ما فقده فى نقص الوزن ، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتكوين ؟ عاد إليه مثل الذى فقده . إذن : فالشخصية هى هى باقية لا تتغير مع النقص أو الزيادة .

كذلك فالشخصية أو الخصائص موجودة فى هذا الميكروب الدقيق أو فى هذه الحبة الصغيرة ، إلى أنْ تُوضع فى بيئتها المناسبة ،

فتعطى نفس الشخصية أو نفس الخصائص لنوعها ، حتى قالوا : إن قدماء المصريين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب ، وحفظوها طوال آلاف السنين ، بحيث إذا وُضعت الحبة منها فى التربة المناسبة فإنها تنبت .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبة بعد بضعة آلاف من السنين ، أيكون عزيزاً على الله أنْ يستنبت بذرة الإنسان ، ويُحيى الذرة الباقية منه فى الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره تعالى يوم القيامة ؟

ثم إن الحبة الواحدة التى يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها ، أما بذرة الإنسان والذرة الباقية منه فتعطى شخصاً واحداً لا غير ، أيصعب هذا على القدرة الإلهية ؟

لذلك يحثُّنا الحق سبحانه على التأمل فى قوله ﴿ فَانظُرْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] لا نظر عين ، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط ، وربنا ينعى علينا الغفلة فى التأمل ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف]

ونسمى الجدل لإظهار الحقائق (مناظرة) ، يناظر كل منَّا الآخر ، لا نظرَ عين ، ولكن نظر عَقْل واستنباط .

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] أى : الذى أحياها ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء ، فإذا أخبرك بأنه يُحيى الموتى ، فصدِّق وخُذْ مما شاهدته دليلاً على ما غاب عنك .

ثم يختم الحق سبحانه هذه الآية بصفة أخرى تؤكد صفة الخَلْق

والإحياء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم] فغير أنه سبحانه حيٌّ ومحيي له سبحانه صفات الكمال ، والقدرة على كل شيء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً .. إلخ .

فبعد أنْ ذكر الحدث في الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿يُحْيِي .. ۝٥٠﴾ [الروم] ذكر الاسم الدال على ثبوت الصفة ﴿لَمُحْيِي .. ۝٥٠﴾ [الروم] ثم جاء بكل صفات الكمال في ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم]

يريد الله أن يبين أن الإنسان كنود[1] ، وأنه خُلق جزوعاً ، إنْ مسَّه الشر يجزع ، وإنْ مسه الخير يمنع ، فلما كان يائساً من الهواء يهبُّ عليه أرسل الله إليه الرياح ، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله عليه المطر مدراراً ، فهل أخذ في باله هذا العطاء ، بحيث إذا أصابه يأس من شيء طلب فرجه من الله ، وأزاح اليأس عن نفسه وقال : إن لي رباً ألجأ إليه ، ولا ينبغي لي أن أقنط وهو موجود ؟

فالذي فرج عليك من يأس الرياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرِّج عنك كل كَرْب ؛ لذلك ينبغي أن يكون شعار كل مؤمن : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ولا تيأس ، فليستْ مع الله مشكلة المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب ، أما الكافر فما أشقاه ، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه ، فيلجأ في كثير من الأحوال إلى الانتحار.

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصلاة ،

---

(١) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها فهو كاند ، وصيغة المبالغة كنود أي : كفور شديد الجحود [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] ففى الصلاة تختلى بربك وخالقك ، وتعرض عليه حاجتك ، وتستمد منه العون والقوة .

كذلك يُعلِّمنا هذا الدرس نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ فحينما خرج ببنى إسرائيل وأدركه فرعون وقومه ، فوجدوا أنفسهم محاصرين ، البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، قالوا لموسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] وهذا منطق البشر وواقع الأشياء ، لكن كان لموسى منطق آخر ينطلق فيه من وجود ربٍّ قادر يلجأ إليه فى وقت الشدة فيفرجها عنه .

فقال موسى بملء فيه (كلا) قالها على سبيل اليقين قَوْلة الواثق من أن ربه لن يتخلى عنه ، لم يقُلْها برصيد من عنده ، إنما برصيد إيمانه فى الله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] وهذا هو المفْزَع لكل مؤمن .

لِمَ لا ، وأنت إنْ كانت لديك قضية ترتاح إنْ وكَّلْتَ فيها محامياً يدافع عنك ، فما بالك إنْ وكَّلت رب الأرض والسماء ، فكان هو سبحانه المحامى والقاضى والشاهد والمنفّذ للحكم ؟

وأنت ترى القاضى فى الدنيا يحكم ببينة قد يُدلّس فيها ويحكم ، ويحكم بإقرار لا يستطيع أنْ ينتزعه من صاحبه ، أو بشهادة الشهود ، وقد يكونون شهودَ زور ، ثم هو بعد ذلك لا يملك تنفيذ حكمه ، فهناك سلطة قضائية تحكم وسلطة تنفيذية تنفذ ، حتى السلطة التنفيذية يستطيع المجرم أن يفلت منها .

أما فى محكمة العدل الإلهى ، فقاضيها هو الحق ـ سبحانه

---

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

وتعالى - فلا يحتاج إلى بينة أو إقرار أو شهود ، ولا يستطيع أحد أنْ يُدلِّس عليه سبحانه ، أو أنْ يُفلت من حكمه ؛ لذلك قال تعالى عن نفسه : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

لك أن تلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الروم] والآية السابقة ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم] فيرسل : مضارع دالٌّ على الاستمرار ، والرياح كما قلنا لا تُستعمل إلا في الخير ، فكأن إرسال الرياح أمر متوافر ، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله وتكرُّماً .

أما هنا ، وفي الحديث عن الريح ، وسبق أنْ قُلْنا : إنها لا تستعمل إلا في الشر ، فلم يقُلْ يرسل ، بل اختار (إن) الدالة على الشك ، والفعل الماضي الدال على الانتهاء لماذا ؟ لأن ريح الشر نادراً ما تحدث ، ونادراً ما يُسلِّطها الله على عباده ، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتي مرة في السنة ، كذلك الريح العقيم جاءتْ في الماضي مرة واحدة ، كذلك الريح الصرصر العاتية .

إذن : فهي قليلة نادرة ، ومع ذلك إنْ أصابتهم يجزعون وييأسون ، وهذا لا ينبغي منهم ، أليست لهم سابقة في عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرياح ، فأرسلها الله عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله لهم ، فلماذا القنوط والرب موجود ؟

ومعنى ﴿ فَرَأَوْهُ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الروم] أي : رأوا الزرع الذي كان

أخضر نضراً ﴿ مُصْفَرًّا .. (٥١) ﴾ [الروم] أى : متغيراً ذابلاً ﴿ لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ [الروم] يكفرون باليأس الذى يعزل الحق سبحانه عن الأحداث ، مع أن لهم سابقةً ، وقد يئسوا وفرَّج الله عليهم .

ذلك لأن الإنسان لا صبرَ له على البلاء ، فإنْ أصابه سرعان ما يجزع ، ولو قال أنا لى رب أفزع إليه فيرفع عنى البلاء ، وأن له حكمة سأعرفها لاستراحَ ولَهانَ عليه الأمر .

ولك أنْ تسأل : لماذا قال القرآن ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا .. (٥١) ﴾ [الروم] ولم يقُلْ وإن ؟ قالوا : هذه اللام الزائدة يُسمُّونها اللام الموطئة للقسم ، فتقدير الكلام : والله لئن أرسلنا ، فالواو هنا واو القسم واللام مُوطِّئة له ، وللحق سبحانه أن يقسم بما يشاء على ما يشاء ، وكل قسم يحتاج إلى جواب ، تقول : والله لأضربنَّك .

كذلك الشرط فى (إن) يحتاج إلى جواب للشرط ، والحق سبحانه هنا مزج بين القسَم والشرط فى جملة واحدة . فإنْ قلت فالجواب هنا للقسَم أم للشرط ؟

قالوا : فطنة العرب تأبى أنْ يوجد جوابان فى جملة واحدة ، فيأتى السياق بجواب واحد نستغنى به عن الجواب الآخر ، والجواب يكون لما تقدَّم ، فإنْ تقدم القسَم فالجواب للقسم ، وإنْ تقدَّم الشرط فالجواب للشرط . وهنا ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. (٥١) ﴾ [الروم] قدم القسم ؛ لأن التقدير : والله لئن أرسلنا ريحاً ..

وكلمة ﴿ لَّظَلُّوا .. (٥١) ﴾ [الروم] مأخوذة من الظل وظلَّ فعل ماضٍ ناقص مثل بات يعنى فى البيتوتة ، وأضحى يعنى : استمر فى وقت الضحى ، وأمسى فى وقت المساء ، كذلك ظلَّ أى : استمر فى الوقت الذى فيه ظلٌّ يعنى : طوال النهار ، إذن : نأخذ الزمن من المشتق منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّي رسوله ﷺ حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك ؛ لأن هؤلاء لن يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد في سبيلها والجهر بها ؛ لأنني أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسْلمه .

وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قسراً لا يملكون أنْ يكفروا : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

إنما أريد أنْ يأتوني طواعية عن محبة ، لا عن قهر ؛ لأنني لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أيُّ بشر يجبروته أنْ يجعلَ الناسَ تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتِي من قوة أنْ يُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .

وهنا يقول تعالى لنبيه : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] فجعلهم في حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزقون ، لماذا ؟ لأن الذي لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .

أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التي يستوي فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه

للمؤمن خاصة ، والتي يقول الله فيها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهي الحياة التي تُورثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .

لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

لذلك سمَّى الله المنهج الذي أنزله على رسوله روحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوي ولا تزول .

وسمَّى الملَك الذي نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] فالمنهج روح من الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه في الناس جميعاً . فيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التي يستوي فيها جميع البشر . لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقي أو بلطجي يفسد في المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا ؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل في النافع الدائم ، فلا معنى لها .

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء

القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ في إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتي ممن أصغى سمعه ، وأعمل عقله في الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً في صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شيء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعي قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها ؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، مليء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعي هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لي هذا الكون ؟

ثم لم يدَّع أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذي جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة في آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] وهذا يعني أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن

مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد . ويصل إلى حَلِّ اللغز في الكون وفي الخَلْق ؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التي أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضي على فسادهم وطغيانهم ؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، ألاَ تقرأ قول الحق سبحانه عن مقالتهم : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعِدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدري ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعني : وعي القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه ؛ لأن الله ختم على قلبه .

ومهمة الداعي أنْ يتعهد المدعو ، وألاَّ ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .

وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .

ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ،

فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلباً صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم[1] .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤْمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .

وحين نلحظ الفاء في بداية هذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. (٥٢)﴾ [الروم] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم ؛ لأنك ما قصرْتَ في البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل ؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التي جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : « خرج عمر متقلداً السيف ، فلقيه رجل ، فقال له : أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب إن ختنك وأختك قد صبَوا وتركا دينك الذي أنت عليه . فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب بحس عمر توارى في البيت ، فدخل عليهما ، فقال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟ لعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمَّى وجهها فقالت وهي غضبى : وإن كان الحق في غير دينك ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . وقد أدى هذا الموقف بعمر أن ذهب لرسول الله ﷺ في دار ابن أبي الأرقم ، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ، فهذا عمر ابن الخطاب : اللهم أعز الإسلام - أو الدين - بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وأسلم ، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢١٩ ، ٢٢٠) .

ونَهْى بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لابُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)﴾ [الروم] وفى موضع آخر : ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤)﴾ [فصلت] وقال أيضاً : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨)﴾ [البقرة]

وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتى نتيجة الصمم ؛ لأن اللسان يحكى ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شىء يحكيه .

لذلك نجد الطفل العربى مثلاً حين ينشأ فى بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها ، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا ؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربى عن العجوز : أنها الحَيْزبون والدَّردبيس[1] .. الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربى لكن لم تسمعه أذنك .

والأذن هى أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم فى حكم الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج]

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطىء فى

(١) الحيزبون : العجوز . والنون زائدة ، كما زيدت فى الزيتون . [اللسان - مادة حزب] .
- الدردبيس : الشيخ الكبير الهمّ (البالى) الفانى ، والعجوز أيضاً يقال لها دردبيس [اللسان مادة : دردب ، دربس] .

شيء ، فتقول له : أنت أعمى ؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملهما في مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً في حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يرونَ آيات الإعجاز في الكون ، وليتهم صُمٌّ فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك . لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)﴾ [الروم] يعني : أعطوكَ ظهورهم ، إذن : لم يَعُدْ لهم منفذ للتلقي ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ في مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

﴿وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرُّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر في العمى (فلان لا يعطي العمى حقَّه) يعني : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : ﴿إِن تُسْمِعُ .. (٥٣)﴾ [الروم] أي : ما تُسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾ [الروم] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوِّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَن اخترع أبسط الأشياء في

حياتنا ونُؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا تعرف أديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى ، والله الذى خلق الشمس لَهُوَ أوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذى تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدِّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به ؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس فى أعقاب البلاغ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن العمل الذى يُؤدِّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم : لأن عملهم غالٍ لا يُقدِّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفِّيهم أجورهم .

ومعنى ﴿ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا .. (٥٣) ﴾ [الروم] يعنى : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما فى الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤) ﴾

الحق - تبارك وتعالى - بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة فى الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْفِ الآيات فى الكون من حولك ، فانظر فى آيات نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفِى

أنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] وجمع بين النوعين في قوله سبحانه : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

فهنا يقول : تأمل في نفسك أنت : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ .. (٥٤)﴾ [الروم] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التي خُلقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها في نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها في غيرك ، شاهدتها في الماء المهين الذي يتكوَّن منه الجنين ، وفي الأم الحامل ، وفي المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبِّي بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التي أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا في ذاته ، لكن في غيره ، وفي مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال في مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ في النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشي ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق - سبحانه وتعالى - وينبغي أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة الشباب هذه في العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هي بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدي مهمتها التي خلقها الله من أجلها .

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه

طفل ، ينبغي علينا أنْ تلبي كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ ترضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما في خارج بلادنا ، فبمجرد أن يبلغ الشاب رُشْده لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا في تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية في هذه السِّنِّ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [النور]

فانظر أنت أيها الإنسان الذي جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك في خدمتك ، انظر في نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شيء يخدمك غيرك.

ومن حكمته تعالى في الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذي أمه ، ثم تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية ؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ في نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] أي : قوة الشباب وفتوته ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] أي : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسري في كل الأعضاء ، حتى في العلم ، وفي الذاكرة ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥) ﴾ [الحج]

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل في كل شيء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقوِّيك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع

عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة ؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتاميتات) في سنّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة في الأداء في قول سيدنا زكريا : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت في جسمك.

فمعنى قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] يعني : وصلتُ إلى مرحلة الحرض[1] التي لا أملَ معها في قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم]

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لونًا ، إنما البياض انعدام اللون ؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف بـ « السوالف » من هنا ومن هنا ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق يتفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيماوية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضي عليها ؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً في المترفين خاصة ؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب في هذه المناطق من الرأس .

---

(١) الحرض : الساقط الذي لا يقدر على النهوض . [اللسان مادة : حرض] .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولا ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] ثم ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] ومع كِبَر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له في طلبه للولد الذي يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف ؟ لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .. ٥٤﴾ [الروم]

وقال في شأن زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم] أي : أن هذا الخَلْق ناشيء عن علم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك] لكن العلم وحده لا يكفي ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد المموِّلين ليعينه على التنفيذ ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسي على الموجد الحق الفاعل المختار الذي يفعل الأشياء بعلم وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً ؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدري بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلْت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة لتحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التي شاركت في حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشيء كن فيكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

بعد أنْ عرض الحق - سبحانه وتعالى - الدليل ليهتدي به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتد يلوِّح له بهذا التهديد : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] معنى كلمة ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته ؛ لأن الساعة أمر لا يتأتَّى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله ﴿تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهي من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة ﴿تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدي مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ،

ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعنى : أنها جاءت لتؤدى مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة ؛ لأنها دالة على الوقت الذى يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة لحساب الزمن تقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالى ، توقيت كذا أو كذا .

هذه الآلة التى فى أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيِّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدة ثوان أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنِعتْ فى سويسرا ، أو فى الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التى لا ساعة بعدها ، واعلم أنها منضبطة عند الحق سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فإنْ كذبوا فى الدنيا ، فهل يكذبون أيضاً فى الآخرة ؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم فى هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولم يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] فقد كانوا يقلبون الحقائق فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذى خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّى الفعل جريمة .

ومعنى ﴿مَا لَبِثُوا .. (٥٥)﴾ [الروم] اللبث : المكْث طويلاً أى فى الدنيا ، أو : ما لبثوا فى قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التى تميت إلى النفخة التى تُحيى .

فهذه فترات ثلاث للبثهم في القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين . وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

وهؤلاء يقولون يوم القيامة « ما لبثنا غير ساعة » مع أن الآخرة لا كذبَ فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم : لأن الغائب عن الزمن لا يدرى به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن ؛ لأن الزمن يُحسب بتوالي الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالي لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذى أماته الله مائة عام ثم بعثه[1] .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوقِّتوا إلا على عادة الناس في النوم ، فقالوا : ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف] ؛ لأنه في هذه الحالة لا يدرى بالزمن ، إنما يدرى بالزمن الذى يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان في هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون]

(١) هو : العُزَيْر . حكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى ، وهذا هو القول المشهور . وقال سليمان بن بريدة : هو حزقيل بن بوار . قال ابن كثير : « أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها » [تفسير ابن كثير ١/٣١٤] .

أي : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود الملائكة[1] ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها منذ خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشيء الذي لا يكون مظنة العدِّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد في الدنيا رمال الصحراء مثلاً ؟ لذلك نسمع في الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف في السماء كم نجم ؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة ؟ وفي موضع آخر يقول عنهم : ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** (٤٦) ﴾ [النازعات]

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذي يجمعك ومَنْ تحب يمضي سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذي تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدِّ قول الشاعر :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفْزَانِ[2]

ويقول آخر :

وَدَّع الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ ذائعٌ من سرِّه ما استودعكَ

(١) قاله مجاهد . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/١٢٢) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٢) القفزان جمع : قفيز ، وهو مكيال تتواضع الناس عليه . قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة : قفز] : « هو ثمانية مكاكيك عند أهل العراق . والمكُّوك : ثلاث كيلات » أي : أن القفيز الواحد : ٢٤ كيلة . أي : ٢٨٨ كيلوجرام .

يَقْرَعُ السِّنَّ على أنْ لم يكُنْ زَادَ في تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

إلى أنْ يقولَ :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلِي فلكَمْ بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ معكْ

ففي أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفي أوقات الغمِّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذي يقول ـ لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ يَا صُبْحُ قِفْ لاَ تطْلُعِ

كذلك الذي ينتظر سروراً يستبطيء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذي ينتظره ، أما الذي يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذي يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن ؛ لأنهم واثقون من الخير الذي ينتظرهم والنعيم الذي وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعدهم عما ينتظرهم من العذاب ؛ لذلك يقولون ما لبثنا في الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .

إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدري بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

والذي لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً في حكمه على الزمن ؛ لذلك أقام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل على صدْق القولين فقال : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ

لَمْ يَتَسَنَّهْ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] والطعام لا يتغير في يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صدْق الرجل .

ثم قال سبحانه ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فقامت العظام البالية دليلاً على صدْقه تعالى في المائة عام . ولا تقل : كيف نجمع بين صدق القولين ؟ لأن الذي أجرى هذه المسألة رب ، هو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الزمن في حَقِّ قوم ، ويبسطه في حَقِّ آخرين .

وهذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله ، ومعنى إعذارهم أي : إسقاط عذرهم في أنه سبحانه لم يُبيِّن لهم أدلة الإيمان في قمته بإله واحد ، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام في : افعل ، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث : آيات تثبت قمة العقيدة ، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم ، وآيات تثبت صدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله ، وهذه هي المعجزات ، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه في : افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلِّغ عن الله بواسطة المعجزة ، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلِّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله ، ووجود الله ثابت في آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته في الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبَّها علينا صبّاً ، إنما يأتي بالآية ثم يُردفها

بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتي بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم في أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر في ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار في قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٤٦﴾ [الروم]

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْد معهم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم]

ثم يسوق آية أخرى :

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم]

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾ [الروم]

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتي هذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ۝٥٥﴾ [الروم] لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هي القيامة .

وعجيب أنْ يُقسموا بالله في الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه في الدنيا .

وفي الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] أي : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أي : من الوقت . ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أسِيرٌ   وقَلْبى فِى محبتِكُمْ أسِيرٌ

أي : مأسور

ولي أنا وزميلي الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة ـ أطال الله بقاءه ـ قصة مع الجناس ، ففي إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد في القرآن جناس تام إلا في هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : في القرآن شيء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول ؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان في عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شيء فالجناس بينهما ناقص ، كما في قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص ؛ لأنهما اختلفا في الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إليَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك ؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعني : تتفق الكلمتان في كل الحروف أو في بعضها ، وبذلك لا نقول في القرآن : جناس ناقص .

فقولهم ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أي : الساعة الزمنية التي نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم في الدنيا أو في القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم في سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدِّقوا والآن يقولون : إنها كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

ففي الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعي الإيمان ، أما الآن في الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أي : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شيء محبوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أي : كهذا الكذب ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] والإفك من أفك إفكاً . أي : صرف الشيء عن وجهه ؛ لذلك سُمِّي الكذب إفكاً ؛ لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتي بها على غير وجهها ، أو يُوجدها وهي غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهي القرى التي قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أي : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعني : يكذِّبون الرسل في الحقائق التي جاءوا بها من قِبَل ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قال هنا ﴿الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الروم] فهل العلم ينافي الإيمان ؟ لا ، لكنْ هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شيء أنت تراه وتعلمه ، وشيء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان ؛ لذلك دائماً يُقال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .

وقد أوضحنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى في خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

فقال : ألم تَرَ مع أن النبي ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يتسنَّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .

فقوله : ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الروم] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة .... الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر ، لذلك النبي ﷺ لما سأل الصحابي[1] : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصاري . ذكره ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٣٤٢/١) وعزا الحديث لابن المبارك في الزهد .

يعني : ما مدلول هذه الكلمة التي قلتها ؟

فقال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ، ومدرها[1] ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون - يريد أن يقول لرسول الله : لقد أصبحتُ وكأني أرى ما أخبرتنا به - فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم »[2] .

لكن ، مَن هم الذين أوتوا العلم ؟ هم الملائكة الذين عاصروا كل شيء ، لأنهم لا يموتون ، أو الأنبياء لأن الذي أرسلهم أخبره ، أو المؤمنون لأنهم صدَّقوا الرسول فيما أخبر به .

وقال ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٥٦﴾ [الروم] ولم يقل : علموا ، كأن العلم ليس كَسْباً ، إنما إيتاء من عالِم أعلم منك يعطيك ، فإنْ قُلتَ : أليس للعلماء دور في الاستدلال والنظر في الأدلة ؟ نقول : نعم ، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة ؟ إذن : فالعلم عطاء من الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ .. ۝٥٦﴾ [الروم] يعني : مسألة مرسومة ومنضبطة في اللوح المحفوظ إلى يوم البعث ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .. ۝٥٦﴾ [الروم] الذي كنتم تكذبون به ، أما الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدِّقوا فقد جاءكم شيء لا تقدرون على تكذيبه ؛ لأنه أصبح واقعاً ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم ، لكن لن يقبل منكم ، ولن نسمع لكم كلاماً لأننا قدمنا الإعذار سابقاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦﴾ [الروم] في أول

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلك الذي لا رمل فيه . [لسان العرب - مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبراني في الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصاري .

الآية قال : ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦)﴾ [الروم] فنسب العلم إلى الله ، أما هنا فنسبه إليهم : لأن الله تعالى نصب لهم الأدلة فلم يأخذوا منها شيئاً ، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها ، إذن : لم يأخذوا من الدلائل والحجج ما يُوصلهم إلى العلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾

قوله ﴿فَيَوْمَئِذٍ .. (٥٧)﴾ [الروم] أي : يوم قيام الساعة ﴿لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] أي : لا يُقبل منهم عذر ، ومعنى ﴿ظَلَمُوا .. (٥٧)﴾ [الروم] أي : ظلموا أنفسهم ، والظالم يلجأ إلى الظلم ؛ لأنه يريد أنْ يأخذ من الغير ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه .

فالظلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوله إلى دم فيك ، لكن دمك إنْ لم يكُنْ من عَرَقك فهو دم فاسد عليك ، ولا تأتي منه أبداً حركة إجابة في الوجود لا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شر : لأنه دم حرام ، فكيف يتحرك في سبيل الحلال ؟

لذلك ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾ [البقرة] ثم ذكر

الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، فأنَّى يُستجاب له »[1] .

إذن : كيف يُستجاب لنا وأبعاضنا كلها غير أهْلٍ لمناجاة الله بالدعاء ؟

ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر ، إنما ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] العتاب : حوار بلُطْف ودلال بين اثنين في أمر أغضب أحدهما ، وكان من المظنون ألاَّ يكون ، ويجب أن يعرض عليه ليصفي نفسه منه ، كأن يمر عليك صديق فلا يسلم عليك فتغضب منه ، فإنْ كنتَ حريصاً على مودته تقابله وتقول : والله أنا في نفسي شيء منك ، لأنك مررتَ فلم تسلم عليَّ يوم كذا ، فيقول لك : والله كنتُ مشغولاً بكذا وكذا ولم أرَك ، فيزيل هذا العذر ما في نفسك من صاحبك .

ونقول : عتب فلان على فلان فأعتبه أي : أزال عتابه ؛ لذلك يقولون : ويبقى الود ما بقي العتاب ، ويقول الشاعر :

أمَّا العِتَابُ فبالأحِبَّة أخْلَق والحُبُّ يَصْلُح بالعِتَابِ ويصْدُقُ

والهمزة في أعتب تسمى همزة الإزالة ، ومنها قول الشاعر :

أُرِيدُ سُلُوّكم - أي بعقلي - والقَلْبُ يأْبَى وأعْتِبكُم ومِلْءُ النَّفْسِ عَتْبي

ومنه ما جاء في مناجاة النبي ﷺ لربه يوم الطائف بعد أن لَقِي منهم ما لَقِي ، حتى لجأ إلى حائط ، وأخذ يناجي ربه : « ربِّ إلى مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٨/٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠١٥) ، والدارمي في سننه (٣٠٠/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى[1] ، أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إنْ لم يكُنْ بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. إلى أنْ يقول : لك العُتْبى حتى ترضى »[2] .

يعنى : يا رب إنْ كنتَ غضبتَ لشىء بدر منى ، فأنا أريد أن أزيل عتابك علىَّ .

ومن همزة الإزالة قولنا : أعجمت الكلمة أى : أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها ، وأوضحت معناها ، ومن ذلك نُسمِّى المعجم لأنه يزيل خفاء الكلمات ويُبيِّنها .

وتقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ﴿١٥﴾﴾ [طه] أى : أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات .

وهذه الكلمة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] وردتْ فى القرآن ثلاث[3] مرات ، ووردت مرة واحدة مبنية للفاعل[4] (يَسْتَعتبون) ، لأنهم طلبوا إزالة عتابهم ، فلم يُزِلْه الله ولم يسمح لهم فى إزالته ، أما (يُستعتبون) فلأنهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم ، إنما جعلوا لهم

---

(١) جهمه : استقبله بوجه كريه . أى : يلقانى بالغلظة والوجه الكريه . ورجل جهم الوجه أى : كالح الوجه . [لسان العرب ـ مادة : جهم] .

(٢) هذا الدعاء أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٢٠) ، وذلك أن أهل الطائف أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه لحائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما اطمأن رسول الله ﷺ دعا بهذا الدعاء .

(٣) وردت يُستعتبون بالبناء للمجهول فى ثلاثة مواضع :
- ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل] .
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] .
- ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت] .

شفعاء يطلبون لهم ، لكن خَاب ظنهم فى هذه وفى هذه .

فالمعنى ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أى : يزيل العتاب عنكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وهذه الآية تعنى أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم ؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثلَ من واقع حياتهم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر]

هل يستوى عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضى واحداً أسخط الآخرين ؟

ثم يُقرِّب المسألة بمثَل من الأنفس ، وليس شىء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الروم]

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون في هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة في حق الله تعالى ؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شِرْكهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

والمَثَل يعني أنْ تُشبِّه شيئاً بشيء ، وتلحق خفياً بجلي ، لتوضحه وليستقر في ذهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسمَّى هذا : مِثْل أو مَثَل ، نقول : فلان مِثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذي أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام ؟ فصارت مثلاً يُقال في مثل هذه المناسبة مع أنه قيل في حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر والمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة .. الخ لأن حاتماً الطائي صار مضربَ المثل في الكرم ، وعنترة في الشجاعة ، وفي المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعِدّ للأمر عُدّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم فى التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

وليس معنى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] أى : فى الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون : لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلى ، لكن المراد ما فوقها فى الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات .. الخ .

لكنْ ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس ؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس .. الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شىء بالحس أنْ يضرب ؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠)﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدى مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطِن إليه الشاعر ،

فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيَا هَازئاً من صُنُوفِ القَدَرِ ... بنفسِكَ تعنف لاَ بِالقَدرْ

ويَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعصا ... ضربتَ العَصَا أمْ ضربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به ، وتُحسون به حسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحسّ الإنسان بضرب المثل فهو كالذي لا يحسُّ بالضرب الحقيقي المادي ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسّ .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] يعني : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه في قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور]

والمثل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَّلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهو سبحانه يُنوِّرك حسِّياً بالشمس وبالقمر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنويا بالمنهج وبالقيم .

فـفائدة النور الحسي أن يزيل الظلمة ، وأنْ تسير على هُدى وعلى بصيرة فتسلم خطاك واتجاهك من أنْ تحطم ما هو أقلّ منك أو يحطمك ما هو أقوى منك ، والمحصلة ألاَّ تضر الأضعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كذلك النور المعنوي ، وهو نور القيم والمنهج يمنعك أنْ تضرَّ غيرك ، ويمنع غيرك أنْ يضرَّك ، وكما ينجيك النور الحسي من

المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبي تمام[1] لأحد الخلفاء :

إِقْدامُ عَمْرٍو في سَمَاحةِ حَاتمٍ ... في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ

فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب ؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكِروا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَه ... مَثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ[2]

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُورِه ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ[3]

الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التي معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعني أنه ارتجلهما لتوّه . وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .

لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها . وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد بل : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] أي : جديدة ﴿ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] فيتهمون الرسل

---

(١) هو : حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفي ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كُوَّة في جدار البيت ليست بنافذة وتعرف في قراننا بـ « الطاقة » ، مع نطق القاف همزة .

فى بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .

والحق سبحانه يحتجّ على الناس فى أنه لم يُجبهم إلى الآيات التى اقترحوها ؛ لأن السوابق مع الأمم التى كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً.

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت فى جدل لا يجدى ، ثم إن فى إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجيء الآيات يعنى أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا ؛ لذلك لن نجيبهم فى طلب آيات أخرى جديدة .

وهذه القضية واضحة فى جدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع النمروذ فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة أمد الجدل ، ويريد تضييع الوقت فى أخذ وردٍّ ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة ـ مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة ـ وألجأه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها سبيلاً للمراوغة فقال :